وطن في 120 دقيقة

رواية

اسماء شلاش

دار كتاب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
الكتاب: وطن في 120 دقيقة
تأليف: اسماء شلاش
مراجعة لغوية:
تصميم الغلاف:
إخراج: رضوى مرشدي غريب
المقاس: ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع:
الترقيم الدولي:

مسؤول النشر
طارق رمضان
مدير التسويق
رضوى عصام
مدير العلاقات
عمر عبد السميع
مسؤول علاقات عامة
غادة العقاد

جميع الحقوق محفوظة

all rights reserved . no part of this book may be repoduced ’
stored in aretieval system , or transmitted in any from or by any
means ithout prior permission in riting of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعداد المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

العنوان: ٤٩ تقاطع الفلكي مع محمد محمود - القاهرة - مصر
التليفون: ٠١٠٢٩٧٥٥٢٠٠
Email: darkitabone @ gmail.com

إهداء

إلى وطني..
كيف اهتدى قلبي إلى أسلحة الصّبرِ دونكَ، كيف اكتشفَ مخابئَهَا
السّريّة في روحي..!
كأنّك آخرُ غيمة ألبسُ انتظارها..
إليكَ أكتبَ، ولكَ، فأنتَ قضيتي..
فَلِي شوقُ حريتك، ولك طابع الوجع..

إلى الثائرين الآملين فرحاً ونصراً
إلى أبي وأمي وزوجي..
وكل الذين أصابهم شغفُ حبري،
لعلي مثلكم أصلُ إلى أول النهار

أسماء

قلبي كهذا الجرح مفتوحٌ على احتمال المزيد..

وهكذا تصيرُ عيناكَ وطني..

وهكذا يصيرُ وطني هو البعيد..

وتحاصرني أسئلةُ الغياب بلهفةِ فأنا مثلها أسئلةٌ أسئلةٌ أشتهي ألا يحاصرني أي جرح لأني أريد أن أجرّب الكتابة لحظة الفرح عندما يتسلق الحزن جسدي فينتهي في ضوضائه خبراً..

كأني لمستُ أطراف ثيابه فاسيقظَ جرحي القديم على ثرثراته..

كأنّي لازلتُ تلك الصغيرة التي تعلّقتْ ضفائرُها بأغصان الشغف..

إنّي هنا أجرّبُ حرائق روحي وأنازل قلبي الذي اتكأ على حزنه ولاأملك إلا عكازة من حنين لعلي أصل..

كل حافلات الفرح غادرتْ وبقيتُ على المسافة أمدد وقت انتظاري لعلي ألمح بين العائدين وجه أمي تلك التي أوصتني أن أترك بيني وبين الحبر مسافة أمان..

هكذا خلوتُ الى نفسي في ضوضائها كي ألمح بقايا اشتعالي الأول..

أو ألمح وجه أمي بين العائدين..

نص ما قبل الاغتيال

لازلــت حتــى اللحظــة ضائعــة في العنــوان الــذي حــيرني وأغرقنــي في البحــث عنــه..

غريـبٌ أني لم أجـد عنوانـاً لروايتـي حتـى اللحظـة رغـم تحالفي مـع دار نـشر لطباعتها..

رغـم شـكوكي بشـخص مـا يتربـص بي ويحـاول اغتيـال ماتبقــى فيَّ..

قلّبـتُ مفـردات اللغــة العربيــة -كأني أريــد إعــادة صياغــة اللغــة - كــي أتعثــر بــه أو أعثــر عليــه! كتبــت آلاف الكلــات وعجــزت عــن كتابــة العنــوان..

فهل اختيار العنوان عمل شاق لهذه الدرجة؟

عمــل شــاق جــداً لمــن يكتبــون بــماء القلــب.. أو ضرب مــن جنــون.

قالوا « لعل الجنون مجرد حزن كف عن التطور»

هل حقاً كفّ الحزن عن التطور؟

كل يـوم أسـأل نفـسي بـماذا أختلـف أنـا عـن «بطـلي» الـذي تطـور حزنـه ولم ينحسر..

في هــذه اللحظــة التــي اخــترت فيهــا عنــوان روايتــي الثائــرة عــلى بيرواقراطيــة الحــزن، كان عمــر الثــورة يتــسرب مــن بــين أصابــع الزمــن الموحــش، وسأســأل نفــسي مــرة أخــرى مــا

حاجتي للكتابة الآن؟ هناك ما هو أكبر من كل حرف؟ أنا التي كتبت آلاف الكلمات عن فلسطين وجراحها اليوم سأكتب عن بلادي وجراحها، لأن عدوى الجراح قضية لا تنتهي..

قضية لاتنتهي منذ توقفنا عن قراءة التاريخ بشكل جيد.

لو قرأنا التاريخ ماضاعات القدس وماضاعات قبلها الحمراء!

هذا ماقاله الشاعر نزار قباني.

الثورة توشك على عامين، الشهر هو العشرين وتحديداً في ٦-١١-٢٠١٢

الوقت مساء.. وللمساء حضور لافت في الثورة...

كنت وحدي برفقة قلمي، وكان يجب أن أبدأ الكتابة لعل النور يلمح تلك الكلمات صدفة أو عن سابق إصرار..

هل يجب أن أدوّن زمن الثورات وأحنّط الوقت كي يقرأ القادمون الثورة..؟

إن لم يحرّضنا كل هذا الخراب على الكتابة فلنكسر الأقلام في محرابها ونعد خائبين..

كانت معالم الطريق غامضة امامي، مبهمة موحشة كأني أدخل غابة من أرشيف الكون، غابت كل الأدلة وحضر الجاني، لكن الوطن لم يبتعد لحظة.. لم يبتعد كثيراً.

وصـار الجسـد وطنـاً.. ومنـذ ذلـك الحـين جمعـت شـتات افـكاري عـلى شـهوة الـورق.

أفـكاري جمعتهـا في ذاكـرتي المرتجفـة التـي تتمـزق رويـدا رويـدا لكنـي احتفظـت ببعضها..

حتـى هـذه اللحظـة لم يشـاهد أحـد أني فقـدت أحـد أصابعـي بسـبب القطـع المتعمـد في ظـلام التعذيـب. ولم يسـألني أحـد كيـف تكتـب بتسـع أصابـع..

تماما مثل من يصنع وطن في دقائق..

ملاحظـة: أنـا سـأتابع الـسرد في مراحلـه الأخـيرة لأن البطـل قـد تعـرض لعمليـة اغتيـال.

وصار الجسد وطناً

هل تذكرين هذه العبارة التي قلتها لك في أحد لقاءاتنا؟

(كأنكِ الثورة الفرنسية التي انتصرتْ وكأنني الثورة السورية التي تنتظر..)

قلتِ لي وقتها: هذه قصيدة وليست عبارة أو عنوان لفصل روائي..

تابعتِ:

هي تنتظر..

هي تنظر أيضاً..

هي تمارس عشقاً من نوع خاص..

هي مغرية لدرجة أنها تسمح لنا فقط أن ننتظر نتائجها..

الثورات تغريكَ مثل النساء..

مثل أنثى توقفت عن الأنوثة لحظة فقط كي تعد كم ضحية ماتوا في محرابها..

ما حفظت معالمه هو جسد مشوه حط فجأة في الساحة ثم توالت الأجساد جسداً جسداً وكان الوطن يقترب.. الذي اقترب لتصوير الجسد هو صديقي المغامر الشجاع...

«تأكدتُ فجأة أن ذلك الجسد لا يعود لعصر محدد، فلما حدث قبل أن تجري عملية التحنيط.. وصوت ينادي من

حالـق عندمـا يصـير الوطـن في الميـزان، الجسـد والاجسـاد لا قيمـة لهـا..

أعـرف أن لديـك مـن القسـوة مـالا ترضـاه حتـى الجبـال، ربـما سترسـل لي رسـالة خرافيـة تعتـذر فيهـا عـما بـدر منـك مـن قسـوة.. ربـما سـتقول لي أعتـذر عـما فعلـت لكـن لـن أقـول لـك ماقالـه محمـود درويـش، لا تعتـذر عـما فعلـت، فالاعتذار عـن الخـراب خـراب آخـر.

أنا أنتظر أن تموت أمامي كي يشفى غليلي منك..

أعـرف أني قـد لمتـكِ بحجـم سـورية في زمـن الثـورة، أعـرف أنـك كنـت تتألمـين. مـا دمـت تعـرف كل ذلـك فـلا عـذر أقبلـه، ابتعـد أنـا حصلـت عـلى حريتـي وانتـصرت الثـورة....

أنـا وأنـت نصـوص مقسـمة مشروحـة في يـدي قـارئ حـاذق يصطـاد حواراتنـا بنعومـة فيفهـم تفاصيـل انتعـاش الامـل المباغـت في نبـض الحـبر.

أنـا وأنـت والزمـن الغنائمـي المتـوارث الى عقـدة الادمـان.. إدمـان الذنـب والتراجـع.

اسمي إباء يعقوب..

هكـذا عرفـت بنفـسي دون أن أذكـر أي تفاصيـل أخـرى عـن شـخصي.

في اللقـاء التـالي عرفـتُ بنفـسي أكثـر فقلـت أني ناشـط وصحفـي وكاتـب.

توقّفتُ عند هذا الحد..

لكنـي عندمـا غـادرت بلـدي خلعـتُ اسـمي المسـتعار الـذي عرفنـي بـه الآخـرون، خلعتـه رغـم كارثـة أن تخلـع اسـماً تآلفـت معـه سـنين وأنـت هـارب مـن قمـع السـلطات تحـت عباءتـه، فكـم حمـاني ذلـك الاسـم وكـم أنقـذني..!

فأنا مدين له بالكثير ولم أعد قادراً على تسديد ذاك الدين..

في كل مـرة كنـتُ أكتـب فيـه مقـالاً تحـت سـلطة ذلـك الاسـم أفكـر أنـا مايحتاجـه المواطـن العـربي هـو شيء بسـيط لايسـتدعي حفلـة تنكريـة كـي نوضـح مانريـد، لايسـتدعي ذلـك تغيـير أسـمائنا وألواننـا كـي نقـول مانريـد..

مانريده منكم أيها المستبدون بسيط جداً..

نحن نريد حرية التعبير..

اللجوء الأول

أرتدي بطلاً من حبري الخاص، أرتدي جسده..

أرتدي حضوره شوقه..

وهو الذي يلبس كلماتي، يشكل قضية ووطناً في دقائق..

بطل روايتي رجل أرتديه مساء ثم أخلعه نهاراً كي يصدح صوته في الشوارع هاتفاً بشعارات الثورة..كي يقول مالايقال..

أرتديه في ساعة الصفر عندما ينتهي العالم.. وفي لحظة الهزيمة أرتديه

وفي ساعة إعلان النصر..

لم يكن اللجوء هاجسي.. الأمر كان مجرد صدفة.. صدفة بحتة. الكتابة عن الثورة تأخذ من عمري سبع سنين..

هل من أحد يهديني عمراً يعادل حجم الحزن في داخلي؟

هل من أحد يهديني سبع سنين لاتكون عجافاً؟..

أنا أريد وطناً.. وطناً فقط .

أعطوني وطناً فأنا لم أعد قادراً على لملمة شتاتي من دون وطن..

من يكتب عن الثورات يجب أن يتوقع أملاً..فرحاً..أو شعاعاً ممكناً عابراً حتى لو كان مجرد خيط رفيع..

رفيع جداً..

كل أبطالي هربوا من بين أصابعي..

كلهم تركوني الى ما بعد مرحلة العبور..

قابلتهم جميعاً قبل الشروع بعملية الكتابة...

وراء كواليس الحوارات المحضرة للرواية.. والمطوقة بحصار الأسئلة الجافة كنت أتمرن معهم على مهارة القاء الفرح كي نتظاهر به ريثما نمر من كل الحواجز المفخخة باليأس.. لاتتوقفوا هنا عندما تبدؤون قراءة الرواية فهناك أحداث قادمة.

فقط انتظروا.. فالبطل سوف يصحو من غيبوبة إدمان الوجع..

سيكتب أو ينحت تمثالاً من مستحيل..

كل البلدان التي قطعتها وأنا أبحث عن الحرية وأستغرق في معناها، ولم أغرق..

رأيت فيها أشباح المحاربين القدامى، وجثث من وعود تتكئ على جدار الزمن المر..

رايتها فيها النكبة والنكسة.. سبعون عاماً لم نهد فلسطين سوى الشعارات والقصائد.

عادت الكلمات أدراجها خائبة ولم تعد فلسطين.. حتى أم سعد بطلة قصص غسان كنفاني خرجت من السرد ونحن لانزال خارج التاريخ..

خارج الحوارات التي تعنينا..

الذين تخلوا عن فلسطين لحظة الاستغاثة واستكانة الجرح سيتخلون عن قضيتي ألف مرة وسيبيعونها كما بيعت فلسطين في أسواق المزايدات العلنية والسرية.

كل بلد يسألك عن اسمك..

عن فرحك..

عن حزنك..

عن ميلادك..

لغة انتظارك..

ووعود كلها لم تأت..

لا أحد يسألك عن الحرية..

أو كم ذرة من دمك فقدت كي تصير حراً دون إذن من أحد؟

لا أحد يمتطي صهوة و شهوة الحبر مثلي عندما أكتب عن العبث بأقدار الشعوب.

أريد وطناً أكبر من أقدار اللاجئين..

أريد أن يحضنني طيف وطن..

وطن يأتي مني كأني أنا أمه وهو ابني الوحيد الذي اقسمت ألا أنجب سواه عندما قرَّرتُ أن أعاشر التاريخ..

التاريـخ الجميـل فقـط.

ذاك هـو وطنـي الـذي أريـد، وأولئـك هـم أبطـال روايتـي الذيـن التقيـت بهـم أخـيراً في ذلـك البهـو الطويـل جـداً..

كنتُ..

كنت بلا وطن..

مقاعد للانتظار شاغرة تماماً إلا مني

أنا المختبئ خلف ريح..

الملتبس بالكلمات..

كاذبـة أنـا ومنافقـة ايضـاً، فبلادكـم لاتعجبنـي. بلادكم ليسـت مثـل بـلادي تنتظـرني عند

آخـر الضـوء، وتـسرف في مدحـي كأني آخـر ملكاتهـا وأولهـن.. أنتـم لا تشـبهون فيَ شـيئاً.

أنتم لستم كأنا، فأنا من اللامتناهي، وأنتم زمنيون جداً..

لكن انتظرت..

كنـت انتظـر أحـداً، كان مبهـماً بالنسـبة لي حتـى لحظـة وصولـه الي..

هـل اسـتيقظت عـلى روايـة ام أن أمـك فطمتـك عـلى عشـق الكتابـة ؟

من أين انت؟

أنا سوري..

ما اسمك؟

إباء.. إباء يعقوب

من أي مدينة؟

من كلّ المدن؟

حدّدْ..!

لســت أفعــل.. فأنــا أنتمــي لــكل جميــل.. لــكل جميــل في الســوري.

أمّا مدينتي فقد أنجبت مدناً من خراب...

لم أعد أعرف عنها شيئاً..!

كل ذلك لم يكن إلا محاولة ليست خلبية لكتابة رواية.

هنــا حــضر كل أصدقائــي الثوريــون ليشــهدوا عــلى ولادة روايتــي الأولى عــن زمــن الثــورات العربيــة..

روايتك التي منحتك توكيل خاصاً بطباعتها بعد موتي..

لكن كيف تقتلون الأبطال ليحيا الطغاة؟

أليس ذلك إجحافاً؟!

الصديـق القديـم الجديـد «زيـد» كان هنـاك أيضـاً لكنـه فضـل البقـاء خـارج صـيرورتي الروائيـة[١] ولم يختـر اللجـوء..

زيد هو صحفي وناشط حقوقي لكن في السرّ..

في السرّ كالعادة..

تعرفه كلُ المواقع الصحفية باسم مستعار، أما اسمه الحقيقي فهو فادي الجزائري، أصوله ليست جزائرية، ولا ينتمي لسلالة الأمير المناضل عبد القادر الجزائري الذي

أقام يوماً في دمشق بحكم النفي..

لكنه اسم.. مجرد اسم...

هو يحبُّه ويقول شرف لي أني جزائري أيضاً من بلد المليون شهيد...

قد نصبح نحن أيضاً بلد المليون شهيد وأكثراً ونكسر الرقم الذي تحتكره الجزائر.

كلامه أوحى لي بشخصية أخرى للرواية، شخصية تشبه الملوك او الأمراء، لكن بلا عروش أو قصور ولاغيم رمادي يوحي بالمطر..

شخصية ما تشبه عبد القادر الجزائري أو عمر المختار..

فأنا لا أريد أمير حرب ثري..

أنا أكره أمراء الحرب الذين جلبت لهم الثورة ثوب الثراء واستغنوا عن ثوب الزهد..

فأنا أعشق الزاهدين بالثورات.. أعشق الفرسان القدامى الذين تشبه ثيابهم لون الخيام والترابا وأعشق ذلك الوقار

الـذي يعلـو جباههـم..

هنـا التقيـت زايـد أخـيراً.. بعـد جهـد كبـير وجدتـه ففـي مـدن الخـوف العربيـة وعواصـم الإنشـاء والخطابـة والمقاومـات الجوفـاء يجـب أن تلتقـي بزميلـك الثائـر بعيـداً عـن كلّ عـين قـد تترصـدك أو تتصيـد هفـوة مـا..

في الصبـاح الأخـير في دمشـق اسـتقبلته بعيـداً عـن الحراسـة والحـراس وبروتوكـولات المسـتبدين في التكلـف بالقيـود.. كانـت غرفـة صغـيرة معتمـة في قبـو مهجـور..

إنـه مـكان عملنـا الـسري في نقطـة مـا مـن مدينـة دمشـق التـي تتمـدد كأنهـا كـون.

أغـراض قليلـة منهـا شـخصي وآخـر مـن متطلبـات العمـل الصحفـي العمـل الصحفـي

الـسري الـذي لا يعـرف بـه الا أصحابـه، أمـا الجمهـور فيعرفـون أسـماءنا المسـتعارة فقـط.

مـن ضمـن الأشـياء.. أوراق وجـواز سـفر كلفنـي أمـوالاً طائلـة حتـى اسـتخرجته

وشريـط الفيلـم والكامـيرا.. ومسـودة الروايـة المحفوظـة في «فـلاش» قـرص قابـل للنقـل.

عندمـا قـررت أن أكتـب وجـدت عبئـاً ثقيـلاً يـلازم مخيلـة الحـبر التـي رشـفتها الصفحـة الاولى بشـهية مـا، فاسـتغرقت أو غرقـت عـلى حـواف الصفحـات..

أرشف ما تبقى من ذاكرة عابرة ما قد توصلني الى ما أريد ..

وثقت بقدرة الحبر على انتزاع الرغبة من جوفي.. ولاشيء يتعبني إلا التعب ذاته، وذاك الجرح القديم.. حتى إصبعي المفقودة تأقلمت مع فقدانها..

كأن الوطن بعيد عني مسافات تقاس بسنين ضوئية، ولحظة العبور ليست لحظة بل نجمات..

كل ما يحصل كان مؤجلاً..

وحده الفرح مؤجل جداً كآخر الشعاع

«لم يعد في قلبي مكان لرصاصة جديدة»

أرجوكم لم يعد في قلبي مكان لوجع جديد...

كيف تصنع وطناً مدته مئة وعشرون دقيقة...

عندما أكون في طابور اللاجئين أبحث عن وطن بديل، علي ألا أتوقع أن يبدأ عدّاد الأزمنة من حلمي.. أريد أن أكتب للثورة لعل الياسمين المدفون تحت شتاء الغياب يرفع رأسه من جديد..

البرد قاسٍ هنا.. ووجع المقارنات قاس كذلك..

هل كنت أعلم حقاً بعملية اغتيالي باعتباري كاتب السيناريو الذي حصل قبل مئة وعشرين دقيقة؟ هل مت حقاً؟ أم هناك محاولة يائسة أو آملة لإنقاذي في رمقي الأخير كما يحدث في أفلام السينما أو الروايات التي تفوق

الخيــال، فالأبطــال إمــا أن يموتــوا بــشرف

أو يتابعوا المهمة حتى النهاية..

أنــا مهمتــي انتهــت بعــد عــرض الفيلــم بســاعات أو أيــام قليلــة فقــد تعرضــت لعمليــة اغتيال.

المــوت.. الذاكــرة.. الوحــدة.. الخوف...وأشــياء أخــرى أكثــر بكثــير وأكــبر مــن احتياجاتنــا.

يمــرر عــلى نفســه الســؤال «هــل أنــت صلــب بــما فيــه الكفايــة كيــف تجيــب عــلى الأســئلة»؟

كــم هائــل أو كميــات، وليــس مهــماً بعــد الآن مــن يمــوت. المهــم هــو مــن يبقــى لمــدة أطــول ويــشرع بتدويــن مذكراتــه...

السطوة والسلطة والموت والحياة وكل هذا..!

هل تكفيك سبعون دقيقة كي تختصر وطناً؟

«غداً تنهي الحرب ويتصافح القادة»

غــداً ســيدوّن السياســيون مذكراتهــم ويعترفــون بأخطائهــم وذنوبهــم وتناقضاتهــم أثنــاء الســلطة والســطوة وبعــد الســلطة والســطوة، فالســياسي لايقــول الحقيقــة في لحظــة تتطلــب

الحقيقة، هو ينتظر عندما ينتهي دوره ليقول نحن أخطأنا..

هــل تذكــرون كــم كتبــوا عــن حــرب الخليــج الأولى والثانيــة والثالثــة وغيرهــا مــن حــروب الــشرق؟

ولم تكن تلك هي الحقيقة...

لم يعتـذر لي سـوى القـدر عندمـا فقـدت اصبـع يـدي اليمنـى الخـضر للكتابـة..

لم يعتذر السياسيون...

هل تعتذر فرنسا عن ماضيها الاستعماري؟

هل اعتذرت أمريكا لليابان؟

وأمريكا لغزو العراق؟

هـل اعتـذرت اسـبانيا للعـرب المسـلمين بعـد مرحلـة سـقوط غرناطـة ؟

أنا هنا مثل غابة سنديان.. أسئلة كثيرة تحاصرني..

كيف قفزت فوق تلك العوالم من الثورة الى اللجوء؟

لم أجب..

لم أسـهب في روايتـي كثـيراً للحديـث عـن تلـك المـرأة التـي أسـعفتني لحظـة تلقـي جسـدي رصاصـة في زمـن الثـورة..

هل لأنَّ توجهاتنا تختلف؟

لكني كتبت عنها، وقد شغلتْ حيزاً من الرواية.

حتـى أنهـا كانـت صدفـة هناك زارتنـي في باريـس حيـث كنـتُ لاجئـاً وشـاهدت فيلمـي الوثائقـي عـن الثـورة السـورية..

لكـن تعثـر قـدري بامـرأة أخـرى نصفهـا فرنـسي سـاعدتني بعمليـة الترجمـة للفيلـم الوثائقـي الى اللغـة الفرنسـية ونصفهـا

الآخـر عـربي وتجيـد أعـمال الترجمـة الى اللغتـين.

لقائي بها كان بين صدفة وميعاد..

المـوت هنـا يقفـز مسـتتراً مـن فـوق حواجـز التفتيـش لا يقـدم مذكـرة اعتقـال أو بحـث بحـق نفسـه وهنـا يصبـح الانتظـار آخـر الأشـياء التـي تنتظرهـا..

وحدهـا الكتابـة تمنحـك شـعوراً عميقـا ومتعـة كبـيرة لتهـرب مـن رتابـة الألم، حتـى الكتابـة ليسـت تلـك العمليـة السـهلة، لكنّهـا تتغلـب عـلى كل الأشـياء وتمنحـك دفئـاً داخليـاً بعيـداً عـن العزلـة والنسـيان ...

مسـودة روايـة قديمـة لي في دمشـق في أيـام مضت...أنفـض عنهـا غبـار الإهمـال، وتـراودني فكـرة نشرهـا هنـا في هـذا المـكان الـذي لاتغريـك رقابتـه بالكتـمان، فـلا صيـاد يحـاول أن يصطـاد، ولا ضحايـا هنـا سـوى الذاكـرة... الروايـة صـارت روايـة أخـرى، وتحولـت مـن مرحلـة الكسـل الى مرحلـة البحـث عـن أبطالهـا المفترضـين.

صحـوتُ باكـراً عـلى غـير عـادة، ولازلـت متدثـراً بكسـل لايفـارق جسـدي

كنتُ أنتظر..

أنتظر شيئاً ما..

خبراً ما..

قصة الرواية التي مضى عليها سنين دون أن أتخلى عن فكرة طباعتها ونشرها ولا أعرف لماذا حاصرتني أفكار طباعتها، فهي طوال تلك الليالي الخالية كنت أراها أمامي، لها غلاف مبهم يشبه أيامنا القادمة.

لستُ مدخناً لكني فكرت لحظة ان أقطع ادمان السرير الذي لم أنم عليه، بل مارست عليه الهروب من الغفوة أو الجفوة أو الأشياء الهاربة مني أصلاً ..

قهوة باردة بمحاذاة السرير، نسيتُ أن أتابع قضيتها..

رشفتُ بعضها دون أن أكترث أنها باردة، أو أن شيئاً ما توغل فيها ليستفز قدراتي في الاحساس بتفاصيل الأشياء...

كأني أنتظر أحداً أعرفه لكني أتجاهله! فالخبر الذي تفوق على ذاته هو..

صحيفة فرنسية تتحدث عن ناشط سوري ينتج فيلماً وثائقياً مدته ساعتان بوسائل ذاتية وتمويل ذاتي. الخ...

أعجبتني كلمة ذاتيّ.. أعجبتني ياء النسبة.. وجدتُ صعوبة في الترجمة! فبعض المصطلحات التي في المقالة الفرنسية كانت غريبة بعض الشيء رغم إلمامي الى حد ما بالتحدث بهذه اللغة شفاها وكتابة بعد أكثر من سنتين من وجودي في فرنسا، كانت اللغة بالنسبة لي عائقاً لكن حرصي الشديد أن أتقن ماتيسر لي منها جعل عندي ارادة تعلمها والاجتهاد في هذه النقطة رغم معرفتي الجيدة باللغة الانكليزية لكن فرنسا مثل أية دولة أخرى لها تعصبها الذاتي والقومي الى لغتها، فاللغة هي الأداة التي يجب أن تهزمها وتضعها بين

يديـك عندمـا تقـرر أن تعـبر زمنـك.

تابعت القراءة.. القراءة باللغة الفرنسية..

لم أنتبـه للتتمـة التـي تخـبرني أن الفيلـم سيشـارك بمهرجـان الأفـلام الوثائقيـة في هولنـدا..

خفـت أني لم احسـن الترجمـة بشـكلها الكامـل ولم أتمكـن منهـا، فتحـت تطبيـق الترجمـة في هاتفـي الجـوال وكان الأمـر تمامـا كـما فهمتـه لأول وهلـة.

لكـن كيـف تـسرب الخـبر الى الصحيفـة وأنـا منـذ يومـين فقـط تحدثـت في الأمـر.

خـبر أفـرغ المـاً وأدخـل فرحـاً لكنـي حـذر بالفـرح رغـم معرفتـي المسـبقة بـه قبـل نـشره في الصحيفـة.

كل الذيـن عرفتهـم سـوف يمـرون في شريـط ذاكـرة كانـت مؤجلـة..

فأنـا قـد أعـدّل الروايـة بعـض الـشيء وأضيـف أبطـالاً آخريـن.. نـور، أم خلـدون، اطفـال المخيـمات، الطبيـب، الجنـدي المهنـدس في الجيـش الحـر، وآخـرون لم تخنـي فيهـم الذاكـرة..

لا لا لـن أعـدل شـيئاً، سـأتركها كـما هـي وسـأدعها للحظـات، لابـد ان أتابـع مجريـات تطـور الأمـور حـول الفيلـم، سـعادة مفرطـة لم أكـن أتوقعهـا تنفـض بقايـا الكسـل والخمـول عـلى جسـدي وتصيبنـي بنشـوة الانجـاز كأني لم أصـدق او اني لا أريـد أن أصـدق أو..

في لحظة فرحي تلك اتصلت بصديقي زيد على الماسنجر...

زيد كان قد انتقل للعمل في الشمال السوري بعد تدمير مقرات عملنا في مدينة داريا وهو محرر ومصور في صحيفة تتم طباعتها في جنوب تركيا.. زيد هو الذي قام بعمليات المونتاج الخاصة بالفيلم بسبب خبرته ودراسته بهذا المجال..

الشمال تقريباً اصبح محرراً خلا بعض من جغرافيته لكنه يبقى أكثر أماناً من مناطق أخرى بالنسبة للإنسان السوري.

الساعة الرابعة قبل دمشق بعد باريس

سنتان بعد أوراق اعتماد اللجوء..

سنتان أعود إلى لعبة الأقدار مرة أخرى وهكذا أصير رقماً من جديد، بعد أن كنت رقماً في عداد المفقودين فقط.

القصة التي بدأت عندما أَلِفتُ حزن المكان، أما الأمور الاعتيادية لم تتلاءم مع إحساس العزلة، صديقي زيد يسألني كيف تبدو لي المدينة.. فأنا لا أمارس سلطة الانتظار على أمل عندما أخلو بمدينة لا تشبه حلمي لكنها تحققه...

الصباح الفرنسي كعادته قلق متوتر روتيني يسابق الضوء قبل أن يصل طرف ثوب النهار..

دخلت المكان الذي دخلته أول مرة قبل سنة من الآن منذ قدومي الى هذه المدينة التي تأخذك في البداية بدهشة، فتصاب بانفصام مفاجئ وأنت تسرد المدن كلها كي تقارن باريس بها..

لكن باريس لها سحر خاص لحظة الانطباع الأول فيما بعد تصبح مثل كل المدن اعتيادية جداً وعادية.. هذه هي لعنة المدن جميلة للوهلة الأولى ثم تكتشف أن كل المدن تتشابه العادية وغير العادية..

لكن باريس بقدر ماهي اعتيادية بقدر ماهي غير عادية..

فماذا يختلف فيها؟

ما الغريب فيها؟

لماذا لها سحر عجيب ينطفئ بعد ولوجك الأول فيهل، فما تلبث تغدو مدينة عادية كأية مدينة على كوكب الأرض؟

أهي قصورها؟ بيوتها البيضاء؟ أبنيتها الكلاسيكية المتعالية الارستقراطية ؟ حجارة الارصفة؟ ديكتاتورية عشقها؟ جسور السين أم ميدان الثورة الفرنيسة التي لاشاهد فيه على الباستيل سوى حجارة من بقاياه الذي دمره الثوار الفرنسيون ؟

فأنا سأطمئن نفسي حقاً بأني لن أقع بحبّ فتاة باريسية فيها شيء من تعالي المكان على الرقي العادي الى اللاعادي..

فالمدن كالنساء.. والأنثى العادية لاتغوينا ولاتحرك رغبة اختبار التحري والفضول والتصيد الراقي..كذلك المدن أجمل مافيها غموضها الذي يغريكَ لمزيد من اكتشاف اسرارها..

وأنا مثل كلُّ فضوليّ يطوِّقُ المدن بالأسئلة.

يختبر أنوثتها الكلاسيكية بمهارة..

يجرب أسلحته اللاتقليدية على تخومها..

لايحبها لحظة السقوط..

ولايحبها أن تسقط دفعة واحدة..

يحبها أن تكون عصية.. فإن سقطت يكون ذلك بعد حصار طويلٍ فقط..

ماذا يجب أن أعرف عن باريس..؟

قرأتُ عنها ولها..

ماذا يجب في حضرتها؟

يجب أن تعرف كل شيء عن الثورة الفرنسية وإلا عليك ألا تأتي الى هنا..

الثورة اذاً؟

يا له من قاسم مشترك بين أقدار البشر!

يا لها من صدفة لا تتكرر أن تكتب للثورة أو تنتج فيلماً عنها ثم تجد نفسك بعد لحظة في ميدان الكونكورد، أو قريباً من قصر فرساي، تراقب أقدار بشر كانوا ملوك المكان، لكن الثورة، والثورة وحدها قلبت الاقدار.

ملوك يسرفون في البذخ والترف، قصورهم من ذهب، وثرياتهم من الكريستال ثيابهم مُذهّبة وينامون على الحرير فتتعجبُ من القصر وفخامته متسائلاً هل كان أصحابه يراهنون على أبديتهم وتمسكهم بالخلود؟ أيٌّ قصر هذا؟! وكأن من شيَّده سيخلد فيه.

بناه كأنما هو دنياه وآخرته أو كأنه لا يؤمن بالموت أو كأنه لم يأخذ العبرة وربما هو قارئ فاشل للتاريخ والقدر..

هنا تقف وتسأل هل يعقل أنهم قطعوا رأس ملكتهم ماري أنطوانيت وزوجها الملك لويس السادس عشر في هذا المكان عقاباً لهما على تجويع الشعب بينما هما ينعمان بالوفرة والرغد..

ياله من عقاب..!

لماذا لاتتماثل كل أقدار الثورات..؟ لماذا لايُعاقب حكامُ الشعوب المستبدون على هذا النحو، لماذا تخطأ الأقدار؟ أم الثورات وحساباتها هي من تخطئ؟ أم أن لصوص الثورات جاهزون للإنقاض على كل ثورة لا يروق لهم أن تنتصر.

هنا باريس إذاً!

هنا كان فيكتور هوغو حاضراً منذ قرون باريس الوسطى مع أحدب نوتردام والبؤساء وزمن الجوع وحكاية الخبز التي تصنع ثورة ..

هناك قصص على السين..

وعشاق كتبوا على الجسور ذكريات من عبق الزمن الماضي.

هل مضتْ قرون أم أنَّ الثورات تتكرر؟

وهناك دمشق تركتها خلفي، وتركت عرائش الياسمين تتسلق الليل الى الليل دون أن تتعب، تعانق أجساد الثائرين أو تموت بين ذراع الجلاد ..

لامقصلة هناك ..

انه القدر لا يخطئ..

لكننا نخطئ في تشويه صورة الأمل...

كأننا يجب ألا نتأمل كثيراً ...

هل حضَّرتم لي مقصلة؟

أخبروني ماذا حضَّرتم لي؟

مقصلة ؟!

رصاصاً؟!

..........؟

أنا حضّرتُ لكم حلماً.

حضرت فيلماً قصيراً ليس طويلاً جداً، أريد أن أحكيه لكم على لسان رواته الابطال، لكن بطريقتي.

كلهم حضروا وأنا غبت..

كل أبطاله كانوا موجودين هناك.. على الأسطر الأولى..

وأنا كنت الغائب الوحيد..

الشاهد الوحيد..

أنا تمَّ اغتيالي بعد سطرين اثنين..

تم اغتيالي بعد قصتين وقصيدة..

فيلم كان سبب موتي.

ومكتبة هي سبب موت الجاحظ..

هنا الثورة..وغبار الزمن المر

هل هو قدرٌ ثوري قادني إليكِ، أم إن الثورات تتخاطر؟

كلُّ ركام اللجوء الذي استعار روحي لسنتين، صار وسادة لمذكرات ستأتي من زمن لم يأتِ. وكأنَّ أحداً ما يقول لي كفاكَ حديثاً عن الثورة، غيّر الموضوع إلى الحبّ -مثلاً- أو إلى الشعر.. إلى النساء.

انظر الى بلاد الثورات ماذا حل بها، فالسلطة القديمة عادت للحكم من الباب الخلفي. حتى في فرنسا عندما نجحت الثورة الفرنسية ضغط أنصار الملكية لإعادة فرنسا الى فترة الحكم الملكي.. وها هي ذي الآن محكومة من الإليزيه، وهو ذات المكان الذي حكم منه الملوك..

ثوب الديمقراطية العصري لايغري كثيراً...

لن تنتصر ثورة بكامل عدتها، انظر إلى التاريخ، كل الثورات النبيلة سُرقت وأُلبِسَتْ ثوب الارهاب والهمجية والحرب الأهلية..

أفقتُ من حلمي إلى محاولة اغتيال جسد هو جسدي اللاجئ بين ذراعي والقلم..

لعله صوت أبطال آخرون جعلتهم مجرد« كومبارس» لبداية أخرى..

الصوت اندحر قليلاً وتشتتَ بعيداً عن المكان، ربما هو الضمير العميق البعيد الذي استعارني من غفوتي، حتى

في لحظـات كتابـة مذكـرات الوجـع عـلى بيـاض كنـت ألملـم انتمائـي جيـداً للحظـات الثـورة.

كلهـم كتبـوا مذكراتهـم قبـل موتهـم، يالهـا مـن صدفـة غريبـة أن يتصـادف المـوت والحيـاة معـاً كأنهـا للمـرة الأولى يتفقـان، فهـل تشـعر الحيـاة بلحظـة موتهـا؟!

كأنها الصدفة أو ماشابه..؟..

وأنـا سـأفعل مثلهـم، وسـأكتب مذكـراتي للزمـن القـادم تحسـباً للمـوت أو أؤجلهـا تحسـباً للحيـاة..

فأنا أتألم تماماً كما يتألم بطل روايتي أو فيلمي..

لاتغريني ابتسامة الورد كي أكتب له عشقاً..

لاشيء يغرينـي لأكتـب كالألم.. وحـده الألم يغريـك لتحكـي، كعادتـه جسـور ومغـرٍ لأبعـد حـد..

فأنـا مثلـه أيضـاً كأنّي ولـدتُ مـن خاصرتـه اليمنـى، فلـم أعـطِ الفـرح حقـه عـلى جسـدي ..

تغرينـي صهـوة الليـل كـي أمتطـي رغبـة الكتابـة لحظـة اشـتعال نجمـة..

وكأن النجوم في لحظة تصير ملكي.. أو لاتصير أبداً .

مـن يحتفـي بالجـرح مثـلي؟ أحـضِّر لـه نفسي فيحتضن حـزني.. يلتهـم أنفـاسي الأخـيرة في الحيـاة، في المـوت أيضـاً عنـدي دهشـة متوترة..

توقفت عند الموت قليلاً.. أوقفت جريانه ببطء اليَ، رنين هاتفي الجوال الذي كان قابعاً بجوار وسادتي..أوقف جريانه فكان المتصل هو ماريا حداد التي قادني قدري إليها بعد سنتين لتكون أحد أسباب عرض الفيلم في فرنسا..

ـ مساء الخير أو لعله الصباح سيأتي..

ـأهلاً.. مساك سعيد.. لا أبداً لازال الوقت مساء..

ـ لم أشأ إزعاجكِ بمثل هذا الوقت، لكن وصلني قبل قليل إيميل من شخص كنت قد تواصلتَ معه حول موضوع الطبيب الذي تحتاج شهادته أمام لجنة حقوق الانسان في البرلمان الأوربي.. أعتقد أنه قد غير فعلاً مكان اقامته بعد لقائك به..

لكننا قد نصل الى خيط.. هو يعيش باسم مستعار تحت حماية مشددة من الحكومة التركية..

قاطعتكِ قبل إتمام سردكِ الذي فاجأني بخبر كنتُ أنتظره..

ـ جميل جداً.. هذا خبر سار.. ولكن كيف حصل وكيف يمكن أن نصل إليه..

ـ الشخص محام سوري مقيم في برلين له نشاطات في مجال حقوق الانسان..

ونحن بكل حال سنسافر إلى برلين من أجل الدعوة التي تلقيتها لعرض فيلمك وإجراء مؤتمر صحفي. هناك ستلتقي به..

قلت: هل يمكن أن ترسلي لي نسخة «الايميل» الذي أرسله المحامي؟!

قلتِ: طبعاً بكل سرور ويمكنك باعتبارك صاحب الشأن المباشر بالموضوع أن تتواصل معه.

رددتُ: أشكركِ من كل قلبي

قلتُ بضحكة هادئة:

-لاداعي للشكر أنا أقوم بواجبي.. هذا من ضمن عملي وواجبي المهني والأخلاقي.

انتهى حديثنا كأنه بدأ..

أحاول أن أهرب من كل أنثى صوتها يشبه صوتكِ..

لكني واعدتها..

سألتقي بها كي نتابع حديثاً لم ينتهِ..

وأنا في هذه اللحظة أتذكر أولئك النسوة البطلات.. بطلات الرواية والواقع.

عندما سألتُ زاهرة تلك الفتاة التي عبرت من رحم الثورة ومخاضها لماذا اغتصبوك بشكل جماعي دون رحمة في الفرع المخابراتي رقم...؟

أجبتُ على لسانها احتراماً لصمتها على سؤال لن أجد إجابته. لعل ذاك حدث لأن الوطن اكتمل لحظة وجودها وانتهى لحظة وجودهم»

ليس للفرح إصرار على جسدي، فأنا كالأرض.. هذه الأرض.. هي نحن الذي فقدنا فيها ما نستحق عليها..

مصرّون ألا نفرح جداً..

كل لحظات الفرح هاربة لا يصطادها غيم المساء الثقيل المطعم بصهيل أول الليل..

كلهم غادروا زمني وبقيت للحظة والماضي .. لاشيء يشفع لي إلا آخر هزيمة..

كلهم مروا من بين أصابعي أبطالاَ مفترضين...

وأنا.. وأنا كأي «أنا» متعب لاشي يغريني..

لاشيء يغريني حتى ذاك الورد الذي استلقى على جسدها وأخفى شحوب أنوثتها.

ذهبوا إلى الحرب جميعاً، كتبوا الوصايا كلّها ورسائلهم كانت جاهزة، يبدو أنهم

لايشكون في الموت عندما تبدأ البنادق بالعزف..

النسوة انتظرن، وكل واحدة منهن قالت : سأنتظرك عمراً أو أكثر..

تباً للعنة الحرب كيف تسرقُ منا اللقاء والأمل ..

قالوا لهن سنموتُ لكي تعيش من بعدنا عرائش الياسمين..

قالها غسان كنفاني في كل رواياته وكلمات قصصه عن

القضيــة الفلســطينية..

لم تمت القضية ومات كثيرٌ من المقاتلين..

ضحايـا النازيـة.. ونسـاء ألمانيـا الوحيـدات اللـواتي رفعـن الحجـارة مـن الطرقـات واتنظـرن رجـال ابتلعتهـم الحـرب ولم يعــودوا.

جماجـم الجزائريـين في متاحـف فرنسـا.. جماجـم فقـط.. يالعـار الانسـايية ..!

يالعـار فرنسـا التـي تديـن نفسـها بنفسـها عندمـا تحتفـظ بـكل تلـك الجماجـم !

ماذا ننتظر ؟

ضميراً يصحو يهدينا سلاحاً مضاداً لأحلامنا؟

بـدأتْ حـرب التحريـر الجزائريـة بحـوالي ١٢٠٠ مقاتـل، كان بحوزتهـم ٤٠٠ قطعـة سـلاح فقـط. مقاتلـون عـدة يواجهـون أكـبر دولـة اسـتعمارية صرامـة وعراقـة بالاسـتعمار.

بدأت بعدة مقاتلين، وانتهت بمليون شهيد..

مليون شهيد سقطوا بحرب التحرير الجزائرية..

ابتلعت مسامات الأرض دماءهم..

لا خسارة، مادام الهدف هو الحرية...

عندمـا أعلـن شـارل ديغـول اسـتقلال الجزائـر عـبر التلفـاز خاطـب الفرنسـيين قائـلاً :

إنَّ الاستقلال جاء نتيجة استفتاء تقرير المصير..

كـذب عليهـم... القـادة المنهزمـون في الحـرب لا يعترفـون بالخسـارات، فلـن يقـول أجبَرَنـا شـعب عـلى الخـروج بفضـل تضحياتـه...

للحـرب لعنتهـا عـلى الظالمـين وعـلى أصحـاب الحـق كذلـك. لكـن النهايـات يقررهـا الذيـن يتقنـون اللعـب بـبراءة وبيـاض، لأنهـم أصحـاب الحـق حقـاً..

هـم يكذبـون وسـيكذبون دائـماً لكـن لا يمكـن إلغـاء الضـوء في آخـر النفـق.

سـيكذبون مـرة أخـرى ويقولـون لنـا لايوجـد نفـق في آخـره ضـوء...

قصـة الطبيـب المطلـوب منـه الادلاء بشـهادته.. مطلـوب للـكلام فقـط..

هكذا فجأة أهتدي لمكانه...

بعـد الحديـث الهاتفـي المتأخـر معـكِ.. التقيتـكِ صبـاح ذلـك اليـوم قـرب أحـد الجسـور الباريسـية عـلى نهـر السـين..

لم تكن صدفة أنني اخترتُ مكاناً روائياً للقاء..

ماذا أريدُ منكِ؟

هل أبحثُ عن قصة حب؟

هل أنا أستغل وجودكِ كي أبحثَ عن حافز روائي؟

أو حدث روائي؟

أم عن ملهمة تستنطق الحرف الصامت..؟

ماذا أريد منكِ؟

هـل أريـد أن أجـرب قصـة حـب أخـرى عـلى أطـلال قصـة قديمـة؟

وهـل كانـت تلـك القصـة حبـاً لكـي أقـول قصـة حـب أخـرى؟

أم أننا نلتقي فقط لأنَّ المصلحة تقتضي؟

مصلحتي أنا لا مصلحتكِ أنتِ...

شربنا قهوة عربية بطعم الشرق..

مقهـى لبنـاني عتيـق تصـدح منـه بصـوت خافـت أغـاني فيروزعبـور «روائـي». حـدث قبـل الحـدود التركيـة الحاجـز الأول هنـا.. تـم اسـتلامي بنجـاح..

خرجتُ من دمشق وغوطتيها والطريق لازال صعباً..

الرجـل الـذي كان برفقتـي خبـيرُ بفـن الطرقـات في أيـام الثورة هـذه، ولديـه درايـة كافيـة بجغرافيـة الاشـتباك ومناطق الانتشـار، مهـرب للبـشر الراغبـين بالأمـان والمطلوبـين للمخابرات، سـائق حـاذق بامتياز..

-لسـت أدري إن كان جنودنـا يملكـون نواظـير ليليـة متطـورة أم مـاذا؟

قال مقولته بينما أوقف شاحنته بعد اشتباه بضوء خافت منبعث من مكان ليس ببعيد، حاول الاتصال «بجماعته» لكن دون جدوى..

لا أعرف لماذا خطر في بالي أن أتفقد الكاميرا فهي الجزء الأهم الذي سأكمل مهمتي من خلاله..

لحظة.. لحظتان.. ثلاث..

هناك أضواء تقترب منا..

لم يظهر على السائق أي ارتباك لكنه شعر بارتباكي ولا أعرف كيف، فبادرني قائلاً:

-لا تخف إنه الجيش الحر..

ربما شعر بارتفاع دقات قلبي تحسباً لخطر فعقبت على كلامه:

-جيش حر في هذه المنطقة؟

لم يجب على التساؤل، بقي ممسكاً بمقود السيارة جاثماً عليه مثل الذي ينتظر دون أن يقوى على التذمر..

أصوات، ثم تلاه اطلاق نار قريب جداً..

بدأ بعد ذلك قصف مدفعي ترافقه أصوات قوية وألسنة لهب ترتفع من مدينة مجهولة لنا غطاها الظلام بعناية، لكن قسوة الطغاة طوقت خاصرتيها بحقد.

سألته:

-أين نحن؟ ماهذه المنطقة؟

أجاب كمن لم يعجبه سؤالي:

-لاتسألني الآن..

كان فضاً بعض الشيء؟ لكن طيبة كانت تعلو ملامحه البسيطة المتمرنة على شقاء

الحياة لايمكن تجاهلها في الوقت عينه..

هنا وطن..

مرة أخرى هو وطن..

لم يتوقف القصف..

ابتعدنا عن مكامن النار ومصادرها..وحاولنا أن نجد منفذاً بشكل عشوائي يجنبنا مواقع الاشتباك القريبة..

ويبدو أن مجموعة من رجال الجيش الحر تقدموا باتجاهنا لتأميننا لكنهم قد تفاجؤوا بالقصف فتحولوا إلى صد الهجوم..

لكننا كنا نبتعد في الظلام؟ واستطعنا أن نعثر على مكمن مغطى بشجر كثيف؟ لم تكن شاحنته الصغيرة بذلك الحجم الذي يصعب أن تغطيها تلك الأشجار الليلة المتآلفة التي اتحدت معها في لون واحد..

أوقفنا المسير، وكنت جازماً من نظراته الحادة أنه يعرف أين الطريق، لكنه يريد أن يرقى لدرجة الأمان فهو رجل لايحب التهور وهو صيت يلاحق كل سائق يملك خبرة الطرقات الصعبة..

إنه نوع من الرجال لايقود سيارة بحجم شاحنة الى هدف خاطئ، فيداه تمرنتا جيداً على منازلة الشقاء والبؤس، يداه الخشنتان اللتان ترك الزمن أخاديده عليهما يحكيان الكثير والكثير.

حاولتُ أن أستخدم الضوء بشكل خافت متقطع، لكن ذلك الضوء الخافت حول كلَّ ماحولي إلى سواد آخر غير سواد ذلك الليل..

الحقول كلها محروقة بما فيها من أشجار ومزروعات وكأنَّ حرباً بين أمم اشتد وطيسها هنا.. فلا شيء أخضر، كل الأشجار عارية حتى هذه الخميلة التي ظننا أنها ستستر خوفنا من خطر نعرفه أو لانعرفه..

لا أدوات عندي الآن كي أقتل الملل الذي يسببه لي الترقب والانتظار..

طالت المسافة حتى في الذاكرة تبدو العملية طويلة كأني الآن شخصية روائية تبدأ فعلها الروائي من الوسط، ولاتدري أي المسالك تسلك ..

تشابهتِ الطرقات كلها هنا، فلا لوحة زرقاء أو خضراء تدلني إلى حيث يملي القلب..

والذاكـرة مـرة أخـرى تـصرَّ إصراراً عجيبـاً عـلى دفعـي الى الروايـة التـي لم أخـرج منهـا حتـى الآن...

عاشـق أم ثائـر أم مغامـر خـارج روايـة أو داخلهـا فليـس مهـماً طـرح الأسئلة والبحث عـن أجوبتهـا في هـذه اللحظـة المفصليـة. وحدهـا كلـماتي التـي أركبهـا عـلى مـزاج هـذه الجغرافيـة تؤنسـني في وحشـة مـالا أبـصره في طريـق تزيـده عتمـة المجهـول عتمةًأضـواء خافتـة تقـترب منـا مـع أنهـا لاتزحـف مـن مكانهـا..

وحـده صـوت الرصـاص يعلمنـي أن هنـاك بـشراً في هـذه الجغرافيـةًا وأني في وطـن واحـد مزّقـه الرصـاص والحواجـز فصـار أوطانـاً كثـيرة..

الرصـاص كان واضحـاً فأنـا أدرك تمامـاً أن هـؤلاء الآدميـن قريبـون منـي لكنـي لاأستطيع أن أميـز تحت أي مسـمى، هم.!

فهل هم جيش حر أم جيش نظام؟

تقسميات غريبة وليست بغريبة فرضتها الحالة السورية..

التقسيمات مؤلمة لكن هو الواقع...

تسـمرتُ في مـكاني ولم أتحـركًا حاولـت أن أتابـع بمسـمعي مصـدر الاصـوات والأضـواء.

أمـا صاحبـي السـائق فيبـدو أنـه قـد غـط في نـوم عميـق مطمئنـاً أننـا قـد وصلنـا منطقـة تحظـى ببعـض الأمـان..

أخـذتُ نفسـاً عميقـاً لأتابـع سرد التفاصيـل وكتابـة سـيناريو افـتراضي لروايـة أو فيلـم أو أي شيء آخـر يصلـح لـه هـذا السـيناريو الـذي يحـدث الآن معـي..

لحظـات واسـتفاق الرجـل الـذي لم أعـرف اسـمه حتـى اللحظـة، فهـو لايتحـدث كثيراً ولايجيـب عـلى الأسـئلة، ويبـدو أنـه تزامنـاً مـع صحبتـي لـه قـد تعطـل مزاجـه فليـس مـن

عـادة السـائقين الصمـت.. صمـتٌ كنـتُ أنـا بحاجـة إليـه، لكـن فضـولي كان يدفعنـي لبعـض الأسـئلة لهـذا الرجـل الـذي يعـرف كل هـذه الممـرات جيـداً، فهـو الـذي هـرَّب آلاف البـشر

مـن مناطـق الـصراع إلى مناطـق المعارضـة، هـو الـذي حمـل شـحنات السـلاح بسـيارته والأجهـزة والطعـام و.....للثـوار..

لكنه لم يجب..

تلك أسئلة كبرى لا أحد يجيب عنها إلا القدر أو الصدفة..

خـرج مـن سـيارته وأشـعل سـيجارة، ثـم ناولنـي واحـدة، لكنـي اعتـذرت لأني لا أدخـن، ولم يلـح عـليَّ كعـادة المدخنـين عنـد اسـتدراج زمـلاء جـدد لهـم في مهنـة التدخـين..

وقفنـا قليـلاً حتـى أنهـى الرجـل سـيجارته، ثـم دخـل السـيارة العتيقـة التـي يبـدو مـن شـدة ثقلهـا وارتفـاع صوتهـا أنهـا تحمـل همـوم سـكان هـذه الأرض جميعهـم.

أنـا كنـتُ أتمعـن بهـذا السـواد الـذي يطوقنـي مثـل مفـرزة أمـن جـاءت كـي تقبض عـليَّ..

التقطت أنفاسي ثم ركضتُ وركضت الى حيث لا أدري..

وقعتُ من التعب وتصاعدتْ ضرباتُ قلبي لكن المسافة تطول.

أبصرتُ ساعتي على ضوء جهازي المحمول حتى الآن استهلكنا من الوقت ساعات.. ساعات شعرت بها شهوراً..

لعل الفجر يقترب فالنجوم تتناقص وزرقة باهتة في أطراف الأفق يتخللها شفق.

الساعة الرابعة وسبع دقائق فجراً..

تعبٌ لبس جسدي وبردُ أوجع عظامي..

أبصرتُ ماحولي بزاوية حادة فشعرتُ بوهن ثقيل تفاقم على روحي قبل جسدي ولكني اقتربت..

اقتربتُ من الرجل الذي ابتعدتُ عنه لدقائق فقال مازحاً على غير مابدا لي:

-ظننتُ أنك لن تعود..

-وأين يمكن أن أذهب..

-لمحت ضوءاً لعله ضوء جوالك كان يجب ألا تشعل ضوءاً وسط هذه العتمة على كل حال الصبح أوشك..

حملتني السيارة مرة أخرى تابعنا الرحلة المجهولة التي لاتتجه إلى مجهول بل إلى شمال سورية..

رائحة دخان السائق أيقظت ذاكرتي البعيدة...

كأن السائق بفطرته الذكية قرأ أفكاري وهو كما يبدو لي قد تخطى عقده الخامس...سألني:

-»ليش ساكت«؟

يتهمني بالسكوت وهو الذي لم يمنحني فرصة الحديث معه!غريب هذا الرجل لكن وراء صمته حكايات..

ابتسمتُ بجفاف التعب ونظرتُ إليه. ثم ناولني سيجارة من «باكيته» وهو الذي يعرف للمرة الثانية أني لا أدخن! لكن يبدو أنه تقليد متبع لديه كلما أشعل سيجارة

يجب أن يشاركه أحدٌ نكهة دخانه الغريب:

وعقب على ذلك :

خذها» ورفّه عن نفسك» لازال لدينا وقت كي نصل..

أجبته:

-طيب.. سأدخنها هذه المرة

علق قائلاً:

-لاتخف واحدة لن تجعلك مدمناً..

ثم تابع مازحاً:

-أنا مثلاً أقلعتُ عن التدخين ألف مرة وعدتُ إليه بفعل واحدة..

تمعنتُ ثوان بالرجل الذي يحمل دعابة عكس مايظهر على تراسيم وجهه وحجمه الهائل، ثم تمعنتُ بالسيجارة التي بين أصابعي..

لاحظ الرجل شرودي، فقال:

-اشعلها.. هل ستبقى تنظر إليها كأنك تريد أن تطلبها للزواج..؟!

-أكثر من هذا الاشتعال...؟!

تناولت «قداحة» كان قد وضعها أمامه وأشعلتها.. ثم التفتُ الي السائق التفاتة سريعة ويداه مغروستنان على مقود سيارته القديمة.

كنتُ أحاول أن أطمئن أني سأصل..

سألته:

-كم بقي..؟

-هذا السؤال لا أحب الإجابة عليه.. عندما نصل ستعلم.

يتحدث بثقة وكأنه يعرف أننا سنصل، ولا يجيب أبداً. فيه شيء من الاستبداد، لكنه استبداد يجمع بين الحزم والبساطة لرجل يبدو أنه تجاوز الخمسين بقليل..

قلتُ له:

-أنتَ لاتحب الأسئلة وأنا أحب الإجابات، نحن لن نصل لنتيجة أبداً..

أجاب بعد ضحكة مرتفعة مجلجلة:

-أجبني بأسلوب سائق فهذا الكلام» المفزلك» لا أفهمه كثيراً.

وتابع ببساطة محببة:

-»مفكرني شي شاعر أو صحفي، أنا بعرف سوق السيارة وبس»

ضحكت وبصراحة تلك ضحكة خرجتْ من قلبي لدرجة السعال..

فقلتُ له:

-فيكَ البركة..

ثم تابع السرد وكأن بركاناً قد انفجر:

-(الحياة مثل هالبلاد، تعرفها وتعرف إنها وطنك، بس لما تقود سيارتك لحتى تمشي فيها تحس حالك غريب فيها وممكن تضيع، هالوطن ضاع ويمكن راح يرجع، وبس يرجع لازم نرجع نحنا معه، ونرجع نعرف نتعامل معاه، نحنا ضعنا، ضعنا سنين وتشردنا، أنا كان ممكن كون مثلك لولا أني قضيت بالسجن عشرين سنة ظلم.

طالب بكالوريا عم يتحضر لفحصو، ياخذو الأمن من باب الامتحان بحجة انتمائه لحزب ديني محظور..

بهداك المكان أنا بقيت عشرين سنة..

انـا حتـى اليـوم مافينـي أتـزوج، ولا يمكـن هالـشي يصـير، لأن سنين التعذيب أخـذت مني طاقـة الإنسـان وطاقـة انـك تكـون زوج لأي أنثـى..

حـاج مابـدي أكفـي، لأني لمـا أفتـح جرحـي بحسـو ماعـاد يتسـكر..)

شعرتُ أنه ينحتُ جسده وجعاً وهو يتكلم..

يبكي ولم يبكِ..

وليتـه لم يحكِ، ليتـه بقـي صامتـاً، فقـد كان صمتـه يعجبنـي، لمـاذا تذمـرتُ مـن صمتـه؟

ليتـه بقـي ضاحـكاً، حتـى ضحكتـه كانـت مجروحـة، ومزاحـه كان يخفـي جرحـاً أكـبر..

قصتـة تختـصر طريقـي برفقتـه مـن وجـع سـوري إلى وجـع آخـر..

ألمـه، كلماتـه قـد هزتنـي وهزمتنـي فشـعرت أني صغـير أمامـه، شـعرت أن حـدسي أخطـأ فهـو ليـس رجـلاً عاديـاً بسـيطاً كـما توقعتـه، بـل هـو أعمـق مـن أعـماق هـذه الأرض التـي لفظتـه جرحـاً عـلى تضاريسـها..

ثم قطع الصمت متابعاً سرده:

-صمتنـا بمافيـه الكفايـة، لم يعـد هنـا مـكان للصمـت، جيلنـا لم يفعـل شيء سـوى الصمـت وهـذا زمانكـم كـي تغـيروا الحيـاة «نحـن راحـت علينـا»

كلماتـه الواعيـة الراقيـة التـي أكـبر ممـا يخطـر عـلى بالـك لـو رأيـت مظهرهـه الخارجـي، فهـذا الرجـل يتكلـم بأنفاسـه الحـارة، وقـد لاحظـت نـبرة الألم والغصـة في صوتـه..

حتـى هـذه اللحظـة هـو يتحـدث وأنـا كنـت مسـتمعاً ماهـراً لـه، كلامـه مريـح يدخلـك في سكينة وطـن قـد ضـاع عـلى حـد تعبـيره، لكـن لدينـا فرصـة كـي نسـترجعه.

قطع الصمت وقال ماأشعرني بالحرج منه:

-هـل تفاجـأتَ؟ هـل أوحـى لـك مظهـري الخارجـي بـشيء مختلـف؟

أجبته:

-لـو حكمنـا عـلى النـاس مـن مظهرهـم لتركنـا الطغـاة بـلا حسـاب بـلا ثـورات، فالطغـاة يحملـون مظهـراً أنيقـاً، لكـن خلـف تلـك الأناقـة ألـف شـيطان..

قال:

-يابنـي الانخـداع يكـون أحيانـاً مصيبـة وتصديـق ماليـس حقيقـة هـو غبـاء..

كالشـعوب التـي تصـدق حكامهـا المسـتبدين، هـؤلاء لا أمـان لهـم.

بعـد ذلـك سـكتنا.. سـكوت كان تحتـه أسـئلة يقترحهـا الفضـول بشـدة.

شـعرت أن وراء هـذا الرجـل مـا هـو أعمـق مـن أن يكـون

رجلاً وراء مقود سيارة..

إنه رجل أكبر من مفهوم تلك الرجولة «البيولوجية» المعطوبة لديه أصلاً بفعل أجهزة المخابرات..

كان يدخن بشراهة ويبدو عليه مظهر البؤس والزهد لكن وراء ذلك المظهر رجلٌ أعمق مما يتصور المرء..

أكثر طهارة مماتتخيل الكلمات..

سألني سؤالاً متأخراً ثم أطبق الصمت الطويل:

-أنا حتى اللحظة لم أعرف اسمك..!

-اسمي إباء..

ردد اسمي مرتين ثم سكت وسكت...

فماذا حدث تلك الليلة..؟!

دمشق كيف تركتها؟

سؤال مباغت جداً..

هنا مدينة أخرى تبحث فيها عن قصة جديدة تنسج من خيوطها قصة ثورة..

هي امرأة أخرى تعبر الخط الفاصل بين سادية الجلاد وإلحاح الأنوثة..

اليوم الذي سمعت فيه قصتها قررت بعدها بشكل لاإرادي ألا أحلم مدة حلم ونصف حلم..

بعد الحدود السورية التركية بقليل.. قليل جداً.. خلف ذاك الزيتون الذي يفصل بين الجغرافية السياسية، لعل جغرافية الانسانية تصبح يوماً وطناً للجائعين إلى الحرية..

«أورفا» مدينة تركية هادئة جداً، جميلة كذلك تضج بأعداد كبيرة من سوريين لم يكونوا هنا قبل هذا الزمن تحديداً، حتى تظن نفسك في مدينة سورية..

اهتديتُ إلى المكان الذي تعيش فيه فتاة سورية تدعى نور العيسى ولست أدري إن كان هذه هو اسمها المستعار أم اسمها الحقيقي..!

هنا الثورة.. والعبور الى هناك..

لم أنم فكل شيء يبدو لي مؤجلاً..

الفرح المؤجل الذي لم يأتِ ..

النصر المؤجل الذي لم يأتِ ..

الحظّ الجميل المؤجل الذي لم يأتِ .

وقدرُنا المؤجل الذي نستعجله هرباً من واقع مرير ...

ليلة دمشقية قد تكون أخيرة بالنسبة لي على هذه الجغرافية العاشقة..

انطفأت القناديل.. ولاشيء سوى القناديل والشموع تضيء عتمة مبهمة لا أعرف نهايتها فلا كهرباء هنا تحمل لك في نشرة الأخبار إعلان النصر، فزمن إعلان النصر على الشاشات انتهى ..

كان المغامرون عندما يستولون على السلطة يكون الشيء الثاني الذي يسيطرون عليه بعد السلطة التنفيذية هو شاشة التلفزيون كي يعلنوا النصر بعد انقلابهم على السلطة...

لكن هناك إعلانات فشلت، لم تكتمل ولم يُكتب لها النجاح والمتابعة بعد الإعلان..

لم يكمل الجنرالات أحلامهم السلطوية فانتهت في وقتها.. بعضها انتهى بانقلاب آخر، وبعضها قهر شعوباً وجثم على صدرها سنين ..

ها أنذا أغادر دمشق خلسة، مقدمات الرحيل كانت قصيرة جداً حتى وكأنها تبدو مفاجأة..

فالخطة وُضِعتْ على عجل، فالطريق الى الشمال السوري وعر جداً، مع اختلاف جغرافية السيطرة على الأرض..

أفكاري...

أفكارٌ قطعها صوت قادم من عمق الليل...

سألتُ شريك الليل والمكان والزمان تبدو بندقيته حاضرة:

-هل يوجد رجال بوليس في الليل يفتشون حقائب الزوار..؟

أجاب:

-لا.. انها اشتباكات بعيدة، أعتقد أنها قريبة من الحدود التركية.

كأنّي لازلتُ في دمشق ولم أخرج في تلك الليلة الظلماء أو كأنّ روحي استطالت حتى امتدت بين جغرافية الأرض السورية كلها من دمشق حتى الشمال..

خرجتُ من دمشق..

كأني خرجت للتو من عمق التاريخ..

دمشق مدينة ابتكرت التاريخ واختصرت أرواح الأبجديات كلها . .

ساحرة حيث يقتضي السحر.. معتمة حيث تنبغي العتمة.. مشرقة لحظة العدم..

يقولون أن في هوائها ذرات من نسائم الجنان[1] وأن لمائها طعم آخر مختلف عن أمواه الأرض.. إن ترها مرة واحدة تعلق في ذاكرتك العميقة كأنك رأيتها مراراً..

ويقولون أيضاً أنها ستغيرُ مصير الكون في آخر التاريخ..

أنا سأغادرها بعد لحظات كما خططت في روايتي المؤجلة..

قلت لأم خالد أني كنت عاشقاً فاشلاً في الرواية التي كتبتها أنا.

خرجتُ وكأن الروح تمرّدتْ على جسدها وبقيت دونه في تلك الجغرافية الحالمة التي تغّير تاريخ العالم في أول الأبد وفي آخره..

تركت دمشق..

تركتهـا مكرهـاً لا طائعـاً أو راغبـا في فـراق فلـم أكـن يومـاً زاهـداً في حبهـا أو مقـتراً في شـوقي لهـا فأنـا عشـقتها لدرجـة الرفاهيـة والبطـر..

إنها الاستثنائية التي لا تقاوم استثناءها..

العارفـة بتاريـخ الحيـاة منـذ البدايـات وحتـى النهايـات فكيف أتـرك الحبيبة؟

أهو القدر؟

في ذلـك الليـل الصعـب القلـق تسـلّلت مـن متاهـة الجغرافيـة الأمنيـة والمخابراتيـة الصـماء الغاشـمة..

الهـدف المتوسـط هـو :مناطـق الغوطـة ثـم إلى الشـمال السـوري..

إلى مدينـة إدلـب.. مدينـة الزيتـون والثـورة وآخـر حصـون الثـوار السـوريين.

إدلـب مدينـة سـورية تحـررت مـن النظـام السـياسي السـوري بأكملهـا.

رحلتي كالصبر تحتاج إلى جسد حاذق خبير..

العمليـة كانـت أشـبه بمحاولـة انتحـار فالطـوق الأمنـي وانتشـار العنـاصر الأمنيـة كان كثيفـاً بشـكل لا يصـدق .

«شرح طويل عن الخروج من دمشق»

وصلنا الى ريف إدلب..

في ريـف إدلـب يمكنـك أن تمـشي مسـافات طويلـة جـداً دون أن تجـد اثـراً لحكـم السـلطة.

في قراهـا التـي أشـعلتها حناجـر الثائريـن في كفـر نبـل وكفرعويـد وتفتنـاز وبنـش وجرجنـاز وسـلقين وكرنـاز...

وللزيتون قصته هنا.

قصـة قديمـة نحتهـا الزمـن بدقـة متناهيـة، يكفـي أن تلمـح جـذع زيتونـة كـي تعـرف مـن تفاصيـل تجاعيـد تلـك الشـجرة كـم مـن الوقـت مـضى حتـى كانـت اللحظـة هـي» الآن»

ريـف تحـرّر في أجـزاء كبـيرة منـه.. هنـا سـقطت طائـرة وأُعطِبـت دبابـات، وتكبّـد النظـام خسـائر فادحـة..

هنا شعارات كفر نبل الراقية الجميلة مثل عشيقة ساحرة..

هنـا ثيـاب الزيتـون المطـرزة.. والوعـد الآتي مـن أبجديـات الألم..

للوطن قصة مختلفة على هذه الجغرافية البسيطة..

وهنـا لانقبـل حصـة مـن وطـن، فالوطـن لنـا كلـه أو لانكـون سـواه..

وهـذا الـتراب ارتـوى مـن الـدم وترنـح نشـوة مـن فيـض دم سـخي آخـر مختلـف..

تطل عليكَ من هذه المنطقة الحدودية مع تركية خيام النازحين في مخيمات اللجوء وتتراءى لك ألوان حبال الغسيل[1] وألوان ثياب تحكي قصة الوجع السوري..

خيام تناثرت مثل الجراح وتعالت على الخيبة[2] لأنها تريد في يوم ما أن تمزق هذه الخيام وتعود..وتعود حيث ولد الجرح أول مرة.

هنا رائحة الاشتياق الى الوطن تغريك بابتسامة ترحيب.

تتراءى لك لوعة الألم والحرمان..

هنا كانت منازل سويت بالأرض.. صارت أنقاضاً.. ورحل أهلها أو ماتوا.

هرب الكثير من سكان هذه المناطق وتوزعت قلوبهم شتاتاً في الخيام الملوعة التي تحكي لك ملاحم أخرى للثورة والوجع والانتظار...

وصلنا..

صديقي غياث الخالدي وهو الاسم المستعار لفارس الذي يرافق الجيش الحر لتصوير عملياته وتوثيق تقدمه في هذه المناطق اعتاد أن يحمل الكاميرا في حله وترحاله.

على كتفه تبدو كالبندقية..

الخروج من دمشق إلى إدلب كان مسألة في غاية الخطورة..

غياث صديق استطاع أن يأتي الى ريف دمشق مع مجموعة من المتطوعين ثم غادرنا سوياً إلى الشمال بعد أن استعاد

النظام مناطق واسعة في غوطة دمشق..

بقي يعمل في إدلب والقسم المحرر منه..

هذا الريف الذي خرج بمعظمه عن سيطرة النظام..

قال لي مرة (لاتتحدث عن الزيتون كثيراً معاصر الزيتون كلها تعرضت للقصف) قلت له (سأتحدث عن ذاكرة الزيتون فقط)هنا الشمال السوري.. جغرافية مختصرة للوجع السوري..

لوحة «بانورامية» لتفاصيل رصاصة اخترقت جسداً ووطناً..

هنا يقولون بأنك تنعم ببعض الأمن الذي لا تنعم به في مكان من أمكنة الاشتباكات الأخرى أو مناطق النزاع كما يسمونها في قاموس السياسة.

سوريون من مدن سورية منكوبة تدمر جزء كبير منها كحمص ودير الزور وحلب والرقة..

هنا تمشي قليلاً وتجد رقعة سياسية أخرى وتلمح أضواءً من بلد آخر قريب منك.

هنا أمراء حرب وجيوش صغيرة وأخرى أقل حجماً، وهدنة لا تنفذها الطائرات الروسية والسورية .

أسلحة سوداء وبيضاء وخيام كثيرة قريبة مني وبيوت مستعارة تبدو أكثر انسانية نوعا ما..

لكنهـا لم تكـن كذلـك يومـاً لكـن اقتـضى القـدر أن تقـارب وطنـاً مؤقتـاً عـلى أمـل العـودة..

في هـذه الرقعـة توقـف العـالم لحظـة.. هنـا تحـدث السياسـيون كثـيراً عـن انشـاء منطقـة آمنـة لكـن ارادات دول أعاقـت أن تكـون للسـوري منطقـة صغـيرة آمنـة هربـاً مـن جحيـم الرصـاص والنـار..

الليـل هنـا مختلـف، كتـوم جـداً وغامـض جـداً، متوتـر وقلـق مثـلي..

لم أشـعر بثقـل جسـدي كـما أشـعر بـه الآن، كأني عـبرت مدنـاً بأسرهـا ومـررت بـكل محطـات الزمـن ...

هنـا ليـل غريـب آخـر أبحـث فيـه عـن قصـة لعلهـا تصـير أمـلاً، آه مـن يصيـد أمـلاً ؟!

ففرصـة صيـد الآمـال انطفـأتْ كشـموع هـذا الليـل الـذي لم يفـسر بعـد معنـى الكهربـاء التـي لم تـزره منـذ أول أيـام الثـورة.

أنقـاض لا تحركهـا الريـح، وربـما تجـد هنـا بقايـا مـن جسـد أو بقـع دم رسـمت لوحـة مـن جـراح لـن يفقههـا دعـاة الإنسـانية السـمحاء..

خراب بحجم الألم الذي تلاه..

لم يتوقـف نـزف الجـرح.. وبقيـت الليـالي السـورية حافلـة بالمزيـد.

تمعنتُ بإصابة قديمة وإصابة جديدة على جسدي بينهما عدة سنين وكلاهما في زمن الثورة، الأولى كانت في البدايات، والثانية طفيفة قبل أيام، قبل دخولي مدينة إدلب، لعل السائق انعطف الى مكان خاطئ فجاءت رصاصة طائشة لا تبالي، أو لعلها بداية قصة..لكنها قد لاتكون أقسى من قصة السائق عطاالله.. قصته وجدت لتكون ولادة كل القصص التي انتهت على أعتابها..

قالوا لي أني كنت أنزف طوال الليل ولم يتوقف النزيف الا بعد محاولات رغم أن الجرح كان طفيفاً..

المعدات الأولية لم يكن بوسعها أن توقف جسداً تلّقى رصاصة، لأنّ لعنة الرصاص التي تلاحق جسدي أكبر من ذلك المخدر الزمني..

ماذا حدث معكم بالضبط؟

طرحوا علي سؤال هم يعرفون إجابته.. لكن ذاكرتي كانت معلّقة بما حدث لنا في دمشق وتحديداً في مدينة داريا حيث تم اقتحام مقراتنا لكن الهروب كان شجاعة أكبر..

قلت لهم منذ ذلك الحين.. عرفوا مقرنا السري الذي أخفيناه طوال سنين وبدؤوا إطلاق النار تمكنا من الهرب بصعوبة، أحد رفاقنا قد مات وهناك زميلة لنا حالتها خطرة...

كان القصف والحصار يأكل تلك البقعة الجغرافية والروحية في مدن الغوطة الشرقية ومنها داريا التي خرجتُ من جرح مجزرة الكيماوي ململمة أطراف الحياة المتبقية مثل

الأمـل المبعثـر في قلـوب مـن تبقّـى هنـاك مـن بـشر.. لازالـتْ تنـزف.. ولازالـتْ عيـون البشريـة تراقـب جراحنـا..

شـاهدتُ قبـل أيـام الفيلـم الوثائقـي لقنـاة الجزيـرة عـن داريـا ألهمنـي جراحـاً أخـرى..

ومـن هنـا لمعـت فكـرة أن أصنـع فيلـماً يحاكي جـراح السـوريين بدأتـه مـن دمشـق التـي كانـت عـلى فوهة بـركان صامـت..

صامتة لكنها تنزف نزيفاً داخلياً...

بـدأت الفكـرة عفويـة في تغطيتـي الصحفيـة التـي امتزجـت بدمـاء أبريـاء وشـهداء الثـورة. قابلـت أشـخاص كثـر.. في كلماتهـم قصـص تشـبه جرحـاً مفتوحـاً يرفـض أن يغلـق بابـه..

قابلـت أشـخاصاً تحدثـوا وآخـرون لم يتحدثـوا، ظـروف عملنـا الخطـرة كانـت محاطـة بسياج شـائك جـداً مـن السريـة والغمـوض، فالقبضـة الأمنيـة أكـبر ممـا يتصورهـا منطـق وقـد تجـد بالفعـل مـن يحسـب عليـك ذرات الهـواء..

وهواء الثورة كان ثقيلاً جداً ورطب...

وهواء دمشق مختلف..

مختلف قليلاً..

دمشق بعد ١٥ آذار ليست كما قبلها..

كلّ شيء تغيّر...

أفقتُ من حلم.. من ذاكرة.. شعرت به شروداً طويلاً أفضى إلى عصور.. إلى ماض ليس ببعيد جداً...

تعالى صوت الرصاص وكسر سكون الليل وسكينته.. رصاص يتخبط في العتمة ويقترب من رأس الحلم.. يقترب من أقدام الرجال المرابطين هناك..

المرابطين كثيراًوطويلاً..

-أهي معركة أم ماذا ؟

سألته..

ثم عطفت بسؤال مشابه:

-هل هو هجوم مباغت؟

أجاب بعد صمت وقد تقطب جبينه.

-يبدو كذلك.. لكننا أعدناهم الى أوكارهم لأننا كنا نتوقع ذلك ؟

-منْ هم ؟

لم يجب أيضاً وظل صامتاً. هذه المرة صمت طويلاً..

دخلنا المقر وقال لي هامساً :

هناك خونة بيننا لكننا لم نعرفهم بعد. إنه شعور مرعب.. الذخيرة على وشك النفاذ..

سألتهُ:

-وقادتكم:

قادتنا يأخذون أوامر الكر والفر من الدول الممولة، إنهم يقترون علينا.

النظام أخذ دير الزور كاملة، وقسماً من ريف دمشق وحلب. فماذا تبقى وثلث المساحة عند الأكراد ومن ورائهم أمريكا..؟

كل التهريج السياسي لا ينفع هل رأيت أنظمة قمعية تزول بالكلام؟ الخيار المسلح كان خيارنا الوحيد.

النساء يغتصبن في المعتقلات. أجيال تدمرت، وأطفال لم ترَ مدارسها منذ سنين ولا تعرف رائحة الكتب. هذا ماعدا الأثر النفسي الذي تركته الحرب في نفوسهم وأرواحهم. قل لي هل الزمن كفيل أن يشفي هذا الأثر؟ وهل يكفي الزمن كي تُشفَى جراحهم؟ هذه هي الحرب الحرب كما يسمونها. هم أرادوها حرباً ونحن أردناها ثورة سلمية لاقتلاع أعتى الأنظمة وأكثرها ظلماً لم نلق السلاح وصارت المسألة بالنسبة للكثيرين منا حرب وجود مات الكثير من الرفاق ماتوا وتركوا لنا البقية يبدو أن الطريق وعر ياصديقي..

صمتَ قليلاً.. شعرتُ أن أنفاسه سُجنتْ في الطريق بين كلمتين ثم بعد لحظات استرد أنفاسه وأردف بذات الحماس كأنه يلقي محاضرة أمام جيش سيدخلون معركة أخيرة:

-ذهبنا الى المخيمات هناك أطفال اندهشوا عندما رأوا قطع البسكويت هم لايعرفونه !

ولدوا في المخيمات وعاشوا هناك لكن ما ذنبهم أن يعيشوا هذا الذل؟ كل الدول تتاجر بجراحنا، حتى المخيمات صارت تجارة رابحة للدول فكيف يمنح حل قضية أضحت تجارة رابحة.؟!

صمتَ الرصاص وغداً سينطق من جديد فنحن حتماً موعودون بصوت الرصاص الذي اعتدناه منذ سنين كما اعتدنا على دفن موتانا وإحصاء الأعداد لكن صاحبي تابع الحديث وكنتُ أصغي إليه بشغف وفضول يتخلله أنين الجرح في أعماقي كما أعماق محدثي:

-منعوا عنا السلاح.. مليارات تدفع لكي ندفن نحن وثورتنا تحت الركام ولنذهب الى الجحيم..

قال جملته الأخيرة وسكت...

سكتنا كما صوت الرصاص وعبرت الكلمات حواجز التفتيش الليلية ..

سنين من عمر الثورة.. سنين عبرت غير آبهة بوجعنا.

ولعل طبيعة الثورة السورية العميقة تجعل أيد كثيرة تمتد ليكون لها نصيب من التلاعب بها، ولعب أدوار لصالح بقاء طرف على حساب طرف.

لا أحد يرجح كفة الحرب..

لا أحد يرج كفة السلم..

يريدونها بلا حل.. قضية معلّقة طويلة الأمد.. فوضوية التحليق في سماء الكون متأرجحة رمادية.. وعندما يصلون إلى مرحلة تصفية القضية سيختارون الحل الذي يليق بهم هم وليس الحل الذي يليق بنا..

لكنَّ الثورة استمرتْ ومستمرة منذ سنين حتى مع تقلص رقعتها المعنوية والجغرافية

لا أحد يريد أن يسمي الأشياء بأسمائها..

لا أحد يقول ثورة. يجب أن نقول حرباً أو أزمة..

أو نسميها تفاوضاً سياسياً مع الجلاد الذي يجب ألا يُفاوض ..

لم تستفد السلطات من دروس التاريخ، ولم ترفع المظالم عن شعوبها، بل استمرت في بسط قبضتها الأمنية، والحفاظ على امتيازاتها بكل الوسائل المتاحة بين يديها.

هنا تصدح الحرية ولاخيار سواها ...

«من دون الحرية ليس لدينا أسماء»

قول قرأته ذات مرة لخص الوجع..

لجوء آخر.. نزوح الى الكلمات

قسوة بحد ذاتها أن تكون لاجئاً..

اللجوء يسرقُ عمرك الجميل ولحظاتكَ وطاقاتك النفسية ويستهلكك الزمن عبثاً.

من يملك اللجوء ليس كمن يملك وطناَ..

أنا أكتب عن الثورة ولا أكتب عن الحب والنساء..

عبارة تصلح لمن هو مثلي. فهل نحن ممنوعون عن ذلك حتى لحظة زوال العتمة التي قهرتْ وطناً؟

سؤال صحفي أيقظني من جديد على سؤال أنا أوجهه لنفسي بحكم العادة.

العبور الى قصة أخرى تسبقها كل الاحتمالات..

مثل صحفي يتلو عليك سؤال كان قد حضرَّه على قصاصة ورقة ينتظر عرض فيلمك فيتلو السؤال كأنه قرأ ولم يقرأ.. لماذا جلّ أبطالك نساء؟

سؤال لا يخضع للزمن ولكنه يخضع لروح الثورة . فاجأني السؤال ولم أحسن الهرب من إجابة أضعت الطريق اليها..

كأني أعيد صياغة نفسي لماذا كلّهن نساء؟

هل أنا مولع بالاستماع لصرخة الأنثى أم أن فاتورة الأنوثة أكبر من الوطن..

فأنا مثل كل رجل عندما سمعت قصة نور أدهشني واستفزّني إحساس الرجولة الخائب فينا..

فالسيوف أصابها الصدأ.. ولم يبقَ من عهد غرناطة سوى ذكرى سقوطها..

نور ومثلها الكثيرات كشفن إهتراء الشرف العربي..

ماذا يجب أن تكتب؟ عن مدينة تريد أن تغادرها فجأة وخلسة؟

هل يهرب العاشق من قدره؟

ولماذا اخترت الهروب قدراً لي؟

هروب عاشق اعتاد الإدمان..

«وتشابهتِ أنتِ وقهوتي باللذة والمرارة والإدمان»

إنّه آخر فنجان قهوة دمشقي على جغرافيا الألم السورية..

أريد ان احتسيه ببطء من دون عينيك الغائبتين.. لكن التوتر يكاد يخرج قلبي من بين ضلوعي.. فالقهوة لم تُهدّأ قلقي ولا إلحاح الانتظار المكابر..

كأني أنتظر مالايأتي.. وذاك أصعب أنواع الانتظار..

قدم زيد أخيراً ..زيد صديق النضال الثوري القديم الجديد على مدى سنين الثورة..

قبلها وبعدها وحتى آخر العمر..قال بحزن مستتر خلف حماس مرهق:

ـكل شيء جاهز سنذهب..

كانت الخطة تقتضي أن يبقى هو في الغوطة ينقل أخبار الثورة وتعود رشا لحياتها الطبيعية واتمام الدراسة لكن مع ممارسة نشاط حذر على الأنترنت..

أما أنا سأغادر إلى الشمال ثم إلى تركيا ومنها الى أوروبا...

قطع زيد شرودي القصير :

هذا عنوان الطبيب في إسطنبول هناك تستطيع أن تقابله، إن لم يغير العنوان حرصاً على حياته.. رابطة الأطباء السوريين في فرنسا حاولت دعوته كي يدلي بشهادته أما لجنة حقوق الانسان في الاتحاد الأوربي بتاريخ... لكنها لم تتلق منه أي رد. قد تكون لديه أسبابه التي نتفهمها بظل هذا الخطر المحدق واصطياد الناشطين أين ما حلوا وارتحلوا، أسبابه قد تكون عائلية عادية ربما حرصه أو لديه أسباب ما قد نجهلها ونعذره بها.. وهذه الخريطة ستكون معك حتى الشمال بالاتفاق مع أشخاص موثوقين..

ثم أردف:

-أعتقد أنك ستنجح..

قالها وشعرتُ أن صوته توتر واختنق فنحن منذ عدة أيام نكرر عبارات الوداع، فالوداع السوري من عادته أن يكون طويلاً، لاعتيادياً وينبغي ألا يكون مباغتاً وله مساحة كافية من زمن، تلك هي طقوس وداعات السوريين.. عانقني بقوة، وقلت له:

-لاأريد وداعاً.. لأنَّ أمل اللقاء أقوى دائماً

تنفس بعمق وقال:

-الطريـق شـائك وطويـل.. لكـن ذلـك لـن يمنـع اللقـاء.. سـنعود الى هـذا المـكان مـرة أخـرى.

ذلـك المسـاء عـذب يغوينـي في براثنـه فيطوقنـي بذراعيـه حتـى آخـر نفـق الحـزن فيتفتـح قلبـي ورداً مـن حـب لا ينتظـر..

يستدرجني رويداً رويداً لمنازلته عشقاً لا حرباً..

يغري فيَّ البوح.. كم أحتاجُ للبوح..

هو البوح ذاته الذي قادني إليك..

لم تكـن الصدفـة بـأن عرفـت آخـر أخبـاركِ لكنـك قـد تعرفـين أخبـاري صدفـة أو لاتعرفينهـا..

لن أودعك..فليس لكِ عليَّ حق الوداع..

فأنا لاأريد أن أتعمقَ فيكِ..

أريد فقط أن أهرب منك..

أريد أن أهرب من شعور لاأريده أن يتطور..

في هذه الأمكنة حيث إلقينا..

ولاأريد بعد الآن أن ألتقي بكِ في أي زمان أو مكان..

أريد أن أبتعد عنك..أريد أن أنسى..

قـد لا ألتقيـكِ بعـد الآن أو ربـما لـن ألمـح شـيئاً مـن اسـمك أو كلماتـك ..

قد أكتفي منك بذكر صدفة كانت يوماً..

كتبتُ لكـن باقتضاب...سـأكتب لـك بضـع كلمات..أودعـك فيهـا دون أن أقـول لـك أيـن وجهتـي القادمـة هـل هـي إلى المـوت؟ الى الحيـاة؟ إلى المجهـول؟ إلى زمـن آخـر لاأعرفـه..

كتبتُ..فكتبـت وكأنهـا المـرة الأولى التـي تمسـك بهـا أصابعـي باقـة حـبر..

«صباحـك خـير.. ربـما تكـون هـذه اخـر كلـماتي لـك.. شـكراً لـك فأنـت ذات يـوم كنـت سـبباً مـن أسـباب الحيـاة..

ملامحكِ لـن تغيـب، تشرفـتُ بمعرفتـك انسـانة أختلـف معهـا عذرتهـا وربـما بحثـتُ لهـا عـن أعـذار فهـي ربـما قـد أُجـبرت عـلى عمـل يخالـق قانـون الوجـود في الثـورات.

أتذكـر بـاب بيتـك فأنـا لم أنسـه حفظتـك مـع أن درجـة الألم كانـت كبـيرة ...

قد لا أعود الى هذه المدينة..

وربـما ألتقيـكِ في مؤتمـر صحفـي لكـن أتمنـى أن تكـوني في المـكان الأكثـر صحـة..

وقتها لن ألتمس لك عذراً..

دمشـق جميلـة مـن دون تناقضـات فالنظـرة للحريـة يجـب أن تخلـو مـن التناقـض.

ومثلها على النقيض تماماً النظرة الى العبودية..

النظـرة إلى الحريـة يجب أن تكـون واحـدة لـدى كل البـشر، وأهـم أنواعهـا التـي يجـب أن تتوحـد .

نظرتنـا اليهـا هـي ألا نكـون عبيـداً لأحـد، ألا نخضـع لحكـم أحـد، فنحـن ولدنـا أحـراراً، ولايحـق لأحـد اسـتعبادنا. أمـا مـن اختـار أن يكـون عبـداً بإرادتـه فتلـك مشـكلته، مشـكلة لايعممهـا ليـبرر عبوديتـه...

هـل تذكريـن دمشـق كـم هـي جميلـة؟ هـل تذكريـن حمـص وديـر الـزور وإدلـب ودرعـا وسـورية كلهـا، هـل تعلمـين أن كلمـة سـوري تعنـي السـيد، والسـيد ليـس عبـداً، لذلـك كل مـن يـرضى العبوديـة تحـت قبضـة الطغـاة ليـس سـورياً حتـى لـو شرب مـاء سـورية وأستنشـق هواءهـا وعـاش فـوق ترابهـا وعـرف تضاريسـها، لكـن جهـل أهـم شيء فيهـا وأهـم شيء هـو كيـف يكـون حـراً لاعبـداً..

سـأترك دمشـق حتـى اشـعار آخـر، وسـأتحفظ عـلى مـكان وجـودي المفـترض الـذي قـد أصلـه أو لا أصلـه، فأنـا عـلى مشـارفه ولسـت كذلـك.

أريـد منـك أن تكـوني سـورية يومـاً مـا، وربـما نلتقـي في مناسـبة مـا، وقـد نلتقـي في سـورية بعـد زمـن يخلـو مـن كل شيء إلا مـن سوريا نفسـها...

لكن سنبقى مع الثورة حتى آخر رمق..

تذكـري أن لدمشـق أبـواب كثـيرة فاختـاري البـاب الـذي تحبـين لكـن كل الأبـواب تتشـابه في طريقـة التفكـير..

قبـل سـنين كتبـت روايـة عندمـا كنـت في المعتقل..كتبتهـا في تفكـيري، وعلـق في ذهنـي جـل أفكارهـا وخطوطهـا وعندمـا خرجـت بـدأت تدويـن الأفـكار ووضعـت ملخصـا.. وكنـت

مع كل حدث أجري تعديلاً..

عرفتـك وحاولـت أن أجعلـك شـخصية رئيسـة فيهـا، فهـل تقبلـين..؟

نسيت أن أسألك عن أمك بلغيها تحياتي، وداعاً..

أيام قليلة ..جاءني الرد

رد متأخر..مقتضب..حزين.. لاتقليدي..

قلـتِ «سـأفتقد ثائـراً قـد لا أراه.. كل عـام وجرحـك يندمـل وجراحنـا جميعـاً» أتمنـى لـك النجـاح أينـما كنـت..

إلى اللقاء..

غريب ما قلناه.. أنا قلت وداعاً ..

أنت قلت الى اللقاء..

انت مصرة بتلقائية أنَّ لقاء سيحدث في يوم ما..

وأنـا أكتفـي بالـوداع.. أريـد أن أقاطـع المـاضي الـذي يدغـدغ تناقضاتي فطريقـي لازال طويلاً..طويـل وشـاق..

أنت مرة أخرى...وأخريات..

صباح ليس اعتيادياً.. كسل في البداية ثم جاذبية قوية تشدني للبقاء في ضوضائه..

يومان آخران وأنا أبحث عن العنوان الذي لم أهتدِ له بعد..

عنوان للفيلم..لم أجده٬ لم أتعثر به...

الطبيب «...» لغز آخر... وقصة النسوة اللاتي كتب لهن شهادات الوفاة٬ وأشرف في وقت مضى على علاجهن..

هل تأجّل موتهن لحظة انقضاء الحلم.. أم أن الصدفة لاتصنع الحلم؟

عندما كنتُ أعبر التفاصيل إلى الشمال السوري٬ كانت الخيوط تتشابك في ذهني كنت أحاول أن أفك التشابك وأضع كل تفصيل في فراغه العابق برائحة الدم السوري الذي يشغل هذه الجغرافية كلها٬ وكأنه كان ليكون...

كل الذين قابلتهم قبل يومي هذا أحملهم معي..

أحملهم في حقيبة الذاكرة..

قصصهم صارت وطناً..

زاهرة شغلتني..

قصتها آلمتني٬ هزّت جذع الرجولة المهترئة في زمننا دون تأثير٬ قصتها وطن آخر من جرح لايلملمه وقت..

زاهـرة هـي المـرأة التـي يعرفهـا جيـداً الطبيـب عبـد الحـي.. هـو الـذي قـام بفـك أسرهـا بطريقتـه مـن قيـود جلادهـا.

هـو وحـده يعـرف كيـف هربـتْ وكيـف هـرب هـو بعـد ذلـك وإلى أين..

قصتهـا هـي الوحيـدة التـي تسـتوقفك لتقـول لـك قـف أنـت تـودع وطنـاً أو تـودع رجولـة بأكملهـا..

أنـت تـودع وطنـاً.. يعنـي أنـك تـودع تلـك الجغرافيـا المؤنثـة.. تـودع الأرض وتجلياتها..

الوطن ليس هو الجغرافية فقط..

الأرض جغرافيـا الحنـين والذكريـات ومسـاحات خاليـة مـن الريح..عندمـا تـودع وطنـاً تـودع ألـف عاشـقة مخلصـة لـك أو ربـما إحداهـن..

فالمرأة كما الوطن لافرق..

لافرق أبداً..

بينـي وبينـكِ مسـاحة حـبر فـلا تغوينـي فأنـا لا أسـتطيع المـرور أبـداً دعينـي أفكّـرُ كيـف أقتلـع الكلـمات من صخـور نسـيانها.. فلسـتُ صالحـاً للحـب ولا صالحاً للنسـاء...

أريــد أن أرقّــع الكلــمات الأخــيرة لســيناريو فيلــم أقــرب لذاكــرة الزمــن..

الجنـدي المهنـدس الـذي تـرك الهندسـة في آخـر سـنة وهـو عـلى أبـواب التخـرج صاحـب اليـد المعطوبـة ونصـف العائلـة

والحبيبة المنتظرة.. هو ثائر أوحى لي بألف قصة كأنه كنز عثرت عليه لأبوح أو ليباح لي. مثقف. هادئ. متوتر. قلق كأنه قادم من آخر ممالك العرب القديمة على جيادها الغراء.

تقديم ما لقصته أو لفصل روائي في رواية لم تبصر النور بعد...

كلما قرأتُ له هذه الكلمات يقول لي عدلها .

عدّلها من وجهة نظره أن أكتفي بذكر اسمه فهو يرى الزيادة رياء أو مدحاً لا طائل منه.

سألته عن الطبيب الهارب من دمشق الذي أشرف على علاج عشرات النساء المغتصبات في الفروع الأمنية.. الطبيب مرَّ من هذه النقطة..

لم يشأ أن يفتح الموضوع ولكن اكتفى بالقول إنه يملك شهادات كبيرة حول كل هؤلاء النساء ولديه معلومات موثقة تماماً لتعرضهن للاغتصاب الجماعي حتى الموت أو الجلطة الدماغية أو النزيف الحاد كأحد الاحتمالات. هذا الحديث سمعته عندما اجتمع مع القادة هنا وطلب منهم التكتم على مكان إقامته في إسطنبول لأن حياته قد تكون بخطر أو عرضة للاغتيال كما حدث مع كثير من الناشطين والمعارضين والشاهدين «

هذا الطبيب هو ضالتي الذي أريده أن يكون شاهداً على حجم الألم والرعب والقبح الذي عانى منه الجسد السوري في ظل أعتى الأنظمة الشمولية في العالم..

ربما سأهتدي إليه خاصة بعد تحديد موعدٍ للقاء زاهرة في مدينة «أورفا» التركية.

وأخريات منهن قد قضين حتفهن ومنهن من خرجت وعاشت بنصف حياة..

نصف حياة مثلٍ موت بطيء يقول لك لن آخذ روحك اليوم، انتظر غداً.

وهكذا....

هكذا تبدأ القصة، لكنها المأساة عينها...

فكيف تقنع الوردة بأن أحداً لن يقطفها أو يتركها في مكانها وتموت من تلقاء نفسها تحت الشمس أو المطر..

من يغيّرُ مصير وردة، أو امرأة تعرضتْ أنوثتها للانتهاك بأبشع صورة؟

منْ يغيّر مصير ثورة اغتصبها وحوش السياسة والقياصرة والأكاسرة التقليديون؟

كيف تغيّرُ النساء مصير أمة؟

قرأتُ ذات يوم عن امرأة هولندية، جمالها قرّبها من السياسيين، لكن كيف تغيّرُ امرأة هي مجرد راقصة عاشت حياة طبيعية- مصيرَ أمة،؟

ذات يوم دخلت حجرتها ووجدت أحد ضباط المخابرات الألمانية في حجرتها، كان ينتظرها، عرض عليها العمل مباشرة لحساب المخابرات الألمانية فوافقتْ.

عـادت الى باريـس لتتابـع عملهـا كراقصـة وتبـدأ عملهـا الجديـد كجاسوسـة لصالـح الألمـان ضـد الفرنسـيين الذيـن كانـوا خصومهـم في الحـرب آنـذاك.

كانت عميلة مزدوجة وكذلك عملت لصالح الفرنسيين.

حقـق الالمـان الكثـير مـن الانتصـارات بفضلهـا لكنهـا انتصـارات لم تـدم طويـلاً.

علاقتها كانت وطيدة بعدد كبير من السياسيين آنذاك.

كشـف الفرنسـيون أمرهـا وسـاقوها إلى منصـة الإعـدام وقالـت لهـم قبـل إعدامهـا عندمـا تقتلـوني لـن يكـون أب سيء في أيديكـم مـاذا يعنـي هـل سـتنتصرون في الحـرب؟

لمـاذا مثـلاً كتبـت ايميـلي ديكنسـون ١٧٧٥ قصيـدة ولم تنـشر منهـا سـوى سـبع قصائـد منسـوبة لمجهـول؟

لمـاذا اسـتمرت بالكتابـة بـكل هـذا القـدر مـن الإبـداع بـلا مقابـل ؟

لم يكـن ثمـة مجـد مـادي أو أدبي مـن الكتابـة التـي ارتكبتهـا. فلـماذا كتبـت؟

هل الكتابة هي المكافأة على الكتابة ؟

هـل يذكـر التاريـخ كثـيراً صاحبـة المقولـة الشـهيرة أو الأشـهر في التاريـخ عائشـة الحـرة؟

هـل درسـنا في المناهـج اسـمها؟ نحـن قرأنـا فقـط كيـف سـقطت غرناطـة ومـن كان آخـر ملوكهـا..

ملـك لم تغـيّر مصـيره مقولـة تهـز تجاويـف النخـوة في الجبـال فكيـف الرجـال؟

«ابكِ كالنساء ملكاً لم تحافظ عليه كالرجال»

لم يغـيّر مصيرَ غرناطـة بـكاءُ ملوكهـا ولا حتـى نخـوة تلـك المـرأة وصرختهـا وحكمتهـا الذكيـة الصائبـة..

أبـو عبـدالله الصغـير -الـذي قرأنـاه تاريخـاً آخـر ملـوك غرناطـة- الـذي قيلـت فيـه تلـك المقولـة لم يحـمِ حصـون مدينتـه الغـراء..

لكن كم من الأساطير ألّفوا حول هذه المرأة ..

ورغـم الـدوره الكبـير الـذي لعبتـه في إنقـاذ عـرش غرناطـة وبعـث روح المقاومـة في الغرناطيـين ضـد الاسـبان إلا أن الإسـبان حافظـوا عـلى بيتهـا في حـي البيازيـن الشـهير في غرناطـة وألّفـوا حولهـا الأسـاطير والقصـص وكأنهـا أشـهر مـن أشـهر ملكـة أسـطورية.

زاهـرة امـرأة منهـن وليسـت كذلـك، تلـك الثائـرة الصامتـة التـي دفعـت ثمـن تمـرد الرجـال، امـرأة خلعـت ملابسـها للشـمس فقـط..

أذكـر تفاصيـل حـواري معهـا رغـم إنهـا لم تتحـدث كثـيراً في تلـك اللحظـات..

لكنها اختصرت القضية..

حوار معي

«فاصلة روائية»

كل الكتّــاب متمــردون نرجســيون مزاجيــون يتظاهــرون بالتواضــع عندمــا يكونــون واثقــين...

مقدمة لا تليق بي..

لم أغيّرها وأنا أنظر الى عين محاوري..

محاوري هو أنا..

أنــا كتبــتُ الأســئلة لنفــسي كلّهــا وأجبــت عليهــا دفعــة واحــدة..

تذرّعت بألا أحد يفهمني إلا نفسي ...

فكيــف؟ أنــا الــذي لا أعــرف وجــه محــاوري مــن خــلال صــورة...

عمتــي التــي ربتْنــي وكانــت بمثابــة أمــي كانــت تقــول لي دائــماً أني غريــب جــداً فــذات مــرة دخلــت ووجدتنــي مبتســماً وأحــرك يــدي وكأن شــخصاً أمامــي أحــاوره...

منذ ذلك الوقت أصبحت قلقة علي وتراقبني.

هــذه القصــة أدرجتهــا في روايتــي. وفي الاهــداء.. أهديتهــا إلى أبي الــذي لم ألتــقِ بــه إلا للحظــات خــارج الذاكــرة والعتمــة والغياب..ولازلــت أتعثــر بــذاك الغيــاب وأبحــث عــن مــدن يســهل فتحهــا عنــد الحصــار..

أقـول لهـا الشـعر وتحدثنـي عـن التاريـخ كـما تحـدث شـهرزاد شـهريار بذلـك الكـذب الجميـل الطويـل الـذي يمنحهـا حيـاة أطـول ممـا يفـترض شـهريار..

أنا مدين لها بالحياة وهي مدينة لي بالموت..

أحدّثها عن غرناطة، فتحدثني عن دمشق.

أحدّثُها عن الثورة فتحدثني عن الحرب.

حـواري معهـا بعـد موتهـا جعلتـه فصـول روايـة فأنـا بنيـت كل الجـدران التـي اتكأنـا عليهـا

سوياً أو سرنا بمحاذاتها ذات ثورة..

فما السياسة إلا أنت أو شيء منك..

شالك.. عطرك.. خيط من ثوبك المغري..

صوتـك الـذي يشـبه رنـين النهـر في المسـاء.. أو أي شيء لا تمارسـه روحـي معـك،

كالسياسة مثـلاً. فأنـا أكـره السياسـيين، لكنـي فضـولي جـداً في تعقّـبِ أحاديـث السياسـة..

لم أعشـق امـرأة قضيتهـا السياسـية أكـبر مـن قضيتـي، فهـي باختصـار لم تكـن سياسـة بـل كذبـة أو لعبـة مـن القـدر دفعتنـي للقائهـا.

عميلـة أو جاسوسـة، كان يهمنـي ألا أعـرف كثـيراً مـن أنـتِ فصدمتـي مـن المنطـق أن تكـون كبـيرة، لكنـي لم أنصـت كثـيراً

لمبرراتها التي كانت مقنعة لدرجة الإقناع.

كيف أقتنع وأنا الذي جربت الإعتقال؟ جربت آثاره على جسدي. وحتى الرصاص ذاقت خلايا جسمي طعمه..

جربتُ أن أعيش باسم مستعار وأعمل تحت جنح الليل كاللصوص؟ لكنني لص شرعي له الحق ألا يكون لصاً.

أذكر جيداً كيف بدأت الثورات وكيف كان أول وهم تساقط؟ وأشعر بوهج اللحظة وبهجتها عندما هرب بن علي.

بين عينيك وغرناطة ..

بين عينيك وغرناطة مسافة كبريقهما لحظة الوطن..

كأنّكِ أنت بعد كل هذي القرون عاهدتها ألا يرجع الزمن العربي.

كأنك الثورة أو أمي المنفية في حضوري فتتسابق أسئلتي الى جحر عينيها.

أين التقينا؟ وكل الأزمنة رديئة وأنت خارج أزمان، لمحتك واللمح يكذب ساعة، والساعات أزفت كلون الدم على أجساد الثائرين؟ فجئت عينيك مهزوما مخضباً بالحلم.

هربتُ منك.. من ذاكرتي القديمة..من جرحي..من لقائي المقتضب بكِ..

كيف لكِ كل هذه التأثير وقد كنت محطة صغيرة في حياتي في زمن الثورات.

ذات مـرة قـررت أن أفتـح رسـائلكِ المحفوظـة في الكومبيوتـر كنـت قـد أرسـلتها أنـت عـلى «الماسـنجر» بتاريـخ... يوليـو ٢٠١٢ وهـو العـام الثـاني للثـورة ..

في غربتـي البعيـدة كنـت أقرؤهـا..وذات مـرة قـررت أن أمسـحها كلهـا..

مسـحتها بالفعـل قبـل أن أبنـي عليهـا حـواراً روائياً..حـوار تبدئينـه بسـؤال مباغـت:

-أنـت تحكـي كلامـاً لايخلـو مـن السياسـة.. لمـاذا تحكـي كثـيراً في السياسـة؟

لكـن ماقصـة الثـورات والنسـاء! هـل الثـورة تمتلـك شرط الارتبـاط بالنسـاء؟

فالرجـال أيضـاً يصنعـون التاريـخ! وفي تلـك اللحظـة عـلى النسـاء الانتظـار.

قلـت حينهـا: قـد نكـون في خنـدق واحـد.. وربـما نمـرُّ مـن ذات الخنـدق إلى مـلاذ الحريـة.

فقلـت لي: تعجبنـي عبـارة في خنـدق واحـد .. جميـل أن تحـب في زمـن الحـرب وكأن العواطـف تصبـح ملاذنـا الأخـير لنهرب مـن آثـار الحـروب..

قلـتُ: مـات جيـل مـن العشـاق كـي تصـير الحريـة نوعـاً مـن العطـر نرشـه عـلى الجسـد الـذي أنهكـه انتظـار الفـرح..

قلتِ:

-أأنت تحكي شعرا؟

-نعم ولم لا؟ أبي كتب كل شعره بالسجن

-أأباكَ سجين؟

-نعـم، وقـد عـاش نصـف عمـره في السـجن. لم أره، قـرأتُ شـعره فقـط وأبـصرتُ صورتـه.. أمـي انتظرته..انتظرتـه ثلاثـة عقـود..

-وهل رجع؟

-رجع الوطن..وأبي بقي هناك..

لكـن الزمـن توقـف للحظـات ولم نكمـل حوارنـا.. حـوار روائـي بينـي وبينهـا، اختلـط علـيّ مـن تكـون، فهـي تـارة غاليـة وتـارة هنـد وتـارة شـخصية متخيلـة في روايتـي التـي لم

تبصر النور بعد..

عاودتِ الأسئلة:

-لماذا تكرر غرناطة في قصائدك؟

-كانت في قصائد أبي..

-أنت تنبشُ الماضي وتتعب دون جدوى.

-أنا أنبش الماضي لا أنبش قبراً..

-والماضي لايعود...

قالتها ثم انصرفتْ وكأنها طعنتني بألف سيف أندلسي...

وفي عينيها ملامة كبرى! فما علاقة الربيع العربي والثورة السورية بغرناطة؟ لم أجد جواباً منطقيا عاجلاً.

وسقطت غرناطة! وسقطت قرون ثمانية وكأن شيئاً لم يكن.

ولاتزال ترن في أذني عند كل هزيمة في تاريخ الأمة عبارتها الشهيرة «ابك كالنساء ملكا لم تحافظ عليه كالرجال»

وجادكَ الغيث إذا الغيثُ همى   يازمانَ الوصل في الأندلسِ

وتناثرت قرون ثمانية في حضرة الوصل المفقود.

وتعمدتْ تلك المرأة بشالها الأندلسي بعيداً عن عيون رجال لم يحافظوا على عذرية الممالك من شهوة الغدر المغتصب.

أنا هارب إلى الماضي.. وصعب أن يهرب الانسان الى الماضي لأننا بالعادة نحاول الهروب الى الأمام! إلى المستقبل..

من مثلي لايصلح لمن مثلكِ.. جربوا كلَّ الأسلاك المعدنية والكهربائية على جسدي..

من يفعل؟

من هو مثلي؟

أبوه سجين سياسي مات في سجنه بعد أن أمضى ثلاثين عاماً بعيداً عن الحرية والضوء! وأمه ماتت بمرض السكر قهراً على رجل انتظرته ولم يعد..

أنا الآن لا أصلح للنساء..

لاأصلح للغزل..

ولا أصلح للكلمات العابرة.

وإنه وقت لايصلح لكل الأسئلة..

أنا الآن أحاول ألا أنبش ماض امرأة جربت ألا أحبها عندما عرفت موقفها..

فهل المواقف تغيّر المشاعر..؟

بين حرب وثورة

عندما بدأت بكتابة الرواية كانت الثورة تمر بعامها الأول.

حاولتُ أن أشغل أصابعي أو أشعلها شغفاً حد الوله كي أتجنّب اختبار الصمت أو أجرّب شرود الحبر على الصفحات البيضاء عندما أكتب عن الثورات..

بدأت أعد الموتى أو الشهداء..

أشخاص عرفتهم رحلوا، وآخرون أكملوا الحياة بأجساد معطبة لا تستطيع ممارسة فرائض الحياة.. وآخرون عاشقون للورد مثلي عبروا من فوق روحي الى روح الثورة..

هل تظنون أنَّ الطريق إلى الحرية معبد بالورود...

الذين كتبوا عن الحرية دون أن يجربوها تجرعوا مرارة الكتابة الشاقة الى رحلتها...

قرأت ذات مرة مذكرات نيلسون مانديلا عن الحرية.. سيرة ذاتية نضالية من الألم والكفاح.. هو عاشها فعلاً، فأنت تنفعل بمجرد أن تقرأ عنوان الكتاب الذي تنصهر فيه كأنما تروّج لحالة حالمة معه، فكيف لو عرفت أن صاحب الكتاب هو بطله في الوقت نفسه، ففي رحلة نضالية محفوفة بالمخاطر إلى الحرية التي يكون نيلها أو مجرد السعي للحصول عليها شرف لا يضاهيه شرف .

«رحلتي الطويلة من أجل الحرية» عنوان كتابه. عاش التجربة والطموح والكفاح والفقر والألم والتمييز على

أساس اللون، انتقل من الكوخ إلى قصر الرئاسة في جنوب إفريقيا، منهياً بذلك حقبة التمييز العنصري هناك..بعد رحلة طويلة جداً وشاقة إلى الحرية كما جاء في عنوان كتابه..

أمتشق العنوان وأمتهنه..

نعم إنها الحرية ..

الحرية التي تعشقها النسور، ولاترضى إلا بالقمم.

وتعشقها الأسود ولاترضى ببقايا الغنيمة.

فكيف الإنسان إذاً؟

فكرتُ بذلك الرجل.. فكرّتُ ملياً به.. قد لا أبالغ إن قلت أنّ فيه شيئاً من روح مانديلا، لكن الفرق أن الرجل اكتفى أن يظل صامتاً على جرحه زمناً، فنظرية الألم وحدها لا تكفي لتجعل من المرء مناضلاً ثورياً، الألم يحتاج الى صوت..

سراج عطاالله اسم لم يغادر ذاكرتي منذ أن انفجر يحكي لي قصته، ذلك الإنسان الذي توحي لك الصدفة أنه إنسان عادي، مهمته في الحياة أن يؤمِّن خروج الثوار سالمين الى مناطق شبه آمنة. يجيد تحريك يديه على مقود السيارة لكنه يجيد الغموض لحظة النزف الحاد..

الليل ما أطوله هنا!

تمر الساعات ثقيلة متكاسلة كأنها ضجرة من اختراع السرعة.

كل شيء يجتمع في ذاكرتي ويمرّ سريعاً ذاك الشريط فأعيد تكراره مرغماً لا راغباً..

قهرية ذاكراتنا مهما أبحرنا بعيداً عنها تجبرنا أن نسبح في مياهها الإقليمية.

اجتزتُ فيك سنوات من عمر الثورة كأنها حصلت البارحة.

أريدُ أن أودعها تلك السنين، وشيء أثقل من وجعي يسحبني بقوة إلى عمق الليل.

جميلة الصدفة التي تعطيك صديقاً.. علق اسمه بذاكراتي..

يجلس بمحاذاتي.. قريباً مني يتنفس بعمق كأنه لا يجيد سوى أن يأخذ الأنفاس العميقة فيوحي لي أنه بعمر الهموم على الأرض..

غداً ستكون في تركيا كل الأمور جاهزة تقريباً.

تفقّدْ أشياءك كلها.

ابتسمت لكلامه ورددت بأقرب للمزاح :

-أشيائي هي روحي التي تلازمني إلا لحظة الموت وهذه الكاميرا..وشريط تسجيل أريد أتمه في تركيا..وأريد أن أخرج بأقل الخسائر، لاأريد أن يفتشني أحد فأقتل تعب سنين بين سين وجيم.

-كل شيء سيكون كما تريد..ستصل الجهة التي تريد بحمايتنا حتى تلك النقطة وبعدها افعل ماتشاء

ثم استدرك قائلاً متسائلاً:

-ستطلب اللجوء في فرنسا بلد الثورة الفرنسية أو بلد دم الجزائريين -مثلا-. العالم متناقض دائماً أليس كذلك؟

سخريته لاذعة لكنها سخرية الألم واللامبالاة.. لامبالاة استوحاها من تآمر الدول على الثورة السورية.

يتابع سرد تفاصيل حكايته فأكتشفه مرة أخرى:

-تركت دراسة الهندسة في جامعة حلب والتحقت بالثوار أحمل بندقية وهل قالوا لك إن حمل البندقية هواية أو متعة ليس ثمة إنسان عاقل يريد أن يكون جزءاً من حرب أو دم أو أزمة كما يسمونها لا أحد يختار قدره..

اعتقلوا أخي وتضاعفت ردة فعلي اضطرت عائلتي لبيع كل ماتملك لكي نعرف إن كان حياً أو ميتاً لكن لم نصل لنتيجة. ومنذ أربع سنين موعودون بأمل قاتل مقتول

أمي تقول من يذهب إلى هناك وتتأخر نتيجة معرفتنا بحياته أو موته هو إنسان لن يعود أبداً.. ما أصعب أن تنتظر من لن يعود! وما أصعب أن تنتظر من لا تعرف إن

كان في عداد الأحياء أو الأموات! ليست أمي وحدها من ذاقت مرّ ذلك الأمر نسوة كثر على أعتاب الأمل الممل بين من تنتظر زوجاً أو ابناً أو أخاً أو أباً.. كلنا أيتام

وهن ثكالى..

كأنـه يختـصر قـول أحدهـم «مـا أشـد سـعادة المـرء حـين لا ينتظـر أحــداً او يــودع أحــداً «

ينهـض ليرمـي عقـب سـيجارته بعيـداً عـن الخيمـة، يلتفـت إلي قائـلا :

-كم امرأة قابلتَ ؟

-لم أفهم بالضبط ما تقصد ؟

ابتسم وقال:

-لا تفهمنـي خطـأ، أقصـد هـل قابلـت نسـوة سردن لـك حكايـات تشـابه حكايتـي..

أجبته دون تردد:

-طبعاً.. هن كثيرات..

-ما حكايتهن؟

-أنت تعرف.. هذه القصص لها أوجاع تطول..

-نعم أعرف، ولكن أريد أن اسمع أيضاً..

شـعرت أن صاحبـي يتلـذذ بـالألم ويغويـه الوجـع بسـهولة كـي يهـرب مـن ألمـه.

قلت له:

-إحداهـن فقـدت أولادهـا وزوجهـا وبيتهـا وكل مـا تملـك وإحداهـن معتقلـة سـابقة..

قاطعني وسأل:

-وماذا فعلوا بها؟

-للأسـف تعرضـت للاغتصـاب مثـل نسـاء كثـيرات مقابـل أن يسـلّم رجـال العائلـة أنفسـهم.

-اللعنة عليهم.. يستقوون على الحرائر..

رددتُ عليه بشيء من المواساة:

-إرادتهـن كانـت أقـوى مما توقعـت. صحيـح انهـا تعرضـت لذلـك لكنهـا امـرأة بكامـل عزتهـا، تتحـدث مثـل ملكـة وتصمـد مثـل الفرسـان لكنهـا مهتمـة للأمـر وجرحهـا كبـير وان كابرتْ..مصيبتنـا كبـيرة ..

صديـق لم يكـن عابـراً تعانقـه بحـرارة عندمـا تودعـه كأنـك تقـول لـه قـد لانلتقـي فالمـوت لايخطـأ طريقـه الى السـوري...

عرفتـه أكثـر، أوس عبـد الله ابـن الخامسـة والعشريـن الـذي تـرك دراسـة الهندسـة في أعـرق جامعـات الـشرق، جامعـة حلـب وهـو عـلى وشـك التخـرج.. يقـول في مسـتهل حديثـة، إن حمـلات التفتيـش ازدادت وتيرتهـا في الجامعـة. والمخـبرون كانـوا أكثـر مـن الطـلاب أنفسـهم استجوابه ورفاقـه قـد تكـرر كنـوع مـن الشـك أو الاشـتباه فقـرر الهـرب منهـم الى منطقـة أكثـر وجعـاً، أو ربـما بمفهـوم آخـر أقـل وجعـاً في هـذه المناطـق، لاشيء يلاحقـك سـوى المـوت...

عاشـق لـلأدب بامتيـاز، بعيـداً عـن منطقيـة الهندسـة. قـارئ للشـعر يكتـب أحيانـاً أشـياء أقـرب إلى الخواطـر..

أشعر أنه كان عاشقاً حاذقاً فعيناه تحكيان الكثير..

وتخفيان الكثير وتقولان ما لا يقال..

تحدث عن النساء السوريات المعتقلات فأوجعني كثيراً كأني أصغي لتلك الحكايات لأول مرة وأنا الذي أعرفها جيداً..

أعرفها منذ دخلت أول مرة إلى مشفى المزة العسكري..

دخلت بعد أن فقدت الوعي تحت التعذيب ومن هناك خرجت إلى الحرية.. وقتها لم أعرف هل ذلك مشفى أم مركز اعتقال.. هو ذات المشفى الذي هربت منه نور بمساعدة الطبيب عبد الحي الموصلي..

كان ذلك المشفى يكمل ما يقوم به عناصر الأمن والمخابرات في السجون السورية حيث يتم نقل المعتقلين المصابين بإصابات شديدة بعد حفلات التعذيب..

كان مسلخاً حقيقياً بكل ما تعنيه الكلمة.. كل الغرف مليئة بالجثث..

بمجرد أن يقف المرء عند بابها حتى يشم روائح الأجساد المتعفنة وروائح الدم..

في ذلك المكان تجري عمليات تعذيب كبيرة تفوق ما يحصل في السجون..

قبل فترة نشرت منظمة هيومن رايتس ووتش تقريراً خاصاً كشف بعض القصص الإنسانية لأكثر من ثماني

وعشريـن ضحيـة وجـاء التقريـر تحـت عنـوان «لـو تكلـم الموتـى» في ثـلاث وسـتين صفحـة واسـتغرق إعـداده تسـعة أشـهر..

زاهـرة كانـت إحـدى أولئـك النسـوة الـلاتي تلقـين العـلاج هنـاك..

لكنهـا هربـتْ بأعجوبـة قدريـة بمسـاعدة الطبيـب الـذي أبحـث عنـه والـذي يحمـل في جعبتـه أسرار ووثائـق ووصـور لـكل مـاكان يحـدث هنـاك..

أنـا وزاهـرة والطبيـبٍ نجتمـع في قصـة..في فيلـم..في وطـن.. في مشـفى واحـد أيضـاً.

عندمـا بحثـتُ عـن زاهـرة لتحكـي للعـالم قصتهـا وجدتهـا تنتظـر مـن يحكـي لهـا الأمـل.

لحسن الصدفة البحتة أني وجدتها في مدينة أورفا التركية..

حكت القصة.. القصة كلها لكنَّ الغصة أنها لم تكمل..

الطبيب الذي أهداها حياة أخرى لم ألتقه..

لم ألتقه حتى آخر الرواية..

كيف تسرَّبتْ إحدى البطلات من خلايا ذلك المكان..

فـكل مـرة أقابـل فيهـا امـرأة مـن بـين نسـاء كثـر.. إحداهـن تؤجـج فيّ فكـرة قـد خبئتهـا حفاظـاً عـلى الملكيـة الإنسـانية.. إحداهـن تحـرض الحـبر إلى الانـزلاق نحـو حـدث آخـر..

وتغري شهوة القلم كي يجرب أنوثة الكلمات..

كم رواية سأكتب إذاً؟

وعمّن أتحدث ؟

كثيرات هن الثكالى.

كثيرات هن الأرامل.

وكثيرات هن المنتظرات على عتبات الغياب، وإحداهن أمي التي أقفلتُ فصل لقائها حتى إشعار آخر..

وإحداهن تلك التي أخذت مساحة كبيرة من الضوء..

امرأة بألف رجل تحمل بندقية وتقاتل مع الثوار في الصفوف الأمامية، تحمل البارودة بيد واحدة وتقول إنها أم الشهداء، وإن ثأرها لن ينتهي حتى ينتهي عهد الاستبداد

والظلمة، ولن تستريح أمشاط الرصاص حتى يلفظ الليل أنفاسه الأخيرة.

لم أكتف من أحاديثها، كنتُ أشعر أنّ امرأة مثل أم خالد كما يلقبونها بسيطة لدرجة البساطة، لكنها غامضة مثل غموض التاريخ الذي لم يُحكَ بعد..

لديها الكثير لتحكيه عن الثورة والرؤساء والسياسيين جميعاً كما لو أنهم جميعاً قد أملوا عليها سيرهم الذاتية..

تتحدث عن الثورة ولاتمل ولاتيأس..

الثـورة التـي هـي بنظرهـا أبسـط معـادلات الحيـاة لتقـول كفـى للظلم . .

مـكان لقائهـا أعرفـه جيـداً وأعـرف كيـف تبـدأ الأسـئلة معهـا وكيـف تنتهـي.

لحظـة وصـولي إلى الشـمال مفصليـة بالنسـبة لي في زمـن النشـاط الثـوري الصحفـي الـذي وجـد في الكلمـة والصـوت والصـورة وسـيلة أخـيرة نافعـة لإيصـال صـوت المظلومـين الذيـن لم تصلهـم تغطيـة لوكالـة أنبـاء أقـرب للموضوعيـة..

أشـهراً كانـت كافيـة لأن ألمس أكـبر مسـاحة مـن الجـرح.. هنـا يختـزل الألم السـوري الجمعـي ذاتـه بطريقـة عفويـة خاليـة مـن كبريـاء الصمـت أو العجـز عـن التعبـير..

هنا ذاكرة جمعية لاتنتهي..لاتتقادم..لاتتوقف..

مرة أخرى...مرة أخرى على الحدود

مـرة أخـرى يوقظنـي الصبـاح ولدغـة بـرد حـادة تسـتفز جســدي.

يوقظني صوتٌ صاحبي المرابط طوال الليل يقول:

-نمتَ بعمق؟

-صباح الخير.

-صباح الخير.

-إلى حـد مـا.. لكنـي لم أهنأ بحلـم جميـل فكلهـا كوابيـس لا أذكـر منهـا شـيئاً.

- سـتشرب الشـاي و»تـروق» أعصابـك . غـداً سـتكون في تركيـا. نسّـقنا مـع الجانـب التركـي ووصلَنَـا الـرد.

-سأودّعك إذاً؟

رد بسخرية موجعة:

-السوريون يتودعون دائماً

لا تقلـقْ بشـأن مـا تحملـه مـن وثائـق وأشرطـة سـيرافقك بعـض العنـاصر التابعـين للجيـش الحـر حتـى الجانـب التركـي وهنـاك سـتلتقي بالشـخص المطلـوب الـذي سيوصلك حيـث

تريـد.. وسـيجري تفتيـش روتينـي لا تقلـق لهـذا الأمـر أنـت مـوصى بـك عـلى كل حـال لكـن التفتيـش لا منـاص منـه.

صمتٌ ساد بيننا.. وشعرت بغصة الوداع واللارجوع وكأن الجغرافية السورية كلها تكومت في هذا المكان الضيق.. وكأن ذاكرتي كلها نزحت الى هذه اللحظات بالذات..

غصة استعصت في منتصف الطريق بين الرجوع أو لا.. قطعتها بعبارة واحدة لم أتمّمها :

-ربّما نلتقي..

ردَّ:

-نلتقي بعد سورية الآن..

قلتُ:

-في سورية أخرى ومستقبل أفضل

قال :

-كثيرون قبلك عبروا الحدود كي يقنعوا العالم بأن هناك ألف سيف مسلط على رقابنا. وأن الأجساد تعفنتْ في كل الزوايا والدم صار لغة أخرى هنا..

هم مقتنعون تماماً لكنهم يهربون أو ينددون باستحياء مذل.. مرّ كثيرون على عتبات هذا المكان.

قالوا لنا بأنهم تابعون لمنظمات تعنى بحقوق الإنسان..

هنا الإنسان حقه الوحيد أن يفكر بألا يموت غداً..

قلت:

-الغد يبتعد كثيراً بقدر اقترابه منا..

رد:

هذا قدرنا..

سألته مستبقاً قدري :

-كم يلزمني من الوقت كي أكون في آخر نقطة ؟

ضحك وقال:

-لستَ صبورا ياصاحبي ...هناك عائلات تبقى أحياناً اياماً وربما شهوراً على الحدود..

قلت:

-نعم صحيح..أنا قضيتُ هنا شهوراً من عمري كانت كأنها سنين من وجع..

رد بسؤال:

-وهل أنجزتَ ماجئتَ من أجله؟

أجبتُ:

-حاولتُ أن أنجز مهمتي كاملة.. لكن في النهاية لا شيء كامل.. المسألة ليست كذلك لكني أشعر بطول الساعات التي لم أشعر بطولها.الانتظار صعب أحياناً.. وأنا ذاك النوع من البشر الذي لا يحب الانتظار.. شعرتُ بذلك عندما

كنت معتقلاً لدى أجهزة الأمن.. كنت أمارس فقط عملية الانتظار.. وكان الانتظار موجعاً جداً ومقيت. فكيف

إن كنتَ تمارس شيئاً تكرهه كالانتظار.. لكن عندما يجتمع الانتظار مع الوجع والقلق تصبح المسألة كارثة روحية بالنسبة لي..

سألني وهو يحاول أن يفتح حديثاً آخر:

-هل عذبوك؟

أجبته:

-وهل من عادتهم أن يدللوا نزلاءهم؟!

قال:

-إذاً عذبوك..!

قلت دون إجابة مباشرة على سؤاله:

-مع إن الثورة لم تكن وقتها. كل ما في الأمر أننا حاولنا ان نكون تحرريين إزاء ثورة تونس لكن تلك النغمة لا تعجبهم..التعذيب قاسم مشترك بين المستبد وبين القدر

لكن القدر له طريقة مثلى..لولا محمد بوعزيزي لما ظهرَ الربيع العربي نحن مدينون له بالفرح كما هو مدين لنا بالوجع..لكنه فرح بحجم وجع..وفرح مسروق لم نجنِ

ثماره. أعتقد أن حريقه لايشبه كثيراً حرائقنا..

عقَّب على كلامي :

-ولو لم يكن هو سيكون غيره؛ لابدَّ أن ينهض المارد؛ الشعوب ملتْ من عبوديتها لهذه الأنظة القمعية التي جثمت عقوداً وعقودا على صدور الشعوب.

قلت:

-لكن للأسف هناك من لازال يشتري عبوديته ويرضى بها وبسبب هؤلاء لم نقطف الثمار بعد..

قال:

-أنت اخترت أن تكون حراً لا أحد يملي عليك كيف تكون؛ وخاصة عندما تكون الحياة هي طرف المعادلة..أو الحرية..

صمتٌ يسود حوارنا؛ يقطعُه صوتُ رصاصٍ لا تعرف مصدره...

ثم وقفتُ حدقتُ بالجبال أمامي..وقطع صديقي الصمت:

-العلم الذي يرفرف امامك كما ترى هو علم تركيا هذه هي الأراضي التركية تفصلنا عنها امتار قليلة وبالحالة الطبيعية لو فرضنا عدم وجود حدود ستحتاج الى ثلث ساعة كي تصل حيث نقطة العلم...

قلت:

-أجل أعرف..الخفر ينتشرون بكثرة، أليس كذلك؟

قال:

- نعم وفي الفترة الاخيرة كان هناك تشديد كبير وهناك تصرفات فردية من البعض أدت الى مقتل عدد من اللاجئين الذين حاولوا الهروب..لكن للأمانة الإنسانية لولا حدودنا مع تركيا لكان النظام سجننا في سورية وقتلنا جميعاً..

ثم أردف:

-ملايين اللاجئين الآن في تركيا..موقف إنساني مشرف من دولة ليست عربية..الدول العربية التي نشترك معها بالحدود ساهمت بقتلنا مع النظام..

قلت:

-لذلك سأعبر من تركيا وليس من الحدود الأردنية أو اللبنانية..

تابعتُ بعيداً عن الموضوع:

-جميلة هي الطبيعة هنا؛ فيها شيء حميمي وحزن غريب؛ ربما لأنها النقطة التي

تشهد لحظات فراق الوطن..الزيتون هنا موغل في القدم كأنه كان منذ أول التاريخ...أريد أن التقط بعض الصور

ثم عقبت مازحاً:

-هل التصوير ممنوع هنا؟

قال:

-بالطبع لا. خذ الصور التي تشاء لكن لا تلتقط لي صورة مبا غتة

قلت:

-هل يعقل أن التقط لك صورة دون علمك...

قال:

-لا لا لم أقصد شيئاً إنما مظهري ليس لائقاً لأية صورة.

أجبته مازحاً:

-لاتخف لن أضعك على غلاف مجلة..

حدقت بالأسلاك الشائكة وتمعنت بالأفق..

هنا هي النقطة الأخيرة لي قبل أن أودع الجغرافية السورية.. أبحث عن قصص لبشر جمعتهم الجراح وشتتتهم بعيداً عن الأدلة والشهود.. أحاول أن أبحث عن بعضهم.

وانا أحدث نفسي قائلاً:

أمتار تكوّنها سنتميترات بسيطة تجعلني خارج الوطن. سياج شائك مثل الشجن على أرواحنا.. زمن قليل يجعلني هناك ولن أشم رائحة هذه البلاد حتى أجل غير مسمى..

كان صاحبي يبتعد عن مرمى عيني وهو يمتشق البندقية فجأة يستدير يرفع يده كأنه يودعني للحظات. تذكرت عبارته «نحن السوريون نتودع دائما».

يودعني كأنه لن يعود، أو كأنه يقول لي الموت لا يخطئ. نحن الذين نخطئ لأننا نأمن الحياة كثيراً.

كأنه يقول لي لا تستعجل عليَّ كثيراً وتجعلني أحد أبطال فيلمك أو روايتك. هناك كثيرون مثلي، فأنا لم أفعل شيئاً يستفز التاريخ..

أنا منذ خمس سنين أضع بندقية على كتفي، وأنتظر الفرج كنوع من العزاء، وفي لحظات التفاؤل الشديد أغير المصطلح لأنتظر النصر، وعندما أحاول أن أكون سلمياً أقول (سأنتظر نهاية الحرب)

أنا أنتظر كل هذه الأشياء. النصر ونهاية الحرب والفرح وزوال الأزمة والعتمة.

أنا أنتظر فحسب، وعندما يأتيني أمر بالهجوم أو الدفاع أنتظر الموت فقط،

ولاشيء سواه..

أنا مثلكَ لا أحب الانتظار لكن الأمل يغريني..

ولا شيء أجمل من إغراء الأمل..

قال ذلك كله دفعة واحدة وبلغة واحدة وبعد ذلك صمتت الأبجدية العربية برهة.

الموجوعون هم أشخاص غامضون، عميقون..وغالباً لا يبوحون بسهولة..

أنظر إليه فأجد صلابة ..ثم أتابع تأمل عينيه فأجد جرحاً عميقا وقلبا كالندى ليس من السهل أن تغوص بأعماقه..

نحن دائماً هكذا محكومون بالتظاهر.. التظاهر بألا شيء يستحق الانتظار..

التفكير..المحاولة.. المغامرة...نحن نتظاهر باللاشيء عندما يعنينا كل شيء..

نتظاهر بالقوة عندما نكون بأوج ضعفنا..

نتظاهر باللامبالاة عندما نهتم كثيراً..

لا أحب قراءة الأشخاص إلا عندما أقترب منهم.. فضول يدفعني أو رغبة.

أوس فرعون أو أوس عبدالله.. هو أحد هؤلاء الذين يحاولون التظاهر باللاشيء لكن قلوبهم عامرة بأشياء لاحصر لها..

اسمه غريب لكنه ليس الاسم الحركي.. سألته عن قصة اسم فرعون وهل هو من نسل الفراعنة مثلاً؟

وقتها قلت له مازحاً:

-لديك شيئاً من فرعون وتحمل بندقية ضد النزعة الفرعونية في الحكم..

قال: إن كل انسان فيه شيء من فرعون لكن درجة استخدام الصلاحيات تختلف..

لا لا لستِ من نسل الفراعنة مطلقاً..أنا إنسان عادي.. عادي جداً.

أوس مقاتل شرس لايبالي[1] الجراح جعلته لا يبالي[1] فقد جزءاً من عائلته في قصف لايعرف رحمة أو هوادة.. ويريد أن يحمي من تبقى..

يترقب انتصار الثورة وانتهاء الحرب..

يقول عنها ثورة ويقول عنها حرباَ.. ويرفض فكرة أن الثورة انتهت منذ بدأ الكفاح المسلح...

لكنه يدرك اللعبة..

يقطع سلسلة أفكاري..

يتمدد متعباً ويهمس :

-اقتربَ رحيلك..إنهم يناقشون وضعكَ الآن..

-يؤسفني أن أودعك..وانا كما تعلم صحفي فقط ولا أجيد استخدام البندقية أحب حمل الكاميرا والقلم والأوراق[1] لذلك سأبتعد..

ابتسم.. وقال:

-تعجبني صراحتك مع نفسك.

استفزَّني استفزازاً لعيناً فسألته :

-ألا ينفع القلم ؟

رد مستدركاَ كأنه.. :

-بلى بلى.. الأقلام غيّرتْ أقدار شعوب بحالها.

وتابع:

-شعوب نهضتْ بعد قصائد أليس كذلك.؟

دخلنا في نوبة ضحك وقلت له:

-قصائد.. نعم.. من يسمعك تتردد متلعثماً بهذه الكلمة يقول إنك لم تدخل مدرسة

بعمرك. ألم تترك دراسة الهندسة لتنضم للثورة؟!

ـ نعم فعلت ذلك...الهندسة مدهشة وصعبة أيضاَ..عندما تركتها كنت في السنة الرابعة، وهذا مايؤلمني، لو كنتُ في السنة الأولى لقل عندي شعور الندم.. أنا لست نادماً أني هنا، لكني نادم خوفا..خوفا ألأ أعود يوماً...

سألته:

-أين تعود..؟

سكتَ ولم يجب، لعله يدرك أن سؤالي كان استجواباً. ربما لأني أعرف جزءاً من الإجابة...

تابع بعد صمت:

-عندما تأسسَ الجيش الحر من مجموعة ضباط ورجال منشقين عن الجيش النظامي كانت مكاسب الثورة أكبر والانتصارات كانت في البدايات أكثر..

هنـا أمـراء حـرب لاتعـرف نهايتهـم ولا تعـرف كيـف بدايتهم..ظلـم الاسـتبداد صعـب لكـن الأصعـب منـه أنـك تعيـش مـرارة تغيـيره..

ثم تابع لعله كان يبحث عمن «يفش له قهره»

-لم يكـن هنـاك أيـاد عابثـة وممولـون متصارعون..دخـل الممولـون عـلى الخـط فأفسـدوا أشـياء كثيرة...لقـد خـسرت الثـورة بقـع جغرافيـة كثـيرة.. كانـت بكاملهـا مناطـق محـررة..

لانريـد أن نخـسر المزيـد. أوقَفـوا السـلاح عنـا.. منعـوا مضـادات الطـيران الـذي يقصفنـا وكل ذلـك بقـرارات مدروسـة.. يغدقـون مـالاً كثـيراً لكـن في أحايـين كثـيرة يذهـب إلى جيـوب خاطئـة وأماكـن خاطئـة.. شيء غريـب يحصـل كأنهـم يختـارون الهـدف بعنايـة.. يختـارون الشـخص الخطـأ دائماً..نعـم هنـاك نفـوس في الثـورة لديهـا اسـتعداد نفـسي لأن تكـون فاسـدة ولعـل هـذا الأمـر سـهل عليهـم المهمـة.

سألته وأنا أعرف الاجابة مسبقاً:

-من تقصد بآولئك الذين يختارون الهدف بعناية؟

أجاب بابتسامة صفراء:

-أنـا وأنـت نعرفهـم ولانعرفهـم.. تلـك الأيـدي الخفيـة التـي ترسـم أقـدار الشـعوب.

تابع سرده بامتعاض:

-وهل نجاح الثورات مشروط بإغداق الأموال عليها؟ الفيتناميون كانوا يقاتلون حفاة..

الجزائريون بدأوا الثورة وحرب التحرير بعدة بنادق خفيفة وبضعة مقاتلين..

في المغرب كانوا يحاربون فرنسا واسبانيا والعملاء..

سألته :

-هل تعرف الكثيرعما يفعله قادتكم؟

-نحن هنا لانبادر إلا بأوامرهم.. حررنا مناطق كثيرة من قبضة جيش النظام الحاكم

في دمشق..

قلت:

-والقادة من يديرهم؟ هل تديرهم عقيدة الثورة؟

أجاب:

-لا أدري من أين يتلقون أوامرهم بالضبط.. لكن هل ينبغي لكل ثورة أن تكون لها مخابرات تديرها؟ غرفة في الأدرن ساهمت بتسليم مناطق بحالها للنظام وغرفة في تركيا وغرف سرية في كل بقاع الأرض..ربما حتى في أمريكا الجنوبية.

لعبة قذرة جداً تمارسها الدول بحق هذه الثورة..

لن يجعلوها تنتصر..

هذه الثورة تعبت من العبثية.

كررّتُ سؤالي له:

-وهل تعرفون ماذا يفعل القادة بالضبط؟

قال بابتسامة بعد فورة:

-إن كنتُ أعرف هل تظن أني سأجيبك؟ إنها أسرار الحرب..

عبارته الأخيرة استفزتْ روحي، أثارت غبار الانتظار.. فعقبتُ على ماقال كأني واثق أني لا أعرف تماماً ما يحدث فلحظات الاستجواب صعبة :

-أين أنتم الآن وإلى أين ستمضون.. هل ستبقى البنادق صادحة؟

أجاب كمن يستثير حميتي:

-أولستَ ممن يؤمن بالكفاح المسلح طريقاً وحيداً لمواجهة عدو أشد شراسة؟

نطقتُ إجابة ساذجة:

-بل أؤمن تماماً، لكن الأمور ليست متكافئة..غيِّروا الاستيراتيجية..

ردَّ:

-كيف ؟ ومن المسوؤل عن تغييرها؟ قلْ هذا الكلام لهم. ألستَ صحفياً؟

أفحَمَني بلغة أخرى ليست مبهمة لكنها تدفعني لحماس إلى سؤال:

-هل أخذ الجزائريون الذين كنت تتحدث عنهم قبل قليل أو الفيتناميون إذناً من أحد عندما قارعوا العدو؟ لماذا ربطتم قرار الثورة بالدول والممولين؟ التخلي عن تسليم الرقاب لجهات ليس لصالحها الحسم في لحظة تتعارض مع مصالحها.. حالة الارتباط مع جهات معينة ومصلحته وتقلبات مزاج هذه الحالة والله لم تكن إلا في الثورة السورية لماذا؟ لماذا ندخل من عبودية الى عبودية أخرى. لماذا من يدافع عن وطنه سواء كان منظماً أو غير منظم يجب أن ينال إذن الهجوم..؟

الانسحاب. الكر. الفر. وتغيير الخطة..؟ أليس الأمر غريبا هنا..؟

لماذا فقط على هذه الجغرافية؟ لماذا في حالتنا السورية فقط؟!

ابتسم كأنما أعجبه كلامي أو لم يعجبه وقال كأنه كان يفكر بإجابة تتماشى مع مباغتتي له :

-هذا اختصاصك كصحفي. أما أنا أعرف فقط أن أحمل السلاح وأنقض على عدوي.

ابحثْ عن الاجابات ستجدها بسهولة حتماً القضية لا تبدو معقدة كما يصورونها لنا.

إنها فقط ارادة دول عقّدتْ مسار الثورة وتعارض المصالح

بطبيعة الحال يفضي إلى خلاف وتعقيد للمسائل وحلولها.

أعجبني حسن تحلليله المنطقي المبسط للأمر فقلت:

-إذاً أنت تدرك اللعبة جيداً؛ فهل استمراركَ في صفوف المقاتلين هو نفس ثائرة أم هو مجد شخصي أم راتب تتقاضاه؟

رد مبتسماً:

-كل تلك أنفيها لكَ وبالأدلة وأنا أتحدثُ عن نفسي وعن آخرين أعرفهم؛ لكنكَ قد تجد من لا يفكر إلا بالمال أحياناً؛ والوطن أحياناً؛ والمجد الشخصي أحياناً. لكني أؤكد لك أنهم كثيرون أولئك الذين يضعون الوطن هدفاً.. صحيح أنهم صنعوا أشخاص لا همَّ لهم سوى أن يحافظوا على المنصب والامتياز والثروة.. في السوق السوداء هناك توصيات بألا يصلنا أي سلاح متطوراً؛ والدول ترفض تسليحنا.. حصارنا كبير والأسرار كلها عند القادة. أنا لست قائداً هنا؛ أنا أنام منذ سنين في أمكنة متعددة في هذه البقعة؛ وأحرس زملائي أحياناً؛ وأحيانا أشارك بالقتال.. أحياناً وليس دائماً؛ وكما ترى أنا مصاب بيدي اليسرى إصابة كادت تودي بي؛ هذه اليد صناعية قمت بتركيبها في تركيا على نفقة القيادة العامة...

أكبر ما نلته هذه اليد الصناعية.

هنا رفاق سلاحي.. وقد صادقتُ البندقية والقصف وصوت الرصاص؛ وصار الليل صديقي.. أُصبتُ في معركة حلب..

استعادوا حلب منا.. تدمرت المدينة..

جزء كبير منها تدمرَّ.. وجاء أمر الانسحاب تحت وطأة القصف وشدته حفاظاً على

ما تبقى..

قاطعته :

-هل ثمة أمر مدروس بالانسحاب في تلك اللحظات؟

ـ لا.. بالمنطق انسحابنا كان نتيجة قصف لا هوادة فيه والعالم كله شاهد ما جرى في حلب.. المعركة لم تكن متكافئة.. طائراتهم والطائرات الروسية أحرقت الأخضر واليابس لم يبقَ حجر على حجر.. وخرجنا مهزومين...

قلت له:

-لكن ثمة من تخلى عنكم»

قال بابتسامة تشوبها حسرة:

-ربما.. لكن ما أعرفه أننا خسرنا..

وسقطت المدينة...

اللجوء الثاني ..

إلى الثورة حتماً...

قلت في مقدمتي: أشتهي ألاّ يحاصرني أي جرح لأني أريد أن أجرب شهوة الكتابة في لحظة فرح..

مَنْ يكتب رواية عن الثورة ينزف بشدة دون أن يشعر يتألم يقلق يوشك أن يصاب بالجنون..

هل تذكرون تلك القصص وتفاصيلها كيف مرّتْ؟

هل تذكرون حمص وقصصها؟ هل تذكرون دير الزور ودرعا والرقة وإدلب حلب..؟

هل تذكرون غوطة دمشق وحكاياتها؟

كيف مرّت عليكم هذه التفاصيل بغضون سبع سنين؟

كيف يمر كلّ هذا الألم ونحن نكمل الحياة بشكل غير عادي أحياناً وكأن الذي أصابنا

أضغاث أحلام فقط؟

حمص ٢٠١٤ شهوة الحصار وانتظار الفرح..

أطبق الحصار شهوته حول روحي كأنه يلتقيني بلهفة جائعة.. أو كأني لا أصلح إلا له. عجباً أن أكتب عن كل هؤلاء كأني أكتب عن وطن نفيت عنه طائعاً. أكتب عن أم

خالد المرأة التي أعجبتني رجولتها.. آه رجولتها! نعم إنها تملك رجولة أكثر من ألف رجل. أكتب عنها فأجد نفسي أقابلها ليس صدفة بل بعد بحث وتنقيب..

كأنها خرجتْ من الحصار لتلتقي بي أو لتقول لي ما كان يجب أن تقوله للعالم في لحظة صمت.

بعد ٧٠٠ يوم من الحصار جاء انسحاب المعارضة من حمص القديمة في إطار اتفاق بين النظام والامم المتحدة وبإشراف الأمم المتحدة.

خروج مجموعة من الحافلات تقل المئات من المحاصرين والمقاتلين في مقابل إدخال المساعدات الإنسانية الى بلدتي نبل والزهراء اللتين يحاصرهم مقاتلو المعارضة في ريف حلب كما نص الاتفاق عن الافراج عن عشرين مقاتلاً ايرانياً.

كان عدد المحاصرين يصل الى قرابة ٢٢٠٠

سقوط عاصمة الثورة حمص بعد حصار خانق لا مثيل له في سجل عالم الإنسان.

عندما فتحت دفترها القديم وبدأت تتحدث عن مرارة السقوط شعرت أن تاريخاً مصغراً ينبغي لي كتابته. فهل الكارثة كانت فينا أكبر مما نسمع أو نشاهد أو نتصور؟

ومن المسؤول عن تصغير الفظائع؟

في ذلك الحي الذي أكل سكانه الورق اليابس والحشرات ومات أطفال ونساء ورجال نتيجة ذلك الحصار.. كانت هي لاتزال هناك..

وسقطتْ حمص..

تلك لحظة لاتنسى. قالتها بمرارة ألم شعرت بها تنحت جدران قلبي..

وكأنها لم تجد متسعا للبكاء فالكون ضاق.

تستطرد:

-أذكر كلَّ شيء. وهل ينسى الإنسان وطنه. بيته. حاراته. وشوارع قضى فيها أيام عمره. أذكر الزوايا المتعطشة حنيناً وأتعطش إليها كذلك. في تلك الزوايا تشاجر أولادي.. وفي تلك الزاوية سرحت شعر ابنتي رؤى..

وفي زاوية أخرى شربت قهوة الصباح وشاهدت التلفاز.. ندمتُ على شعور الانتصار. عندما يذهب أولادي الى المدرسة أنال قسطاً من الراحة من ضجيجهم..

لكني أجد ضجيجاً آخر لآخرين غيرهم بحكم مهتني في التعليم.

ليتهم بقوا وبقي ضجيجهم وشقاوتهم وكل ما فيهم. نادمة أني لم أسرق كثيراً من الوقت كي أتمعن في نوافذ الأحياء وأزقة المدينة القديمة ونوافذها المبعثرة على أكتافها.. ليتني بقيت هناك زمناً؛ فأنا أشعر أن كل الزمن الذي أمضيته بينهم قليل جداً وقصير. ليتني سرقت كثيراً من الزمن كي أبقى أطول وقت ممكن مع من أحب؛ لكنني لم أكن أعلم أن ساعة كهذه ستأتي؛ ومن كان يظن أنني سأكون مجرد ذكرى في فم الزمن العابر على وجعي؟ ومن كان يظن أن كل هذا الخراب سيحصل؟

اشتقتُ إلى مكاني؛ وكأني لم أشتق عمراً.. اشتقتُ لبيتي في حمص؛ لأحاديث الجارات وثرثرات الريح على الطرقات. تغيّرنا وتغيّر الزمن فماذا حدث؟

كانت الباصات تنتظرنا وظبتُ أشياء صغيرة. لم أستطع أن أحمل كل شيء؛ لكنني قررتُ أن أضرم النار فيما تبقى من محتويات بيتي؛ أشعلت النار بكل شيء، وحملت أشياء صغيرة لأولادي وزوجي..

وعبرتْ جياد الليل المسافة الحارقة بين قدرين أو قلبين من شظايا ومن رماد.

هل لازلتِ تتحدثين عن غرناطة وعن خيباتنا كما في أول رواية لك؟

أم بدأتِ ثورة مضادة حقاً؟

لماذا تأخرتِ الثورة كل هذا العمر؟

ولماذا حدثَ كل هذا الخراب؟

لا أحـد يختـار قـدره؛ ولـو كنـا نختـار أقدارنـا لكنـا نفضـلُ أن نكـون مخلوقـات تعيـش في أعـماق البحـار؛ عـلى الأقـل نكـون خـارج سـياق الـصراع البـشري بـين الأيدولوجيـات المريضـة؛ أو نكـون خلـف الشـمس حتـى لا نضطـر بـأن نعـزي أنفسـنا عندمـا نخسر بـأن بعـد الليـل نهـار.. نعـم لا أحـد يختـار قـدره؛ لكنـه قـد يختـار وطنـه؛ وبإرادتـه وحـده يقـرر أن يكـون حـراً فيـه أو لا يكـون. جميلـة هـي الحريـة عندمـا تكـون عـلى وطـن هـو لـك وأنـتَ

وحدك تقرر ما تريد..

صاحبي أخذ غفوته في استراحة المحارب.

هـي الحـرب أخـذتْ غفوتنـا وبعضـاً منـا أخـذتْ.. إن لم يكـن كلنـا الواقعـي والافـتراضي.

وهـذه الأرض التـي فيهـا مـن الحيـاة أكثـر مما فيهـا مـن الموت الـذي يتحايل بأسـماء مسـتعارة .

رجـلٍ يغفـو بجـوار بندقيـة.. هـي الحـرب ومـن غيرهـا يوقـظ رغبتـكَ في ألا تكـون إلا كـما تريـد...

خواطـر هـذا الليـل مريـرة فأنـا عـلى نقطـة التقـاء العـودة و»الـلا«. رقعـة جغرافيـة أنـا فيهـا.

أريدهـا أن تختـصر كل سـورية كـي أشـبع منهـا؛ أريـد في يـوم واحـد أن أمـلأ ناظـري قبـل أن أغـادر الحيـاة إلى حيـاة أخـرى.. أريـد أن أجمـع صـوراً أكثـر ومشـاهد الحيـاة..

الحياة فقط وذكريات ذهبت ولن تعود...

كلهم مروا أمامي..

أبي الذي لم أره..

أمي..

وكل أصدقائي..

وبقايا الزمن الرديء.

وصور الموت والدمار..

ونسـوة كثيرات وقعـن ضحايـا الـلا وفـاء وعـبر فـوق أجسـادهن الثـوار إلى مرافـئ الحريـة.

التقيتُهـا بعـد جهـد وبحـث طويـل.. وعرفـتُ أنهـا في إدلـب نازحـة هنـاك مـع ابنتيهـا؛ كان ذلـك قبـل أسـابيع مـن عبـوري إلى الجانـب التركـي..

عندمـا حدثـتُ أوس عبـدالله عنهـا تفاجـأتُ أنـه يعـرف قصتهـا جيـداً مـع العلـم أنـه لا يعرفهـا شـخصياً ولم يلتـقِ بهـا في حياتـه وجهـاً لوجـه.

التقيتهـا هنـاك بعـد عنـاء الرحلـة إليهـا وكانـت تلـك المـرأة الشـاهد قبـل الأخـير الـذي سـألتقيه في محطتـي. كان لابـد أن أسـمعها وأسـتمع اليهـا لأن لديهـا الكثـير لتقولـه؛ ليس لأنهـا مـن حمـص أو مـن بابـا عمـرو.. هـذه المـرأة التقـي بهـا قبـلي صحفيـون أجانـب عملـوا في حمـص؛ حمـص القديمـة؛ أحدهـم تمَّ قتلـه بعـد قصـف مقـر عملـه وهـي شـاهدة عـلى القتـل وتعرف

بصـمات القاتـل؛ لأنهـا بصـمات قاتـل أولادهـا وزوجهـا.

انتظرتهـا طويـلاً؛ ولمـا أقبلـتْ كانـت امـرأة رأيـت فيهـا امـرأة تخطّـت الخمسـين بقليـل لكـن الزمـن أخـذ كثـيرا مـن بهائهـا ربـما عمـر الوجـع أو زمنـه هـو الـذي نـال فيهـا؛ لكـن فيهـا وقـاراً أنثويـاً صـارخٌ لم ينكسر. صافحتْنـي بحنـان الأم وقـوة الرجـال وقالـت :

-إن كنـت تريـد أن تسـألني عـن أحـد قـد أجيبـك أو لا أجيبك؛ لكـن إن كنـتَ تريـد أجوبـة عنـي فلـن أجيب؛ اعـذرني..

قلتُ لها مازحاً:

-أنـتِ تضعـين أمامـي احتـمالات محـيرة؛ قـد تجيبـين أو قـد لاتجيبـين وربـما لـن تجيبـين أبـداً؛ أليسـتْ هـذه أحجيـة؟

ضحكـتْ ولم تقـل شـيئاً؛ فعرفـتُ مـن ضحكتهـا أنهـا سـتقول ماتعرفـه وماتريـد أن تبـوح بـه حقـاً.

كنـتُ أعـرف أنهـا قـد خرجـت قبـل أسـابيع قليلـة مـن المشـفى نتيجـة إصابتهـا بجلطـة قلبيـة لكنهـا لم تكـن خطـيرة للغايـة؛ كانـت لاتـزال تحتفـظ بصحـة لابـأس بهـا وتمـارس مهنتهـا القديمـة في التعليـم في هـذا المـأوى الـذي هـو عبـارة عـن مسـكن ومدرسـة في آن واحـد؛ يسـتطيع كل العاملـين بـه فقـط أن يسـكنوا بـه؛ إضافـة إلى طـلاب هـم عبـارة عـن أيتـام؛ فقـدوا الأم والأب أو أحدهمـا. يتقـاضى العاملـون هنـا رواتـب ليسـت منتظمـة دائـماً مـن الحكومـة المؤقتـة..

قلتُ لها:

-حمداً لله على سلامتك..

ردتْ بسخرية محببة:

- حمداً لله على سلامتك أنتَ أيضاً وسلامة وطنٍ لازال يصارع الموت ولم يمتْ.

أنا لامشكلة لدي مع الموت فالموت قدر كلُّ من يعيش على هذه البقعة الجغرافية حتى إشعار آخر، وهو قدر البشر جميعاً، أنا مشكلتي هي أني لا أريد أن أعيش نصف حياة، إنه شعور مؤلم أن تعيش نصف حياة، تعيش كأنك ميت وحيٌّ في آن واحد، فقدتُ كل شيء تقريباً ولازال عندي بقية من صحة أحاول أن أجابه بها الأيام التي لا أعرف أني سأكون حاضرة فيها أم لا؟

قاطعتها :

-بعد عمر طويل سيدتي.. أدام لك الله صحتك.

قالت:

-لم يبق في العمر أفضل مما كان.. ذهب الغوالي والعمر صار مجرد ساعة ننتظر من خلالها اليوم التالي الذي قد يأتي أو لا يأتي.. العمر الجميل ذهب وولّت أيام لن تعود، صارت ذكرى.. قضيتُ عمري في التعليم، وقفتُ على قدميَّ طويلاً ولساعات وأيام ولم أقل آه كما أقولها الآن، لكن يبدو أن آهات الزمان لاتنتهي..

تجرعـتُ ماهـو أعتـى منهـا بكثـير، تعلّمـتُ الفقـد والانتظـار ولوعـة المـوت والفـراق والمـرض والهجـرة والنـزوح.. قالـوا لي إيـاك أن تصـيري معلمـة. إن مهنـة التعليـم سـتسرق عمـرك.. لكـن مـاسرق عمـري هـو مـا أنـا فيـه الآن.. لكـن مـاسرق عمـري حقـاً هـو الانتظـار.

تعرفُـني كلُّ مـدارس حمـص، في ريفهـا ومدينتهـا، عـاصرتُ كل مديـرٍ وكل معلمـة ومعلـم وربيـتُ أجيـالاً، وتلاميـذي صـاروا كبـاراً وتخرجـوا في الجامعـات بـين معلمـين ومهندسـين وأطبـاء وموظفـين، ومنهـم مـن لم يتابـع تعليمـه، كنـت عندمـا ألتقيهـم لا أذكـر أسـماءهم، لكنهـم يتذكروننـي، فيقفـون لتحيتـي فأتظاهـر بـأني قـد تذكرتهـم لكـن تلـك الحيلـة البسـيطة لم تكـن تنطـلي عليهـم ..

فقـدتُ جلهـم ولم يعـد أحـد منهـم يسـتوقفني في تلـك الأزقـة الضيقـة أو يسـلّم عـلي ويسـألني عـن حـالي، لم أعـد أراهـم، لم أرهـمْ منـذ زمـن بعيـد..

اشـتقت لهـم، أريـد أن يعـود الزمـن إلى الـوراء فيسـألني أحدهم، كيـف أنـت معلمتي..

قالـت جملتهـا الأخيرة والتـي لم تكـن الأخـيرة لكـن عبراتهـا خنقـتْ الكلـمات وغصـتْ بالدمـوع ولم تتابـع، كنـتُ أراقـب بكاءهـا وأنـا أقـول كيـف يهتـز جبـل ويبكـي.

إنهـا صلبـة وقويـة لدرجـة أنهـا لا تسـتطيع إلا أن تبكـي، فهـي لم تعـد قـادرة عـلى التظاهـر بالقـوة أكثـر مـن ذلـك، إنهـا لا تحب أن تجامـل نفسـها.. إنهـا امـرأة لاتحـب أن تجامـل الفـرح..

إنها تعطي للحزن حقه أيضاً.

كأني سألتها هل تشتاقين لحمص.

وكأنها تجيب دموعاً تكاد تُغْرقُ الكون لو فتحتْ جرحها على مصراعيه.

كفكفتْ دموعها بسرعة، لكن هيهات أن تكفكف آهاتها أو تخفيها فالأوجاع مهما أخفيناها تظهر في بريق العين، في عروق الجسد، في تجاعيد الزمن على الوجوه، في الصوت المخنوق شوقاً وشجناً، في الكلمات التي تتسلق الفرح المستعار أو الأمل المستعار هروباً أو رغبة في النسيان، تقول وكأنها تقرأ أفكاري:

-كيف أنسى؟ في مثل حالتي يصبح النسيان مرضياً لا منطقياً.

قالتها ولم تقل سواها.

نهضتْ إلى غرفة مجاورة وبقيت وحدي والتفتتْ اليَّ قائلة:

- يمكن أن نتابع غداً، أنا لا أحب الأحاديث الصحفية لكني سأكون مكرهة على ذلك.

تلك التنظيرات لم تنفعنا شيئاً كلهم كذبوا علينا.

أنا أعرف عمن تتكلم، وهي تعرف تماماً من هم أولئك. يبدو لي أنها تسخر من القدر الذي جعل قضيتنا لعبة سياسية لا تخضع لقانون المنطق، بل لإحداثيات السياسية.

قلتُ لها:

-سـأنتظركِ غـداً لكـن ثمـة سـؤال يشـغلني أكثـر مـن سـواه وأريـد تطمينـات حـول مـدى

معرفتك للإجابة. أريد خيطاً بسيطاً يقربني إلى إجابته.

قالتْ بهدوء:

-تفضل ..!

فقلتُ:

-أنـتِ آخـر مـن التقـى بشـخص يهمنـي أن أجـده؛ قالـوا إنـه هنـا في إدلـب؛ وآخـرون قالـوا إنـه في تركيـا؛ أريـد فقـط بصيـص أمـل يوصلنـي اليه..قالـوا لي أنـه إلتقـى بـك هنـا وعالـج حـالات كثـيرة قبـل دخولـه إلى تركيـا.

ابتسمتْ ابتسامة جافة ودودة :

-أنـا أعـرف عمـن تتحـدث؛ قـد لا أملـك أيـة خيـوط تقـودك للشـخص لكنـي قـد أحدثـك كيـف وصـل إلى هنـا قبـل هروبـه مـن قبضـة النظـام.. غـداً نتحـدث.

كلام مقتضب قالته بوقار بريء ثم انصرفتْ.

وبعد لحظات عادت اليَّ تحمل بعض الشراشف..

-هـذه لـك؛ الجـو بـارد؛ تدفـأْ جيـداً ولاتفكـر كثـيراً بالأسـئلة؛ دعهـا تـأتي في حينهـا.

قلت لها:

-الثورة لم تأتِ في حينها لقد تأخرتْ أليس كذلك..؟! كان يجب أن تكون مثلاً بعد أحداث حماة عام ١٩٨٢؟

قالت:

-لا شيء يتأخر إلا بقدر، كل شيء يأتي في حينه ولكن طريقة التسويات تختلف، لذلك نشعر أن بعض الأشياء تتأخر عندما نفكر بالخسائر فقط..

سألتها:

-هل تقصدين أن خسائر الثورة أكثر من حساباتنا ؟

قالت مبتسمة:

-صدقني أنا امرأة عادية لا تحاورني خلف الجدران، وكما قلت لكَ دع الأسئلة حتى الغد، أنتم الصحفيون لديكم فضول قاتل..

تصبح على خير.

قالتْ عبارتها الأخيرة وانصرفت للمرة الأخيرة.

شعرتُ بقوتها تسربت إليّ. فيها قوة بألف رجل وفيها أنوثة لا تقليدية تتخفى وراء وقار جميل.. كأنها تحاول أن تهرب من الأنوثة التقليدية لأنها سئمت صراع المضادات. شعرتُ أنها تقرأ أفكاري بدهاء أنثوي لافت، فذلك الذكاء فطري شذبتْهُ

الأيام بعيداً عن التلف والانتهاء..

ليـل طويـل مـرَّ عـلي شـعرت بثقلـه عـلى عاتقـي لأني تقلبـت كالمنتظـر عـلى الجمـر. ربـما غفـوت لسـاعات قليلـة، وربـما دقائق تناوبـت عـليَّ بـين الوعـي واللاوعـي..

ما أطوله من ليل لم أشعر كيف بدأ وكيف انتهى..!

أحـدٌ طـرق البـاب، كأنـه طـرق كسـلي الـذي شـعرتُ بـه وأنـا أحـاول النهـوض بجسـد متثاقـل..

كانت هي...

دخلـتْ بعـد أن اسـتأذنتني بالدخـول، ثـم اتجهـتْ إلى النافـذة وفتحتهـا.

-صبـاح الخـير...ألا تعلـم أني لا أحـب الكسـالى..يبدو أنَّ أرقـاً أصابـكَ.

قلتُ:

-الليل كان طويلاً ..و بصراحة لم أنم كثيراً.

قالت مازحة:

-أعاشق أم منتظر؟!

قلت:

-مـا الفـرق؟ العشـاق ينتظـرون أيضـاً، والذيـن ينتظـرون ربـما يكونـون عشـاقاً أيضـاً.

قالت:

-الفطـور جاهـز.. وبعدهـا سـتقوم بجولـة في المدرسـة بـين التلاميـذ وسـأكون معـك

قلتُ:

-حسناً سأغسل وجهي أولاً..

قالت:

-هيا اتبعني سأدلك على الحمامات.

غـادرتْ.. ثـم تبعتهـا حامـلاً بيـدي منشـفة تبـدو بعمـر الثـورة..

نظرت اليَّ قائلةً :

-يبدو أنك نمت بملابسك..

قلت ببعض الخجل:

-نعم يبدو أنني في بادئ الأمر غفوت دون أن أشعر..

ثم عقبتُ بسؤال:

متى نتحدث؟ أريد أن أنهي المهمة هنا بسرعة.

قالت :

-ماخطتك؟

-أريـد أن نتحـدث عـن وضـع الأطفـال في هـذه المخيـمات

والملاجــئ..

عــن هــذه المــدارس وأماكــن ســكنهم وأريــد عينــات منهــم كــي أحاورهــم.. هــذا جــزء مــن الفيلــم الوثائقــي الــذي أقــوم بإعــداده.. ثــم أتابــع حديثــي معــكِ..

لم ترد بأية كلمة.. ابتسمت ثم أكملت طريقها.

كان اليوم رتيباً وأسئلتي رتيبة وأشعر أنها مملة لطفل ..

ترى ماذا سأسأل طفلاً يتيماً ؟

هل أسأله عن حياته الطبيعية التي حرم منها أصلاً؟

عن كرة القدم وفريقه المفضل؟

عن أصدقائه؟

عن برامجه التي لم يشاهدها في قنوات الأطفال؟

عن العيد وثيابه والمراجيح والألعاب والهدايا..

أشعر بالخجل منهم..

أشعر أني أقل منهم فأنا صغير جداً أمام جراحهم.

ارتبكتُ لحظة دخولي غرفة المشرف على الميتم..

ارتباك أصابني..

شعرتِ السيدة بي..

سألتني:

هل ثمة مشكلة؟

سؤال قد تعرف أجابته، ربما أرادت أن تتأكد، لكن فطرتها الأنثوية وإحساسها العالي سبقها، ففهمت.

قلت لها وأنا أشرب قهوتي في غرفة المشرف ويدعى السيد عبد الهادي تميم:

-أريد أن أسرّكِ بشيء.

أجابت بابتسامة حانية :

-تفضَّلْ، قلْ!

أجبت:

-أريد فقط أن تعطيني تقريراً شاملاً عن الوضع هنا كي أوفر على نفسي مشقة السؤال.

بصراحة أشعر بحرج كبير من أسئلتي، لا أريد أن أفتح جراح الأطفال، أريد أن يعيشوا العفوية أو الكذبة البيضاء كما هي. هل إلى ذلك سبيل؟

صمتتْ قليلاً، وبعد لحظة تأملت بالأوراق الملقاة أمامها -وكانت ضمنها خطة عملي-

قالت:

-أنت تنتج فيلماً وثائقياً، ومادام اسمه وثائقي يجب أن تلتقي بعينة منهم، على الأقل طفل أو طفلان لا مشكلة في

ذلك سأنتقي لك طفلان مشاكسان..

مشاكسان على الجراح. وستطرح أنت أسئلتك بطريقة أخرى بطريقة غير مباشرة مثلاً وتغير فيما بعد..

قاطعتها:

-حسناً فكرة جميلة سأغيّرُ الصيغة في عملية المونتاج الصيغة فقط وسأترك الأجوبة كما هي.

صمت يسود، مكان يفيض صخباً صخب طفولة هاربة من الطبيعي إلى اللاطبيعي.

مرّتْ ساعتان كأنهما دهر. كنتُ أنتظر في المكان.. في غرفة المدير.

المدير هو مدرس سابق لمادة اللغة الانكليزية في ريف إدلب وتم اختياره مديراً لهذا المأوى التابع للمخيم.. مدرسة ابتدائية وأخرى إعدادية.

غرف مجهزة بتجهيزات بسيطة استوعبت عدداً من أطفال الحرب لا يتجاوز عددهم الألف. سحبوهم من ذل المخيمات الى هنا في محاولة متأخرة.

أغلب الأطفال فقدوا ذويهم وتسعون بالمئة منهم أيتام. الوسائل بدائية بعض الشي لكنها مقبولة..

حماس الأطفال كان كبيراً صوت ضحكاتهم بحد ذاته وطن جميل هم هنا ينعمون ببعض الأمان في مناطق ليست آمنة دائماً فطيران النظام يحلق عادة على قرب منها

مع خرق دائم لشيء يسمونه وقف إطلاق النار أو هدنة إنسانية..

هنا في الشمال السوري حيث كانوا يتداولون منذ سنين مشروع إنشاء منطقة آمنة[1] أمر لم يكن إلا مراوغة سياسية طويلة لتخدير إلحاح الزمن والمنطق من السياسيين.

فلا منطقة آمنة هنا..هنا وطن مستعار مؤقت صغير جداً..

الطيران الروسي وطيران النظام السوري لا ينفك من التحليق هنا..

يقصف مناطق عديدة في ريف إدلب كما يفعل مع كلّ المناطق التي خرجتْ عن سيطرته.

هنا حيث يتجمع أكبر تجمع بشري للسوريين المعارضين والنازحين من مناطقهم في هذه البقعة الجغرافية التي تقترب جداً من تركيا..

هنا تتحدث أشجار الزيتون عن عمق التاريخ والجغرافية ووله الإنسان بالطبيعة..

على هذه الأرض حكايات نحن فقط نملك مفاتيحها وأقفالها..

هذه الأرض التي فيها من الحياة اكثر مما فيها من الموت..

حياة تلمحها في طلعة الصبح وضحكة الأطفال التي تعالت على الجراح.

تلمسـها في كـف الليـل إذا بسـط رغبتـه عـلى أسـطح البيـوت المتأهبـة للمـوت في كل لحظـة، والمتأملـة في الحيـاة في كل لحظـة..

وفي كل لحظة ثمة من يقرع الصمت هنا ..

هنـا للحيـاة لـون مـن سـنين مضـت.. سـنين مـن عمـر ثـورة لم تتبـدد

ولم تنتهِ..

عطفاً...

رسـائل تهنئـة كثـيرة وردتنـي عـلى بريـدي الخـاص «الايميـل» أو هاتفـي الجـوال مـن أصدقـاء سـوريين لازالـوا في سـورية وآخـرون في الشـتات، تفرقنـا قبـل سـنين مـن هـذا التاريـخ.. رسـائل تهنئـة أعـرف أصحابهـا رغـم المسـافات.. كلهـا لأجـل فيلمـي الوثائقـي عـن الثـورة السـورية..

الفيلـم الـذي سـيبدأ عرضـه الأول في أحـد دور السـينما الفرنسـية، ومـن بعدهـا سـيكون في برلـين.

رسالتكِ لفتتْ انتباهي، لكن كيف اصطدم بكِ الخبر؟

رسـالتك ورسـائلهم.. وسـباق المسـافات الطويلـة للوصـول الى منطقـة إعـلان هدنـة أو نـصر لطـرف مـا..

لكـنَّ الزمـن العابـر عـلى جيـاد الآتي يحكـي لي قصـة امـرأة أخـرى..

كانتْ جزءاً..

جزءاً من فيلم..

جزءاً من وطن..

فأنـا بالفعـل كنـتُ جـزءاً مـن فيلـم؛ فأنـا لسـتُ وهمـاً لأني اقتربـتُ مـن الحقيقـة كثـيراً؛ وكل القصـص كأنهـا أنـا؛ لكـن في زمـن آخـر يربطنـي بـه نظـام السـاعة.

هـل أسـابق ذاكـرة التاريـخ فأتذكـر مـا سـيحصل؛ فأنـا لازلـتُ في جغرافيـة الجـرح السـوري

ولم أغادرها..

أسـألُ تلـك المـرأة عـن خيباتهـا فألمـح شـعاع التحـدي في عينيهـا..

لقد هزمتْني لأنّي لم أجد الخيبة فيها.. لقد أخطأتْ توقعاتي.

كأنَّ كل هـذه الأرض لهـا..وكأني خيـط شـالها الـذي لفّتـه الريـح ببـطء عـلى كبريائـي..

عطرهـا يغرينـي لكـي أكتشـف نـوع رجولتـي؛ وإلى أي درجـة منهـا أنتمـي؟

المرأة الأخرى أنتِ..

تتحـدث في معتقـدات البـشر بثقـة عالية..السياسـة فطريـة لديهـا فهـي لاتؤمـن بالمنطـق السـياسي ومعادلاتـه.

على خط التماس مع الطرف النقيض، ألتمس عشق الأرض، شمال محرر في أجزائه، بعضٌ من حياة طبيعية. وعلى الحدود مخيمات من قماش مستعار متهالك كالضمير الجمعي العالمي المقيت..

سألتها ـ أم خالد طبعاً ـ :

-من يموّل الدار والمدارس وهذا المشفى على هذه المساحة الجغرافية ؟

ـ كُثُر.. هناك من نعرفهم وهناك مجهولون.

ـ هل تذكرين لي اسماً واحداً؟

أجابت:

-إن كان ذلك من ضمن عملك سأجيبك، أما إن كان مجرد فضول فلن أملك إجابة.

ـ ليس مجرد فضول سيدتي، بل رغبة في معرفة..

ـ أحدهم شخص يدعى ماجد فخر الدين، يقولون إنه رجل أعمال مقيم في دولة أوروبية..

دخل من تركيا عدة مرات أعتقد أنه التقى بنا للحظات.. يبدو عليه وداعة وطيبة لم تتلوث بحب الشهرة والظهوروالرياء..أظن أيضاً أنه صادق إلى حد كبير في فهم المعاناة ويده لله.. إنه قطعاً لايبحث عن مجد ذاتي. هذا كان تصوري الشخصي حوله.

ـ مشكلة الثورة بعض المتسلقين فقط الذين أرادوا بناء مجد شخصي على حساب المعاناة.. بالنسبة لهذا الرجل فقد سمعت به كثيراً وأنا أتمنى أن ألتقيه..

لقد ساهم هذا الرجل في وصولي إلى هنا! ليت الجميع يدهم لله والثورة مثله..

ردتْ مازحة:

-كأنك تريد أن تلتقي كل سكان الأرض.. أنت بحاجة لمسلسل وليس لفيلم.

رددتُ:

-لا أبداً بعضهم فقط..

التقيتُ بالفعل بعض الأطفال.

حواري معهم لم يكن مباشراً.

لم آخذ منهم شيئاً عن طريق الاستجواب..

شاركتهم لعبة كرة القدم التي يدمنونها..

وآخرون دخلتُ معهم غرفة الصف..

عرّفتني السيدة لهم على أني مشرف يريد أن يقف على حاجاتهم فالطفل لن يتحدث بعفوية تامة عندما يشعر أن ثمة من جاء كي يستجوبه..

فيهم عناد يشبه السنديان العتيق.

لكن نفوسهم العنيدة على الحق أعجبتني..

يدركـون كل الحقائـق ويعرفونهـا أكثـر مـن مثقفـين تلوثـت ألسـنتهم وضمائرهـم بالدفـاع عـن الظـالم..

لمستُ اطفـالاً لايرضـون بأنصـاف الحلـول، ينظـرون للأمـور والخيـارات بعفويـة تامـة ومثاليـة كاملـة.. يريـدون أن يكتبـوا عـلى الجـدران ويرسـموا..

سيكتبون على الجدران كأسلافهم..

ولايريدون حلولاً مؤقتة..

بعـد مهمـة اسـتمرت سـاعات بـين التصويـر واللعـب والحديـث، عـدتُ الى غرفـة السـيدة ردينـة الحسـن أم خالـد.

سألتْني :

-كيف وجدتهم؟ هل وجدت ضالتك فيهم؟

أجبتها :

-وجدتُ جبالاً..

وقبل أن أتابع قاطعتني قائلةً:

-هـل تقـول ذلـك بـكل قناعـة أم هـي مجـرد عبـارة روائيـة لتحفيـز القـارئ؟

قلت:

-هـذا ليـس جوابـاً مثاليـاً أو عبـارة روائيـة حالمـة. إنها حقيقـة لمستها. ربـما لأن نفوسـهم النقيـة التلقائيـة لا تفكـر إلا بـما هـو نقـي ولم تجـرب أن تتعامـل مـع الأشـياء بتقلباتهـا المحتملـة. ذكـروني بتفاصيـل الثـورات..

ردت عليَّ مستغربة:

-الثورة. الثورة تقصد؟

أجبت:

-الثـورات والثـورة.. هـؤلاء الأطفـال كل واحـد منهـم ثـورة لكـن..

ـ لكن ماذا؟

ـ أعتقـد أن العقـدَ النفسـية سـتنضج فيهـم وتكـبر وتصبـح عبئـاً في المسـتقبل..

قالت:

-كلُّ الشـعوب التـي عاشـت مسـاوئ الحـروب لم تشـف مـن جراحهـا.. جـراح الحـرب لاتندمـل. والزمـن ليـس كفيـلاً بـذاك عـلى أكمـل وجـه.. لكنهـم بالفعـل جبـال ربـما لأنهـم كـبروا قبـل أوانهـم.. هـل رأيـتَ؟ أقصـد هـل انتبهـت الى رؤوسـهم؟ هنـاك أطفـال يعلـو بعـض الشـيب رؤوسـهم.. الكثيرون لاحظـوا ذلـك ومنهـم أطبـاء صعقـوا بهـذه الظاهـرة.

ـ نعـم لاحظـتُ ذلـك.. في البدايـة ظننتـه عاديـاً وأنـه في طفـل واحـد أو اثنـين.. لكـن شـاهدت أكثـر مـن حالـة.

لم ينتهِ وجعي بلقائهم بل ابتدأ..

توقّفتُ ملياً عند العبارات التي نضجتْ قبل زمن مضى..

نحن سنعود..

سنبني..

سندرس..

سنلعب..

سنضحك..

ليستْ مجردة سين للتسويف أو للتوعد عند الضجر الفارغ المملاً بل كأنه وعد مليء بالمطراً حافل بالحياة.

لايرضون بحل مؤقت عابر..

يريدون الشيء أو اللاشيء.

يتوعدون بحب لا بحقد .

تذكرت قول الرئيس الامريكي روزفلت « أولئك الذين يتخلون عن حرية أساسية لشراء السلامة المؤقتةاً لايستحقون الحرية ولا السلامة «

وهي مرة أخرى..امرأة ليست للنسيان

لماذا تحشرون النساء بكل شيء تكتبونه؟

عندما تكتبون عن الثورة تتحدثون عن النساء.

عندما تكتبون الحرية تتحدثون عن النساء.

عندما تمدحون الورد تعرجون بطريقكم إلى المرأة.

حتى عندما تكتبون قصيدة سياسية تدسون المرأة فيها..

وكذا القصيدة الوطنية، بل حتى قصيدة الهجاء.

إذا أردتم أن تتغزلوا بالمرأه ها هي أمامكم، تغزلوا بها كما تشاؤون، لكن لماذا تتلصصون بين السياسية والحرية؟ حتى محمود درويش عندما يكتب قصيدة عن فلسطين يزج المرأة هناك، وحتى نزار قباني في قصائده السياسية والوطنية يمدح المرأة. ثم يقول أنا لا أمدح إلا النساء. ألهذه الدرجة المرأة مهمة أم أن غريزة الرجولة لديكم هي التي تحرك مفاتيح الكلمات.؟

أضحكني كلامها بشدة وهذه أول مرة منذ زمن طويل أضحك من كل قلبي، عادت لتكمل كلماتها القوية الثائرة بحق معشر الرجال لتقطع نوبة الضحك التي أصابتني،

فمزاحها الذي اندمج بنبرة حادة يجعلك تضحك وتقف أمامها معجباً أيضاً:

-نسيت شيئاً آخر؛ فالشعراء قديماً إذا أراد أحدهم أن يمدح أو يهجو يبدأ بقصيدة غزلية وإن لم يكن عاشقاً؛ على سبيل المثال وخير مثال على ذلك أشعر بيت في الغزل وهو

للشاعر الأموي جرير:

إنَّ العيون التي في طرفها حورٌ   قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعْنَ ذا اللبِّ حتى لاحراك بهِ   وهنّ أضعف خلق الله أركانا

- أنتم معشر الرجال تطربكم الأنوثة إلى درجة الادعاء فما سر كم ؟

أجبتها بسؤال على سؤالها:

-بل ما سرّكن أنتن؟

ابتسمتْ ولم تجبْ؛ وأكملتْ تنفض رماد سيجارتها.. وبعد برهة قالت:

-بعد الخمسين لاتسألني..

المرأة التي تمارس بطولة رواية أو فيلم هل من الضروري أن تكون استثنائية جداً.

وهذا ماحصل معي ويحصل..

هذا ماحصل.. وكانت الثورة هي..

كنتُ أسأل نفسي إلى أنْ تعثرت صدفة بالإجابات الجاهزة؛ فأنا قابلت من هن استثنائيات في زمن رديء جداً..

قالت لي: من جميل ما قالوه «علموكَ أن تحذر الفرح لأن خيانته قاسية» وقاسية جداً..

خيانة الفرح قاسية جداً..

أنت في حقل وجع، لستَ في حقل من زهر التوليب فمهلاً..

لا أصدق كيف مرَّ كل هذا الألم من مسامات روحي دون أن تنزف كل ذاك الألم؟!

ما الذي تغيّر منذ عهد «بوعزيزي» ؟

لاشيء... بالكاد لاشيء..

سألتها:

-سمعت من بعض المقاتلين أنك حملتِ بندقية وقاتلتِ معهم في الجبهات وقد أصبتِ،

فهل ذاك حقيقة أم انها إشاعات..؟

قالت:

ـ الذين أخبروكَ لم يعرفوني جيداً... أنا حملتُها زمناً وبصراحة مللتُ بعض الشيء، شعرت أنها ثقيلة عليَّ، فالنساء أقل صبراً على حمل السلاح، قد ينظرن للأمر بأنه من مهام الرجل في معظم الأحيان، لكن صدقني لقد نسيت أني امرأة منذ بدأت الثورة. كانوا يقولون لي هذه الأشياء خلقت لتكون بيد الرجل فمالكِ والبندقية؟!

لكنهــم لم يســألوني مامقــدار الألم الــذي يجعــل امــرأة مثــلي تحمــل بندقيــة.

لا أحد يسألكَ عن الأسباب، الكل يسأل عن النتائج..

الــذي فعلتــه أني كــسرتُ العــادة لبرهــة مــن الوقــت، وبعــد إصابتــي ألقيتهــا وعــدت الى الأنوثــة التقليديــة..

وهنا التقط الوطن أنفاسه..وتقدّم الرحيل الى الهاوية..

سقطتْ عتبات الانتظار على الموانئ واقتربنا..

للوطــن مــن خــارج الحــدود شــهقة الجيــاد بعــد مضــمار طويــل، وتأهــب مشــتاق إلى الأبجديــة الأولى..

للوطــن خــارج الحــدود صــوت النرجــس في ظــل غيمــة زرقــاء يتــورد الأنــين قبــل الانهــمار..

فتحتُ الأبواب لكن الريحَ دخلتْ كلَّها..

طرقتْ باب الوطن فلمست ذراعي أنثى..

ودعت الوطن ولست أدري أأعود بعد خيبة..

لافتــة عريضــة مُســِحَتْ، وكُتِــبَ خــط آخــر أبيــض عريــض عــلى زرقتهــا بعــد أن حــررّ الثــوار معــبر بــاب الهــوى الحــدودي مــع تركيــا...

الوطن يرحب بنا..

هو الوطن الجديد..

الوطن الجديد حتماً..

عما قريب..

يرحبُ بنا حزناً.. ألماً.. فرحاً.. أملا..

تجار الدم تفاقموا وتدفق الدم من مآقي هذا الوطن غزيراً مثل طوابير الأمنيات على عتبات الانتظار..

عدت إلى تلك الأنثى التي لامست ذراعي وكأنها تطلب مني أن أبقى هنا..

فرصاصة لاتقتل جسداً.. لكنّي كنتُ أبتعد مثل غيمةٍ دحرجَتْها الريحُ..

ألم تسمعي نداء الطرقات؟

الليل كان يطول بي.. كنتُ أبتعدُ رويداً رويداً وأنتهي فيما لاأعرفه..

ليل آخر على الحدود..

القلقُ يساورني، يتسللُ إلى أقصى مناطقي كما لو أنه قسمني إلى رجلين..

نصفي وطن.. ونصفي الآخر يمارس القلق..

من نافذة الغرفة لمحتُ ضوءاً خافتاً، لعل أحداً لم ينم، مع الساعة تشير الى الواحدة بعد منتصف الليل.

خرجتُ من الغرفة.. كان هناك باحة أمامية مسورة ببعض الأزهار والورد وأشجار الصنوبر التي لم ترتفع كثيراً.. بساطة جميلة تمتزج برومانسية فائقة مع المكان والزمان وتأخذ من الليل بعض تجرده..

هناك لمحتُها تجلس تدخنُ سيجارة، وأمامها طاولة صغيرة خالية إلا من كأس شاي..

هي لمحتني أيضاً.. ربما لمحتْ خيالي أو أحست بهسيس الجسد الليلي.

بادرتني بالكلام بعد أن التفتَ بعضها اليَّ:

-تفضلْ لعلك مثلي من هواة السهر.

ـ نعم أحبُّ السهر إن كان لدي ما أقوم به، أو إذا انتابني قلق..

ـ إذن أنتَ ساهر دائم.. سأحضّر لكَ كوب شاي، انتظرني. سأجلب كرسياً أيضاً.

سألتها:

-هل نفقة إقامتكِ في هذا المأوى مدفوعة مسبقاً ؟

قالت:

-تقريباً الأمرُ كذلك؛ أنا أحصل على راتب شهري، التعليم يسدُّ نفقتي الخاصة ونفقة ابنتي الاثنتين، أما إيجار المنزل فهو مدفوع مسبقاً للجميع، أقصد العاملين به، بصراحة تكاليف استئجار بيت باهضة الثمن..

ـ هل لديكِ معلومات من هي الجهة المسؤولة عن التمويل؟

ـ أغلبُ الظنّ أنها الحكومة المؤقتة التي تدعمها تركيا مادياً، لكن بالضبط لا أعرف، نحن لدينا ألف حكومة وألف جهة ومؤسسة، لكن الأكيد أن هناك جهات أممية أخرى كالأمم المتحدة مثلاً. إضافة إلى ذلك الرجل الذي حدثتك عنه.. اشربْ الشاي قبل أن يبرد، هل ترغب بسيكارة؟

ثم استطردتْ:

ـ أنا كنتُ قبل هذا الوقت أبغض كل امرأة تدخن بل كل رجل يدخن..

لست مدمنة..هي عادة سيئة سأوقفها..

سأحاول..

قلت لها:

-المرأة عندما تدخنُ إما متمردة جداً أو تريد أن تكون متمردة أو وصل بها القهر درجة أفقدها إرادة القرار أمام لفافة التبغ.

ـ أنا لستُ ضمن محتوى ماذكرتَ، صحيح أنني بلغتُ من القهر ما بلغت، لكن لازال شيء من إرادتي حاضر..

صمتنا..وصمت الليل أقوى..

قطعتُ الصمت..

-حضَّرتُ تقريراً كاملاً عن مخيمات اللاجئين في تركيا، كنت البارحة في مخيم باب السلامة، مآسي لا يتصورها عقل..

في كلّ خيمة قصة درامية بل تراجيديا تصلح أن تكون ملحمة أقرب للأسطورة.

كل فرد.. كل إنسان سوري في تلك المخيمات له قصة عن الخوف وقصة عن القهر وقصة عن الفقر وقصة عن القمع وقصة عن الذل وأخرى عن الوجع، الوجع الذي لاينتهي، وأخرى عن الحزن والصبر والانتظار، فإذا اجتمعتْ تلك القصص في جسد إنسان واحد، فلا شك أنه الإنسان السوري..

التقيتُ هناك أطفالاً وأمهات.. كانوا جميعاً تحت خيمة بلاستيكية من «النايلون» يتسرب منها المطر..

قالتْ إحدى النسوة «الوحل أمام هذه الخيمة لايتزحزح.. إنه لاينتهي «

لا دفء هناك سوى دفء الحنين إلى الوطن..

غابتْ كل منظمات الإغاثة الدولية، وحضرَّت عدسات الكاميرات التابعة لبعض المحطات الإخبارية، جعلوا من ألمنا سبقاً وحدثاً صحفياً، وتهافتوا إلى المكان، إلى الخيام ليصنعوا قصة نجاح شخصية من قصص كثيرة مركبة، لا أحد يساعد هناك إلا بعض المتطوعين والجناح المنشق عن الهلال الأحمر السوري.

هي مرة أخرى...

يأتيني صوتُها صباحاً كأنه صوت أمي..

كأنه أنين الوطن المتعب بكل وقاره.. صوتٌ يختصر أصوات نساءٍ أخذ الوجع والانتظار منهن الكثير..

توقظني لأشرب قهوتي معها.. وتفتح الحديث كعادتها البسيطة بفطرة لا تشوبها سوى مسحة حزن على وجه طافت عليه سنون العمر :

- أنا امرأة عادية مالي والسياسة السياسة كلها كذب ونفاق ودجل وضحك على الشعوب..

قلتُ لها بضحكة:

- أنا لستُ سياسياً ولا أتناول سياسة شعب آخر، أنا أتحدث عن قضيتي، عن بلدي، وبلدي مشكلته سياسية ولا نستطيع إلا أن نربط السياسة بكل ما يحصل من لقمة الخبز حتى الاجتماع في محفل دولي..

تنهدت بعمق..بعمق الجرح.. وقالت كما لو أنها صمتت دهراً:

- السياسة قتلتْ أولادي.. قتلتْ روحي، أنا أمامك امرأة عاجزة أن أشعر. صدقْني فقدتُ حتى القدرة على الحزن، أنا أتحرك جسداً فقط .

انظر جيداً إلى جدران هذا البيت.. هو ميتم أو ملجأ، لا أعرف له اسما محدداً.

أنـا أيضـا يتيمـة هنـا، يتيمـة منـذ زمـن، مـا أبشـع أن تكـون في مـكان ليـس بيتـك. أنـا اعتـدت التفاصيـل الصغـيرة حيـث تقتـضي البسـاطة..حيث تكـون طبيعيـاً قبـل هـذا التوقيـت بالـذات. اعتـدت عـلى أشـيائي، اعتـدت أن أيقـظ أبنائـي صباحـاً وأغضـب إن تأخـر أحدهـم. كنـت حازمـة معهـم وندمـتْ ليتنـي كنـت لا مباليـة، فالفقـدان صعـب.. صعـب.

لا أسـتطيع أن أعتـاد عـلى حيـاة أخـرى ونمـط جديـد مـن الانتظـار الـذي لا يفـضي إلا إلى مزيـد مـن الانتظار..أنـا أحـاول التطبـع عـلى الغيـاب.. صعـب هـو الغيـاب..

سـكتتْ.. كأنـما سـكتَ جبـل فتمخـض منـه بـركان.. سـكتتْ كأنـما سـكت إعصـار وتـرك خرابـه عـلى روحي.هـذه المـرأة مـا حكايتهـا؟! كلـما تحدثـت كأنـما أيقظـت أبجديـات وجـدت للحـزن فقـط.

كلماتهـا حطمتنـي وأعادتنـي إلى بدائيتـي كرجـل يجـب أن تسـتثيره دمـوع امـرأة.

سـكتت كل جوارحـي كـما لـو أن الزمـن توقـف أو مـر ثقيـلاً عـلى غـير عادتـه .

ابتسـمتْ ونظـرتْ إليَّ. ابتسـامتها مثـل جيـش انتـصر، وكان عـدد قتـلاه أكثـر ممـن بقـوا

وقالت:

ـ سأعتاد.. ربما سأحاول أن أعتاد.

لم تقلْ سواها ونهضت وتركت لي صينية الإفطار البسيط المتآمر على الرفاهية.

ـ تناول فطورك يا بني .

كلمة بني لم أسمعها بهذه الطريقة منذ زمن..

غادرت المرأة التي قطعت لأجلها مسافات على الحدود التركية.. تقيم حيث نقطة عبوري الى وطن آخر اختار قدراً آخر. وأنا سأتابع طريقي خارج السياق المكاني للحدث.

وقلتُ لها في فاصل روائي:

أشمُّ فيك رائحة الوطن وكبرياءه وسخاء غيمه وليله، وابتهالات عشقه العتيق.

كل لوازم الذكرى بقربك، حتى العطر.

كأنكِ الثورة في أول يومها، وكأني لا أجيد التحدث إلا عن النساء، فأنا خجول أمام النساء في الواقع وعلى الورق. أنا حالة مختلفة جداً أستطيع أن أغازل أي امرأة دون خجل او تردد لكن على الورق.. على الورق فقط.

صوتها يأتيني فجأة:

ـ ماالذي تكتبه؟

تسأل. تتنهد، ثم تجلس .

ـ لا شيء..

ـ لاشيء ! كيف ذلك؟ أنا ألاحظُ حركات قلمكَ.. قلمك لم يهدأ.

أجبتها إجابة من لايرواغ كثيراً:

ـ أغازلُ امرأة..

ضحكتْ وقالت:

ـ وهل لازال العشاق يتبادلون رسائل الورق؟ اعتقدتُ أن هذه العادة قد اندثرت.

ـ هي لاتملك كومبيوتر ولا هاتف جوال فأنا مضطر أن أكتب لها وعنها..

شعرتْ بكلامي أنه نوع من المزاح؛ لكنه الحقيقة التي لاتقبل مزاح؛ تابعتُ قائلاً:

-إنها امرأة تعيش في روايتي التي أتابع كتابتها..امرأة ولا كل النساء..

قالت بضحكة عفوية:

-أية امرأة هي إذاً؟ لعلها استثنائية جداً.. على كل حال أنت تستحق..

قلت لها:

-أنا أعشق النساء الاستثنائيات..لاأقبل بامرأة عادية.. أعتقد من الطبيعي أن يكون الرجل عادياً؛ يعني ليس مطالباً أن يكون خارقاً كي يكون مرغوباً جداً؛ لكن عندما تكون

المـرأة اسـتثنائية تصبـح أكثـر اغراء..وأعظـم اغـراء لـدى المـرأة هـو عقلهـا، جبروتهـا، قوتهـا، مـع طابـع النعومـة الكلاسـيكي ووقـار الأنوثـة.

قالت بلهجة حازمة لكنها هادئة:

كلام عظيـم.. هـي المـرة الأولى التـي أسـمع فيهـا رجـل يغويـه عقـل امـرأة..

قلت ماليس مزاحاً:

-كل الرجـال يغويهـم عقـل المـرأة لكنهـم يخافـون المـرأة القويـة العاقلـة، فيهربـون منهـا أحيانـاً إلى امـرأة عاديـة لكـن ذلـك لايعنـي أنهـا لاتعجبهـم ويرغبـون في تملكهـا..

لذلـك عقلهـا يغوينـي جـداً خاصـة إن كان فيهـا مسـحة مـن جمـال جسـدي أو روحـي.

شـعرتُ أني أمـام سـيدة أفتـح لهـا قلبـي كـما فتحـت لي هـي قلبهـا..

تشبه أمي لكنها ليست هي..عدلت جلستها وقالت:

-لعلـك إذاً تكتـب عنهـا؟ فأنـا لاحظـت أنـك تكتـب منـذ جئـت.. هـل حقـاً أنـت تكتـب روايـة أم تكتـب في الموضـوع نفسـه الـذي جئـت مـن أجلـه إلى هنا..أنـت قلـت أنـك تعـد تقريـراً صحفيـاً إضافـة أنـك تقـوم بإنتـاج فيلـم وثائقـي..

قلت لها:

-وروايةٌ أيضاً..

ردتْ بانبهار:

-الله! أنت متعدد المواهب..

وأردفتْ:

-إذاً لا تقحمنـي في روايتـك لأني امـرأة تخطـت العمـر المثـالي للأنوثـة.

قلتُ لها:

ـ العجـزة هـم الذيـن يتخلـون عـن امـرأة مثلـك.. لأجـل امـرأة مثلـك أنـا أكتـب.. أنـا أكتـب عـن الحـب والثورة..أنـت الثـورة.. أمـا الحـب سـأتخيله في امـرأة لـن تـأتي..

ـ يبدو أن أحاديث الثورة لاتنتهي..

أجبتكِ:

-وأحاديث النساء أيضاً..

انصرفتِ المرأة للحظات..

كيـف أقنعهـا أني أكتـب عنهـا دون أن تعـرفاً وأن حـواري معهـا الآن قـد يصـير

وطناً بعد آن..

قالـت لي عندمـا رجعـتْ وفي يديهـا كتـب وأوراق بلهجـة أقـرب للمـزاح المحبـب:

ـ ماعنـدي قلتـه لـك. لسـتُ كاتبـة كـي أختـرع أحـداث إضافيـة. ربـما انتهينـا أليـس كذلـك؟

أجبتها:

ـ حسـناً سـنرى غـداً فالنسـاء أحاديثهـن لاتنتهـي كـما قلـتُ لـك للتـوّ.

-لكـن أحاديـث الألم يجـب أن تنتهـي.. تعبنـا.. خمـس سـنين مضـتْ كأنهـا برهـة مـن زمـن ورغـم ذلـك كانـت ثقيلـة جـداً

قالتها وكأنها ذبحتني بنعومة قاسية.

هـي لا تريـد أن تفتـح جراحهـا.. لا تريـد أن تسـتعرض للنـاس خسائرها.

خـسرت كل شيء فعـما تتحـدث؟ فالنـاس عـادة تحـب أن تتحـدث عـن انتصاراتهـا لمـاذا نحـن فقـط نتحـدث عـن المعانـاة؟

لكـن مـالي وهـذه المـرأة المكابـرة عـلى جرحهـا لمـاذا اسـتنطقها وأجعـل مـن ألمهـا مـادة للنـشر؟! ألا يكفيهـا مابهـا؟!

كيـف أقنعهـا بالظهـور بوجههـا الحقيقـي كـي تتحـدث أمـام الكامـيرا؟

وهي التي لا تريد أن تجعل من جرحها العتيق مادة للنشر.

قالـت لي عندمـا طلبـت منهـا الحديـث أول مرة(مـاذا اسـتفدنا مـن الـسرد بعـد كل هـذا الوقـت؟)

هـي المـرأة التـي لا تسـمي الأشـياء بمسـمياتها فتـارة تقـول أزمـة لأنهـا مقتنعـة أن ثمـة أزمـة في الانسـانية والضمـير البشري تجـاه قضيتنـا وتـارة تقـول أنهـا حـرب لأنهـا تعـرف تمامـاً أن هنـاك أطرافـاً تتصـارع بالسـلاح والعقيـدة ظاهريـاً ومعنويـاً وتـارة تكـون برأيهـا ثـورة لأنهـا تعـرف أن الثـورة لا ذنـب لهـا.. فالخطـأ لايكـون بالقضيـة بـل يكـون أحيانـاً بحامـلي لوائهـا..

قلت لها:

ـ أين أخطأنا ياسيدتي؟

ـ لاتتحـدث مثـل الشـعراء الأرسـتقراطيين قـل لي يـا أم خالـد أو خالتـي أو نـادني باسـمي.

ـ وهل الشعراء فقط هم من يحترمون المرأة؟

ـ لا طبعـاً البسـطاء يحترمـون المـرأة بجـدارة أمـا الشـعراء ليس عندهـم بضاعـة سـوى الـكلام.

ابتسمتُ لكلماتها وقلت:

ـ أنا لستُ شاعراً

ـ لكنـك محقـق أنـت تحقـق معـي وأنـا قلبـي أغلقتـه ولا أريـد أن أفتحـه كثـيراً. أخشـى أن يتسـلل الجـرح مـرة أخـرى دون أن أشـعر بـه..

قالـت عبارتهـا الأخـيرة وتنفَّسـت الصعـداء كـما لـو أن وطنـاً تنفـس..

أجبتها باستغراب:

-إن كان كل ما قلتيه لي طوال الفترة الماضية ليس الكثيراً فأنت لم تقولي بعد شيئاً يعنيني أن أعرفه.

هنا صمتتْ وبعد لحظة قالت:

-هل تعتقد أنَّ البوح راحة في كل الأوقات؟ البوح أحياناً يكون ذلّ. وأي ذلّ أكبر من هذا؟ صرنا نستجدي البوح ألا يبوح.. لديَّ بقية ولا أريد أن أضحي بها..

بقية من كبرياء.. أخفيها للأيام.. لعل زائراً أو عابر سبيل مثلك يطرق بابي.

أدهشتني شاعرية الألم فيها لكني لم أخفِ سؤالي:

ـ لماذا تخفين وجهك عندما تأخذين الطعام للثوار؟

شعرت أن وجهها تغيرتْ ملامحه وردت بعفوية:

-تلك مشكلتي ولستُ مضطرة لأشرح أو أقول لماذا؟

قلت لها :

-أنت تشبهين أم سعد في رواية غسان كنفاني التي تحمل ذات الاسم.

أجابتْ:

-رواية جميلةاً وبصراحة لم أقرأها إلا بحكم تدريسي لمادة اللغة العربية كونها كانت مقررة في المنهاج المدرسي..

ثم قالت ما ليس له علاقة بالموضوع:

ـ ليت عندي ابنة شابة. لو عندي لكنت زوجتك إياها وبررت وجودك بوجه امرأة عجوز مثلي تعب منها الزمن وأتعبها.

ـ إن كانت ابنتك فأنا أوافق على الفور.

ثم ردت :

-هما اثنتان، الكبرى عمرها اثنا عشر.. صغيرتان، صغيرتان جداً.

-ألم أقل لك إنك تشبهين أم سعد، إنها كانت امرأة فلسطينية جريئة وقوية وشجاعة..

كأنَّ غسان كنفاني كتبَ عنك..

قالت:

ـ أم فلان أو سواها، فحواري معك لن ينفعك بشيء، ولن يجعل من روايتك شيء يرضي النقاد لأني أتحدثُ ببساطة جداً، والحوار البسيط لن يرفع قيمة الرواية.

أنت ربّما تتحدث عن ثورة أو حبيبة سابقة لم يعد اليها سبيل..

قلتُ لها:

-البساطة هي أجمل معزوفة..

لم ترد..

ارتبكتُ أمام ذكائها وارتطمتُ بجدار من ريبة، سألتها بتردد كما لو أني أمام قاض أعرف مسبقاً أنه لن يحكم لصالحي:

ـ عمَّنْ تتحدثين؟ أقصد كيف تعرفين؟

ضحكتْ وهي تضع أمامي الشاي الذي اصطدمتُ رائحته بوجداني كأني في ضيافة حقل ورد:

ـ اشرب الشاي، فليس عدلاً أن تشربه بارداً لكني لا أعرف عما تسأل.

أجبتها:

-لكنكِ ذكرتِ أحداً ما.. كأنك تلمحين لقصة..هي قصة هربت منها..

قالت:

-أنتَ فشلتَ بالعشق لأنك اخترت ذلك، لذلك عندما تختار أن تخسر لاتفكر بتلك الخسارة كثيراً..

قلت لها كما لو أني مثلها تماماً أريد البوح لكني أخشاه:

-أنا مثلك تماماً، مثل كل سوري مجروح.. أتحاشى أن أفتح جرحي، لأني أخاف ألا أغلقه، أتجاهل الذاكرة وأتعمد النسيان لأني أنظر للمستقبل مثل كل متفائل بالنصر فالماضي هو نسخة الألم.. صرنا اثنين .

سكتتْ برهة ثم قالت:

-بل عين الصواب؛ تلك الأسئلة الملحة المتكررة تستنزف العمر دون أن نشعر أننا قد أجبنا عليها ونحن كنا لانريد. كنا فقط ننازل الحقيقة في ساحة النسيان..

عقّبتُ على كلامها :

-ودون أن ننسى الأبطال الحقيقيين.

لكنها سألتني بعد لحظات صمت سؤالاً مباغتاً لا يترتبط بالسياق :

-هل لازلت تحبها؟

أعجبني حدسها الفطري وأجبت على السؤال بسؤال:

-وكيف عرفتها وأين لمحتها؟

أجابتْ دون تردد:

-لمحتُها في عينيك..لغة العيون لاتكذب..العيون تفضح أصحابها؛ هل نسيت أني أم لثلاثة رجال.. أنا أمّ وأنثى وأعرف متى يعشق الرجل؛ ومتى ينكسر؛ ومتى يفشل..

وكيف يبني خطته لإغواء امرأة

-وهل الأغواء متلازمة الرجل أم المرأة.

-بحسب الأدلة فإن الذي بدأ الإغواء هو الرجل.

سألتها كأنها قارئة الفنجان التي صدّقتُ أنّها كذلك:

-وأنا ماذا أكون؟

قالت بثقة حذرة:

-أنتَ فاشل بامتياز، لكن كما قلت لك قبل لحظات بأنك أنت اخترت أن تكون كذلك، وقد تكون مصدوماً بمن تحب..

عطفتْ على جملتها الطويلة :

-فاشل بالحب فقط.. لكنك وبكل أمانة محاور بارع.

قلت لها كأني أصبت بحمى تلقائية للبوح:

-أنا وأنت نتشابه بأثر رصاصة تركها القدر للحظات في الجسد.. نتشابه في الفاعل لكننا نختلف بالتفاصيل.. تلك التفاصيل أرهقتني.. منذ زمن أحاول الهرب منها والاحتماء بنسيان فاشل.. فشلتُ بالحب وفشلت بالنسيان..

تابعتُ:

-ذاتَ ربيع.. ربيع ثوري بعد أن خرجت من السجن استقرت في جسدي رصاصة والقدر صدمني بامرأة جميلة، على باب بيتها انعطف القدر بي، لململمتْ دمي المتطاير على لهفة الحرية، خبّأتني لأيام في بيتها، والأجمل من ذلك هي قصة الرصاصة، لقد أخرجتْ رصاصة من جسدي لكن جراحي بعد ذلك تضاعفت..

-وهل نشأتْ قصة حب على إثر تلك الرصاصة؟

أجبتُ:

-فعلياً نعم، لكن..

انتابكِ فضول أنثوي وسبقك السؤال:

لكن ماذا..؟ هل أحببتها وكانت تحب رجل آخر؟ آه.. أو ربما هي كانت متزوجة أو خاطبة.. أم ماذا؟

أجبتكِ:

-ليت الأمر كذلك، إنها قصة أكبر من أن أحكيها في ساعات، إنها بسيطة جداً وليست معقدة لكن تلك التفاصيل موجعة بالنسبة لي.. موجعة جداً. أشعر أنها تحتاج لعمر.

اعتقدتُ أني كنت أكتب مشهداً أو فصلاً من رواية..

قلتِ أنت ببسمة متأهبة للمواساة:

-أنت موهوب جداً، تكتب رواية وتحضر فيلماً وتكتب شعراً، وصحفي بارع.

رددت على مدحك التلقائي:

-شكراً لأنها مجاملة لم أسمعها قبل زمن.. ظننتُ أن الزمن توقف هناك..

رددتِ:

-لا أبداً يا بني أنا لا أجاملك، لكني أعتقد أنك تتحدث عن امرأة لا تسكن رواية فحسب بل جعلتها بطلة لرواية. أنت تغري الواقع إلى حبرك، وربما وعدتها أن تلتقيها بعد أن تنتهي الحرب وتنتصر الثورة..

سألتك بلهفة:

-هل تؤمنين أن الثورة ستنتصر بعد كل تلك الخسارات وتلك الأخطاء التي أصابت جسدها ومؤامرات الدنيا عليها؟

أجبتِ:

-أنا مثلكَ تماماً كلانا يؤمن بالثورة يتحدث عن نصرها لكنه يتكئ على أمل والآمال لاتصيب أحياناً.. لا نريد مزيداً من الخراب والدم قد تنتهي الحرب يوماً ما ونعود الى أدراجنا محملين فقط بالألم والذاكرة..

لكن أعتقد أن الطريق طويل إلى لحظة النصر..

عقّبتُ على كلامكِ:

-هناك ثورات حُسِمتْ بساعات وأيام لماذا نحن فقط نتسول الابتسامة من فم السباع؟

لماذا نتسول الفرح؟ لماذا نحلم ألا نكون غداً في عداد الموتى؟

لماذا أقصى أمنية لنا صارت أن نستفيق على عدّاد معطل للموت؟

وطن وثورة

ثلاث سنين اذاً..؟

أربع..

خمس..

ست..

سبع..؟

كيف مضتْ هذي السنون بسرعة كأنها لحظة؟

الشعوب التي تعيش عقوداً تحت القمع والاضطهاد لا تأمنوا جوعها إلى الحرية..

اقرأوا التاريخ جيداً..

ليستْ عبارة روائية، ليست مجرد فكرة عن حريات الشعوب..

المتشائمون يقولون انظروا ماذا حدث لدول الثورات والربيع المزعوم، فمنظومة الفساد و«السلطوية» القديمة لاتزال تعشش فيها بل وعادت البطانة القديمة تحكم وبشدة..

يبدو الأمر صحيحاً الى حد ما، لكن للثورة وقارها الذي زرع القلق الدائم في نفوس المستبدين..

المنظومة القديمة موجودة في بلاد الثورات وأموال الفساد

وغـير ذلـك ..

بل وعادت للحكم في تلك البلدان..

لكن الثورة هي الطريق..

أنـتِ الثـورة التـي كتبتهـا في كل مـا أنحتـه مـن حـبر صامـت لذلـك لا تتوقفـي عـن عشـقي فعطـشي إليـكِ مثـل ثـورة لا تشـبع..أريد فقـط أن أرتـوي..

وأنـت مثـل أنثـى فاتنـة تحـصي عـدد ضحاياهـا وكـم هـم الذيـن تمـت غوايتهـم.

فكم عاشقاً نام على ذراعيكِ دون أن تشعري..

أيتها الثورة...

أيتها الحرب لقد متنا جميعاً حتى إشعار آخر..

سـنوات الثـورة الخاليـة مـرت كحلـم والبندقيـة لم تلـغ الثـورة فنحـن لازلنـا نؤمـن بالثـورة رغـم كل مايقـال ومايحـاك..

هل مرّ الثوار من بين يديكِ حقاً؟

فكيف تمت غوايتنا بهذا الحجم؟

أهي حرب تشتهي الغواية ؟

ما أجملها من عبارة !

قلـتُ لهـا ذلـك وأنـا أفكـر أنهـا قـد رشـفتْ مـن دمـي كـي تـدواي جرحهـا.

قلتها لها مرة ثانية(هي حرب تعشق الغواية)

هي سألتني:

(كيف وصلت الى هنا؟ وأي قدر قادكِ الى إلى قلبي الذي اتخذته محطتكِ الأخيرة؟

-ماذا تذكر من أيام الثورة؟

-أذكرُ كل شيء ولا شيء..

أذكر كم عمراً وعمراً سنحتاج لنمحو جزءاً من الألم. ماذا نحكي للطفل المشوه والروح المصلوبة على أضرحة الزهر ؟ وماذا نحكي للورد على شرفاتنا؟ وماذا نقول لأمّ انتظرتْ على الباب طويلاً شعاعاً من لمحة الصبح لم يأت..

أذكركِ أنتِ..

أنتِ ولا أحد يشبهك؟ لا أحد يشبه وجهك الصباحي لحظة التوبة..

لحظة لمستك على جرحي..

عندما ألمح من عينيك شعاع اليوم الآتي..

أعرفُ أني قد تورطتُ..

لكنك خرجتِ عن النص الروائي..

كنتِ مختلفة..

لم تكوني من قوافل الثوار..

ست سنين إذاً..! وأكثر بقليل..

عمل ثوري يومي مجهد..

كنا نلتقي في المكان ذاته الذي فرضناه على أنفسنا. قبو تحت بيت دمشقي قديم، يدخل إليه الضوء متلصصاً.. فتحة صغيرة جداً تؤدي إلى (لا شيء)..

فريق تطوعي بأساليب بدائية..فريق صحفي من عدة أشخاص يكتبون بأسماء مستعارة، وحدها تلك الأسماء توفر لك لحظة الحرية في التعبير.

ثلاثة أجهزة كومبيوتر وإنترنت بطيء جداً.

في المساء الدمشقي الحالك السواد التقيت زيد.. زيد أحد منا.

زيد غادر دمشق أيضاً بعد أسابيع من مغادرتي لها، وتابع العمل الصحفي وتحوَّلت الصحيفة من إلكترونية إلى ورقية.

زيد هو الاسم المستعار لفادي الجزئري ورغم أنه اسمه المستعار لايمكن أن أناديه إلا زيداً.

زيد عرفني على فتاة دمشقية كانت تعمل مع أحد تنسيقيات الثورة السورية رشا شمس الدين..

كلنا ثلاثة..

رشا دخلتْ بمهمة مستحيلة إلى الغوطة بعد مجزرة الكيماوي، وأجرتْ تقريراً مصوراً لقناة إخبارية عربية..

اسمها الاعلامي هبة الشامي.

نزحتْ رشا أو هبة الشامي من بيتها برفقة عائلتها من الغوطة الشرقية بعد تدمير كامل منزلهم إلى مدينة دمشق.

كانت هبة تخفي كل نشاط لها حتى عن أبيها وأمها، لكنها في النهاية اضطرت أن تصارحهم وقد نصحوها بالابتعاد عن ذلك خوفاً عليها وعلى أنفسهم من بطش النظام، أرادوا منها الانشغال بدراستها الجامعية فقط، فهي طالبة في قسم اللغة الانكليزية في جامعة دمشق السنة الرابعة.. لكنها قررت أن تمضي في الطريق الذي اختارته بملء إرادتها.

لعله خوف طبيعي مبرر في ظل تجارب الشعب مع هذا النظام السياسي وأجهزته الأمنية، فالقبضة الأمنية سيطرتْ على خيال الإنسان السوري.

وتكرَّستْ بأمثال كثيرة منها ما يتم تداوله بشكل دائم، وتكاد هذه الأمثال دستوراً لدى السوريين من قبيل « الحيطان لها آذان» «امش الحيط الحيط وقول يارب السترة»

«ابعد عن الشر وغنيلو»... وكلها أمثال لم تأتِ من فراغ، بل هي نتيجة ميراث العقل الجمعي والتجارب.. وخاصة بعد أحداث حماة عام ١٩٨٢ حماة قصة لا تنتهي وجرح لا يزال مفتوحاً رغم أن النظام أغلقه لحظة الحصول.

ربما بسبب الزمان أو المكان وانتفاء الوسائل التي توصل ما حدث، فلم يكن آنذاك وسائل إعلامية أو وسائل تواصل اجتماعي أو هواتف محمولة..

في ذلك الوقت اغتالوا حماة ولم يسمع أحد بجريمتهم..

ورغم ذلك لم يُطوَ الجرح ولم ينسَ الجيل ماحدث، أورثنا أجدادنا رغم صمتهم على الكارثة عدم الصمت..

إنه الخوف، الخوف الذي تسلحنا به لعقود..

بقيت حماة وبقي جرحها، ولم ننسَ رغم كل الخوف الذي ورثناه..

نحن ورثة ذلك الجيل..

نحن ميراث الخوف..

ميراث تلك الأمثال الشعبية التي نطقها أسلافنا لأنهم عرفوا الحقيقة.

نحن الورثة الشرعيين لمملكة الصمت التي بناها أسلافنا.

وربما لو ثار أجدادنا بنصف ثورتنا الآن لكانت فاتورة الدم أقل.

لقد تحملنا الفاتورة الباهظة، وتضاعف الثمن بسبب صمتهم الموروث..

ولما قرَّرنا أن نكسر حاجز الصمت كانت النتيجة أكبر من المقدمات وأشد فضاعة في تاريخ الإنسانية..

كبرتُ وصرت أبحث عن حماة بمفردي..

أحاول أن أفتحها من جديد مثل الفاتحين القدامى..

بحثت عن حماة كثيراً لكني وجدت الصمت يحكم الموقف للمرة الثانية. سألتُ يوماً صديقاً حموياً هل نسيتم؟

وكنا نتحدث حديثاً طويلاً عن السياسة والثورات وكان ذلك قبل الثورة.

قال لي ويبدو أن تضاريس وجهه قد تغيّرتْ إلى هيكل من حزن وجرح:

إننا فقط نتظاهر بالنسيان..صدقني لم ننس ولن..

معها مرة أخرى

أيــن اختفيــتَ كلَّ هــذه الفــترة ظننــتَ أنــكَ عــبرت الحــدود دون أن تودعنــي؟

سألتني..

قالتهـا بغصـة بالغـة لم أشـعرْ لهـا مثيـلاً قـط.. كأنهـا المـرأة التـي التقيهـا أول مـرة.

ليســتْ أمــي لكنهــا تشــبه أمــي! هــي التــي تحدثنــي عــن ســنوات الثــورة كــما لــو أن عصــوراً مضــتْ وأيقظتنــا مــن قيامــة إلى قيامــة.

تدخـل في تفاصيـل وتخـرجِ مـن تفاصيـل! تحدثـك فـلا تمـل مـن حديثهـا! وهـي التـي شربـت مـن فـرات الوطـن والنسـيان أيضـاً! فهـي كـما تراهـا قويـة لكنهـا لا تسـطيع أن تنسـى كل مـا حـدث لهـا في عمـر الثـورة.

تــشربُ كأس الشــاي بسرعــة لأنهــا كــما تقــول معتــادة عــلى شرب الشــاي المخــدر عــلى الجمــر.. جمــر الانتظــار. لتــأتي كلماتهــا متتابعــة مثــل ســيف حــاذق:

ـ خرجنـا مـن حمـص إلى إدلـب بعـد توقيـع الهدنـة. ثـلاث سـنوات مـن الحصـار.

قالتها بغصة وتابعت سرد المشهد:

وكـما تـرى وضعنـا رحالنـا هنـا! خسرتُ كلّ شيء وتطوَّعـتُ للعمـل في ميتـم مقابـل السـكن أنـا وابنتـي.

فقدتُ أبنائي وزوجي بين قتيل وأسير ومفقود.

أنا أمارس عملية إنتظارمؤلمة وشاقة. أنتظر فرحاً.. ثم أجدا فجأة خبراً عني أنا.

صورتي في التلفزيون.. اسمي في محطة إخبارية.. صورتي في جريدة..

والدنيا تشيد بي وبشجاعة امرأة فقدت ثلاثة من أبنائها وزوجها.

يريدون مني سبقاً صحفياً . وأنا كيف أسبق حزني؟

أنتَ لستَ أول صحفي يأتي الى هذا المكان. مر الكثيرون..

أحدهم كان أجنبياً وقد احتاج الأمر لمترجم فأنا لا أجيد سوى العربية وقليل جداً من الانكليزية. أحدهم سألني عن ماري كولفن الصحفية الأمريكية التي تم اغتيالها في حمص من قبل النظام.

ربما أحدهم أخبره أني آخر الشهود على موتها. لأن مقر أحد وكالات الأنباء كان قريباً من بيتي في حمص القديمة. المقر تعرض للقصف وجزء من بيتي كذلك.

بعد هذه الحادثة غيّرتُ المكان إلى أن وصلنا أخيراً هنا..

لا أحد يعلم بالوجع إلا الذي عاش الوجع. كنت سأرضى بكل شيء لو كانوا حولي.

تساقطوا مثل أوراق الخريف ضاعوا أمام عيوني. لم أشأْ أن أفتح جرحي لأحد.

غـيّرتُ اسـمي وأوهمـتْ مـن حـولي بـأني امـرأة أخـرى. المكابـرة عـلى الجـرح لا تلغـي النسـيان.. ولاتلغـي الجـرح أيضـاً. لأجـل مـاذا حصـل ذلـك ولمَ؟

قالتهـا وسـكتتْ وكأن تضاريـس الكـون كلـه صمتـتْ، كل شيء فيهـا يبكـي مثـل غيـم مدجـج، كل جوارحهـا تنـزف ألمـاً، سـكت جبـل شـاهق بسـكوتها، وحـين كانـت تتكلـم تتـوارى كل المؤلفـات.

سـمعتها للمـرة الأخـيرة واحترمـت شـعورها ولم أكتـب أو أسـجل، اكتفيـت بالإنصـات.

جميـل جـداً أن تنصـت في حـضرة امـرأة شـاهقة الـروح مثلهـا وتتنـازل عـن شـهية الفضـول.

سكتُ مثلها وأطفأتُ شمعة انتظار الغد.

أما هي فقد تابعت وكأن الجبل اهتز من جديد:

-تلقيـتُ طعنـةً مـن قنـاص النظـام، كنـتُ أمـرّ بسـيارة تابعـة للأمـم المتحـدة، كنـتُ مجـبرةً عـلى ايـداع تلـك الرصاصـة في جسـدي. تصـوّرأني بقيـت لسـاعات دون يجـرأ أحـد عـلى إخراجهـا إلا بعـد أن تخطينـا عتبـات حمـص باتجـاه إدلـب، كنـا بـشراً بعـدد يفـوق الألـف.

وكانت هذه هي الدفعة الأخيرة..

قاطعتها:

-مـاذا حـدثَ في تلـك الليلـة وأيـن اختفـى ثلاثـة آلاف مـن سـكان حمـص القديمـة؟

سـكتتْ ولم تجـبْ لكنـي كنـتُ مـصراً عـلى سـؤالي وهـي لم تجـب سـوى بكلمـة واحـدة يسـبقها النفـي:

ـ لا أعلم .

ثم قالتْ بسخرية ملوعة بالحزن:

ـ أنـتَ صحفـي ولديـك هوايـة نبـش الأمـوت، وأنـا عكسـك تمامـاً أريـد أن أقتـل جراحـي وأدفنهـا هـل فهمـت مـا معنـى أن أقتلهـا؟

سألتها كأنني أستجوبها أو أستنطقها:

ـ ماذا حدث في حمص في ذلك اليوم ؟

لم تجـبْ. رمقتنـي بنظـرة حازمـة راحـت تذبـل رويـداً رويـداً كأني أحـاور أنثـى لم تنـل مـن أنوثتهـا سـادية رجـال السـلطان أو كأني أحـاور أنثـى أخـذت مـن صفـات الرجـال الصلابـة والقوة والصـبر والحـزم.. جميلـة هـي الأنثـى عندمـا تكـون قويـة. تصبـح أجمـل في عـين الرجـل وعـين التاريـخ فمـن منـا لا تعجبه امـرأة قويـة امـرأة تحتويـه ويحتمـي بهـا لحظـة الضعـف.

تلـك هـي أم خالـد ليسـت أنثـى تقليديـة لكنهـا بسـيطة إلى درجـة الغمـوض والإيحـاء وفي بسـاطتها أسـئلة لاتنتهـي. سـألتها:

-يدكِ معطوبة؟

-عُطِبتْ يدي لأنّهم تأخّروا بإخراج الرصاصة، وبعد أن أخرجوها تعفّن الجرح بسبب عدم وجود المواد الطبية اللازمة.. لم تتوفر آنذاك سوى مواد أولية. رضيت أن أعيش بيد واحدة، واعتدتُ أن أمارس حياتي كما ترى.

لسوء حظي أنها يدي اليمنى.. لقد مرّنت يدي اليسرى للكتابة على السبورة وإلا كيف سيفهم التلاميذ..

قالت عبارتها الأخيرة بمرح تظلل بالحزن المكابر وتابعت:

-أمارسها، لكني لا أعيشها، فأنا دفنت نفسي القديمة منذ زمن بعيد.

فاطمة. نعم فاطمة جارتي كان زوجها معتقلاً عندهم، دخلوا منزلها للبحث عن وثائق وأوراق، أحرقت البيت بما فيه.. لم تقل ماحدث معها بالضبط عندما دخلوا البيت..

فاطمة خرجت مع ابنتها.. بكت طويلاً ولم يستطعْ أحد أن يهدّئ ثورة بكائها.

هذه قصة من قصص.. لكن هذه المرأة آلمتني، هي جارتي الآن في هذا المكان أيضاً.. تجاورنا بالألم أيضاً. لازلتْ تنتظر زوجها وتتلقى علاجاً نفسياً في تركيا.

هناك شيء تخفيه، شيء حدث معها عندما دخلوا منزلها..

نعم. كلهم يكذبون علينا، لا أحد يريد أن يجد حلاً .

ثم صمتت المرأة وكأن كتابة الأبجدية انتهتْ..

وصمتُ أنا بصمتها..

أزمة..

ثورة..

امرأة واحدة.. اثنان..

رصاصة أولى...لها قصة مع امرأة

ورصاصة ثانية لها قصة مع أخرى..

ماقصة الرصاص على جسدي ؟

أهو لعنة التصقتْ بجلد وجودي الافتراضي على كوكب الخوف والوجع..؟

لا أصدق أن التقينا قبل هذا الوقت.. أنت تشبيهين أم خالد التي التقيتها بعد سني الثورة كي أسمع منها الحكاية السورية من بدايتها.. وربما أنتِ جزءٌ منها أو فيك شيء منهاز الفارق هو العمر فقط.. هو الزمن.. هو الجغرافية.. هو أداة إخراج الرصاص.

هو المبدأ..

هو الثورة..

هي امرأة ثائرةًً وأنت اخترت مكاناً مضاداً للثورة.

أم خالد امرأة ثورية حتى النخاع وكأنها ثورة بحد ذاتها..

وشاحها.. ثوبها الأسود الطويل الذي ترتديه حداداً على زوجها وأولادهاًً وعروق يديها وخطوط الزمن على وجهها وأخاديد الوقت المر..كل هذه التفاصيل تحكي قصتها من

ألفهـا إلى يائهـا.

عــن أيّ بطــل ســأحكي وأنــا أشــتم الخيانــات هنــا؟ هــل تذكريــن ذلــك القائــد؟

كانــت تــزوده أحــد الــدول بالأســلحة.. لكنهــا تخلــت عنــه فجــأة وبواســطة تلــك الدولــة تــم اغتيالــه مــن أجهــزة النظــام عــن طريــق الأقــمار الصناعيــة.. تذكــرت كلام أوس عــن ارتبــاط الثــورة بالجهــات المموِّلــة التــي تتضــارب مصالحهــا كيــف نســلم رقابنــا لهــم؟ لمــاذا لانقلــع شــوكنا بأيدينــا؟

تذكــرتُ رســالة طرفــة بــن العبــد الشــهيرة في التاريــخ العربي وكيــف كان يحمــل ورقــة مقتلــه بيــده.. أمانتــه وعــدم فضولــه قتلــه.. لــو فتــح الرســالة لعــرف لكنــه أصر أن يكــون أمينــاً..

الثــورة ليســتْ خطيئــة لكــن الخطــأ الحقيقــي هــو الاســتبداد والاســتعلاء عــلى الشــعوب..

قصــة أم خالــد ألهبتنــي وألهمتنــي كأني ولــدت لحظــة ســماع القصــة..

تسرد بوقار ولا تنتهي..

لكنها انتهتْ هناك..

تبكي حروفها ولاتبكي عيناها..

تلــك التــي تســألني وكأنهــا تحرّضنــي للمزيــد بصمــت العنفوان الغزير:

-متى تحوّل مسودتك الى رواية ثائرة ؟

أجبتُها:

-إن لم نلتق بعد هذا اليوم فكل ما سأضيفه هو أنت فهل تسمحين ؟

ترد ضاحكة وكأنها لم تضحك منذ أمد بعيد:

-هل تأخذ إذن كلّ شخصية في الرواية قبل الشروع بتجسيدها على الورق؟

فأنا سأبقى من ورق لا شيء يحررني..

قلتُ لكِ:

-وأنا لا أريد أن أرتكب مجزرة أدبية أريد كل أبطالي أحياء.

مجزرة داريا.. كنا شاهدين عليها زميلتي صحفية غطّت الألم وعرضناه..

قلت لي:

-ومرتْ مثل غيرها..

قالتها وسكتتْ.. ولا أدري كيف تسكت الجبال..!

قطعتُ الصمتَ بسؤال كأنه الأخير:

-هل لنا لقاء آخر..؟

قلت:

-الله خلق الحياة لنلتقي فالموت وحده الذي يمنع اللقاء..

قلت لها :

-جملتكِ شاعرية تصلح فكرة لرواية ما..

أجابتْ:

-تتهمني بالشاعرية وأنا لا أعرف من الشعر سوى قراءته

قلتُ :

-من يقرأ الشعر بشغف لابد أن يلعق جزءاً يسيراً من عذوبته ويصبح في اللاشعور شاعرياً.

ردّتْ:

-إلا أنا.. أنا واقعية وأبحث عن الممكن.. الممكن القليل..

قلتُ :

-يعني أنك تخليت عن فكرة الثورة؟

أجابت:

-لا.. لكن الخسائر الفادحة تجبرك على القناعة في أحايين كثيرة.

ما هذه المرأة التي إن تحدثت أطربتكَ دون غناءٍ وإن صمتت كأن ألف أبجدية تتحدث نيابة عنها .. كأنها حاكمة مستبدة دون استبدادٍ قادمة من زمن الأندلس البعيد وحصون غرناطة وأبواب دمشق ومعارك الفتوح ..

كأنها آخر معاقل الحياة ..أخر معاقل الثورة والثوار..

كأنها آخر سيف عربي.. تشبه الرجال لكنها ليست رجلاً.. من بين يديها تسرب الثائرون إلى حتفهم أوإلى النهايات..

تحمل شعارتها وطناً تحكيه ولا تمل.. هي لم تتعب ونحن لم نتعب..

أغلقتِ البابَ لكنها فتحت ألف قصة..

تتابع حديثها في آخر ليلة التقيتها:

-تركنا الوطن فينا.. أثر الرصاص على الكفن والنهايات المؤجلة‌ا وتركنا فيه أشياءنا كي نتعلق بحبال العودة..

نظرتْ الى بندقيتها ثم قالت لي:

- إنها للدفاع فقط‌ا تدرّبت على استخدامها كي أحمي نفسي وهؤلاء الصبايا.

قلت لها:

-بندقيتكِ قديمة كأنها بعمر الظلم على الأرض .

قالتْ مازحة :

-كأنكَ تجرب شخوص روايتك معي قبل أن تتابع مهمتك وترحل عن هذا المكان.

-والبطل الاستثنائي» ثائر سوري.. هل يكفي قلم كي نكتب عن ثائر سوري.. أخاف أن أقيده بروايتي فيصير

حلمي بوطن جميل حلماً فقط، فأنا أبحث عن حقيقة، ولا أريد أنصاف حقائق بين دفتي كتاب أو في شريط تسجيل..

غداً سأغادر إلى الحدود أعتقد أني سأنتظر هناك عدة أيام قبل دخولي..

اتصلوا بي.. هم ينتظروني.. سألتقي بأحد عناصر الجيش الحر واسمه أوس سيلتقيني غداً عند نقطة محددة.. سأبقى في ضيافتهم عدة أيام.. كما أني سأحاور أحد قادتهم.

وبعدها سأدخل الأراضي التركية.

سألتِ:

-هل ستبقى في تركيا؟

-سأبقى فترة حتى إنهاء بعض المهام، وبعدها سأقدم اللجوء في فرنسا.

ثم سألتِ سؤالاً لم أتوقعه:

-هل نسيتَ غالية.

-أنتِ عرفتِ اسمها أيضاً؟

-نعم زلَّ لسانكَ البارحة وأنت تتحدث عنها.

-لن تصدقي إن قلت لك أنها ليست قصة حب أبداً.. هناك صدف كثيرة تمر في حياة البشر.. عندما أنجز روايتي سأرسل لك نسخة حتى تعرفينها.. أعتقد أن خيوطها اجتمعت هنا، لكني مع ذلك أريد أن أتابع.

فصل

على خطّ الثورة التقينا..

قدرٌ جميل ولكن القدر الجميل تغتاله رصاصة..

-لاتضيّعني في التفاصيل فقد بدأت الثورة..

(عبارة أم خالد)

-أنت أحلى الثورات..

(عبارة قلتها لكِ)

-لن تتقدّ على روحي قبل أن تتنصر الثورة..

(حبيبتي المفترضة في روايتي المفترضة)

-أنتِ مثل وطن يحترق الآن..أريد امرأة تحترق أمامي. أريدها بكامل حرائقها..

فقد سُدّ الأفق...

(الكاتب يخاطب بطلة الرواية)

-أفتشُ عنه في قلبي فأعثر عليه بالصدفة مختبئاً وراء عصور المستبدين..

لا أعرف كيف حكمونا كل هذا العمر دون أن نصبح جديرين بالحرية (عبارتكِ أنت)

-السياسة لعبة قذرة لاتحسم الثورات بل تفسدها! لا تجعل

نفسـك رهـين المصالح..

لا تدخل دهاليز السياسة .

(أم خالد توجه الكلام إليّ)

- ألم أقل لك أنك ثورة أو تشبهين الثورة..

(أنا أوجّه كلامي لأم خالد)

-نريـد أن ننتـصر.. صبرنـا. انتظرنـا.. الثـورات تحسـمها قدرتهـا عـلى اسـتيعاب الألم..

تألمنا كثيراً ألا يكفي ؟

(أم خالد)

-هل تريد أن تكون البطل المجازي..؟

(أنا أسأل أحد أشخاص الرواية)

- لا. فالأبطـال مـن يتقاسـمون الألم. كلنـا أبطـالاً وأبطـال حقيقيـون..

(الشخص ذاته يرد عليّ)

عـلى الجـدار فقـط تمـارس الحريـة.. واللوحـة محطمـة ولاشيء يثبـتُ أنـك في هـذا المـكان إلا أنقـاض أحـلام...

فكـرتُ كيـف يتحـرك التاريـخ بسرعـة فـوق وجعـي بينـما أقيس تآمـر الكـون بمقيـاس زئبـق يحتـاج الى معادلـة فيزيائيـة..

ضائعين نبحثُ عن بعض الخطايا كي تقتلها ونتلفَ الأحلام المستحيلة..

«ارجعي ألف ليلة» تغنيها فيروز على أنقاض ماليس وطناً فلا وطن يموت..

أنا أستعيد عبارتك الأخيرة قبل أن أتركَ لكِ السرد لتكمليه عندما يتم اغتيالي..

ودعت أم خالد واتجهت صوب الحدود السورية التركية على خط التماس.

ودعتها كأني ودعتُ فيها الوطن كله..

تبادلنا الصمت في ذلك المكان الذي تقاسمنا قسوته وقصف على جرحٍ يترقب المطر كي يمحو جرحاً قديماً..

هي المرة الأولى التي أكتبُ بها بهذه الشراهة. لاأعرف إن كنتِ أنتِ أم الرصاص هوالذي جعل شهوة الكتابة تتدفق من بين أصابعي؟ولازلت أشعر أني أمام وداعها صاخبٌ كالبحر..

لكنها هزمتْني أيضاً وثمَّ..

وفي الثورة لابد من نهايات..

لابدّ من الهزائم..

أنت تريد أن تجمع خيوطك لتكتب عن الثورة مالم يكتبه أحد..أنت تتحدث عن قصة حب في زمن الثورة. ألم تشفى بعد إصابتك ؟

خاطبتني..

فخاطبتها:

لأجلنا..لأجل الزمن العربي القليل المتبقي سأبقى..

قلتُ لك ذلك في الصفحة الأخيرة عندما صار الوطن أقرب..

أغلقتُ الباب..أنا الذي اخترعت شخصية أم خالد.

لم أقرّبها من الخيال مع أن القارئ سيظن ذلك. أنا الذي التقيتها مرة، لكني لم أكذب على قارئي في عرض حقيقتها..

وهنا قالت عبارتها الأخيرة (انتبه! لاتعبر الجسر، فقد يكون ملغماً، وابتعد عن العبارات الفارغة فقد تكون فخاً)

وافترقنا..

ولم أعبر الجسر..

لكنّي عبرت كل خواطري..

مدينتي، ذكرياتي، طفولتي، كلُّ الأشخاص الذين عرفتهم أو الذين رأيتهم مرة واحدة..

وزنزانتي المعتمة حيث سلخوا جزءاً من جلدي هناك..

لم أتأخرْ..لكنني وصلتُ إلى نقطة اللاعودة، وتضاءل الزمن بين غيمتين ممطرتين، حتماً ستلتقيان.. وفي لحظة ما عدت إلى روايتك بطلاً قبل اغتيالي..

عدت وطناً من وطن..

عدت بأسئلتي وطوقت خصر أحلامك فيها..

ولم أشفَ..

فأنـا لا أريـد أن أشـفى.. أريـد أن أبقـى مريضـاً بعشـق امـرأة فيهـا مـن الثـورة الكثـير والكثير..ومـن الأنوثـة كل الأنوثـة.. فأكـون صالحـاً فقـط لـكِ أنـتِ فأرسـم أنوثتـك عـلى مقـاس رجولتـي.

هـي الثـورة التـي جمعتنا..وقبلهـا لم نكـن مبدعـين في صـوغ الحيـاة..

غادرتُ الوطن مثل كل النازحين واللاجئين إلى الحكايات..

الذيـن غـادرتْ مواكبهـم مثـل أسراب النجـوم تمسـح عتمـة الشـوارع التـي خلـت مـن صـوت الحيـاة..

بدأ الوطن...والساعة صفر أيضاً

(كيف تلغي أم خالد من حساباتك الروائية فيما بعد؟ كان يجب أن تسير بها حتى نهاية الرواية)

سؤال روائي حاد..لكني تابعتُ تفاصيل الوجع..

غرفة عمليات مشتركة للجرح.. للانتظار على باب الصباح الآتي من ليل الاستثناءات المعتمة..

لا أدري من يقرع ذاكرتي الآن ويثقبُ جدار النسيان .

شيء لا يتزحزح من ذاكرة الألم ويثقب روحي فتستيقظ كل شراييني النائمة.

كيف قضيتُ شهوراً في زنزانة من دون وطن ومن دون حبيبة ؟

وكيف كان الوطن؟

كان ليلُ دمشقَ عميقاً في ذلك الحين وسواده يبسط ذراعي رغبته، يشتهي عناق مدينة تفيض سحراً ووقاراً، لهذا السبب نحن يغرينا الغموض والوقار، فالأشياء المكشوفة لا تغري عادة، ولا نملك فضولاً تجاهها.

لكنَّ دمشق مثل امرأة جنونية غامضة صعب أن تمنحك أوراقها أو نقاط ضعفها ولو تماديت دهراً في عشقها.. قصيدة خاضعة لمنطق التورية..

تجيدُ المراوغة في العشق، لا تحب البوح كثيراً، تخفي أسراراً لا حصر لها كأنها التاريخ كله. وكيف سيصدّق التاريخ أن شرارة الثورة بدأت هنا؟

أحسستُ برغبة حائرة أن أمارس هواية قديمة، وهي أن أسير ليلاً في شوارعها التي تبادلني الصمت والحنين، فالليل يخفي عيوب حزني التي رسمتْ معالمها على روحي كأني بانتظار الأزل، لكنه تناقض عجيب يحرضها فتستحيل رغبة الحاجة إليها نفوراً من حزنها الذي يحاكي حزني..

ربما أنا مجرد تائه هنا أبحث عن فكرة لرواية أو قصيدة أو شيءٍ ما يصعب تحديده بعد فراق قصير، وكأنّه أطول فراق في التاريخ.

كيف أتعلَّقُ بها كل هذا التعلُّق؟!

هل هي رغبة الاكتشاف، أم رغبة البقاء، أم عشقها المستدام؟

رواية..؟

أسأل نفسي..

تلك التي انتابتني فكرتها عندما كنتُ في المعتقل، نسيتُ تفاصيل كثيرة لأني لم أدونها، لكن الخطوط العريضة حاضرة في ذهني، وأوشكُ أن أختار أبطالي وزمانها ومكانها، حتى إني صرتُ لا أميّز بين الواقع وتفاصيل الرواية التي أمثّل التحاور فيها بيني وبين نفسي، فأخطأُ أحياناً بينها وبين الواقع، وبين بعض أصدقائي وشخصيات روايتي وبين

امـرأة أحبّهـا في الروايـة وامـرأة لم أرهـا أو ألمحهـا عـلى الواقـع أصـلاً.

اسـتحضارُ روايـة والتفكـر في معالمهـا يشـبه عمليـة مخـاض. لا أدري لمـاذا يعتقـد النـاس أنَّ الكتابـة عمـل سـهل وكأنـه فقـط يحتـاج لتحريـك الأصابـع.

لم يعـش أحـدٌ لـذة انتهـاء روايـة كـما عشـتها أنـا، روايـة لازالـتْ مسـودة، فكرتهـا تأتيـكَ عندمـا تكـون معتقـلاً، وتكـون أنـت تكـون بطلهـا الحقيقـي.

أنا بطلها إذاً؟

لكـن كيـف أصبـح أنـا بطـل روايـة سـأكتبها؟ ومـن هـي أم خالـد؟ تلـك البطلـة الأخـيرة،

البطلة حقاً.

هـل أحاكـم نفسي بتهمـة الكتابـة أم بتهمـة ممارسـة البطولـة في الكتابـة أو الروايـة؟

توقَّف الزمن وأطفالٌ أعلنوا الثورة..

كنـتُ لا أزال في السـجن بتهمـة مـؤازرة الثـورة التونسـية، ورفاقـي ينتظـرون هنـاك عـلى ضفـة حلـم..

عندمـا خرجـتُ لم يصـدّق أحـدٌ أنَّ تهمتـي كانـت هـي فقـط التعاطـف مـع ثـورة في بلـد عـربي آخـر هـو تونـس، تونـس التـي كانـت فاتحـة الثـورات.

نعـم أنـا هنـا لأني تعاطفـت مـع ثـورة في بلـد آخـر، تلـك هـي الأنظمـة الاسـتبدادية تتخاطـر، تتخابـر، تتناسـل للغايـة ذاتهـا. عـدو مسـتبد في بلـد هـو عـدو لهـم جميعـاً .

كلُّ أسـئلة المحققـين أحفظهـا، تلـك الأسـئلة التـي جعلتهـا حـوارات في روايـة..

وأحفـظُ ذرّات الأشـعة التـي دخلـت زنزانتـي، وفكـرة روايتـي وكامـيرا التصويـر، وشـخصيات الفيلـم الوثائقـي الـذي سـوف أعـده عـن الثـورة، والأشـخاص الذيـن سـأتحدث عنهـم ومعهـم وأقابلهـم عنـد انـدلاع الثـورة التـي أؤمـن بهـا كـما أؤمـن أني إن لم أخـرج فـإني حتـما سـأموت، وكلاهمـا نتيجـة لسـبب واحـد.

ثـم كيـف أقـع في حـبّ امـرأة مزاجهـا ليـس ثوريـاً كمزاجـي، هـل هـي لعبـة روائيـة أخـرى منـي.

لكـنَّ الليـل صـار باهتـاً في دمشـق، حتـى ضـوء الصبـح مـرّ بي شـاحباً شـحوب انتظـار ثـورة ..

صباحـي متعـبٌ دون نشـاط ربـما لأني أسرفـتُ في خيـالي الـذي تـسرّب في الردهـات الخلفيـة للمدينـة الحائـرة بـين الثـورة والصمـت..

اسـتيقظتُ عـلى رنّـة هاتفـي الجـوال الـذي يـرن دون توقـف وبـإصرار عجيـب.

رددت دون أن يلتفت بصري إلى اسم المتصل.

كان زيداً، صديقي وزميلي .

اتصالٌ مقتضب لترتيب لقاء..

كنا قبل الثورة أنجزنا مشروعاً لصحيفة إلكترونية خفية عن أعين الأجهزة الأمنية..

أثناء ثورة تونس التي كانت فاتحة الثورات العربية كنا ننشر بأسمائنا المستعارة، لكن ذلك لم يكن سببَ حبسي لأنَّ أمر الصحيفة وأصحابها لم يُكشَف للأجهزة الأمنية..

رتّبنا أنا وصديقي زيد لقاء..

أنا وزيد صديقان قديماً، جمعتنا مدينة واحدة وأحلام مشتركة..

زيد أول إنسان سوري حقيقي رأيته بعد خروجي من السجن..

وكان آخر أحدٍ رأيته أيضاً..

دمشقي من غوطتيها..

لم نكن نتحدث على الهاتف بأية تفاصيل عن عملنا .

حتى عندما نلتقي في المقهى مثلاً نخفي حديثنا، نتحدث فقط في مكاننا الذي اخترناه لنشاطنا الثوري الذي بقي مستمراً حتى عندما كنت في المعتقل..

أنا وزيد ورشا أسسنا موقعنا على شبكة الانترنت إيماناً منا أن للكلمة تأثيرها أيضاً، هنا اجتمعنا في عالم افتراضي للحديث عن الثورة متنكرين بزي هارب من قبضة الأمن..وهناك دفنا أسماءنا الحقيقية..

من الليل إلى الصباح تنقلني قدماي إلى هنا. أتمعنُ في تفاصيل الأمكنة التي أمرَ بها، أدقق ملياً في أسمائها، فالأسماءُ لم تتغير حتى بعد عدة شهور من غياب قسري عن هذه المدينة. لاشيء مختلف، فحجارة الأرصفة والبيوت كما هي، تخاف أن تبوح لك فيلتفت إليها من يقطع لحظة البوح.. لازالتْ مطلية بلون الصمت والفزع والترقب.

الشوارع تغيرت ولم تتغير.. لكنكَ تشعر أن الود قد غادرها أو أنها بلا أقنعة حتى اللحظة.

وجوه كثيرة عابسة تعرفها بنظرة ثاقبة، وتعرف أنهم رجال أمن ينتشرون كالذباب في شوراع المدينة.. البعض يبيع الدخان، أو يقف على « بسطة» كما نسميها نحن السوريون، ولامانع لدى أحدهم أن يمسح الأحذية، والبعض يقفُ دون عمل وعيناه مصيدة وألف مصيدة..

هل مدنُ الشرق للخوف فقط ؟

مدنٌ بسحر الشرق كله تحكمها عيون رجال لاتعرفهم إلا لحظة اصطيادك، لأنكَ قلت شيئاً ما متعمداً أو بتلقائية بحتة..

حتى الجدران تغيّرتْ ونزعتْ ثوبها التقليدي المسالم كأنها توشك أن تتفوه بشيء عجزنا نحن عن قوله..

الأطفال وحدهم من تمرّد على هذه الجدران..

هم وحدهم من كتب النهاية..

هم وحدهم من قتل خوف الكبار الذي ورثناه دهراً..

من أصابعهم بدأتِ الحكايا، ألهمَ سقوط بن علي في تونس ومبارك في مصر هؤلاء الأطفال أبجدية ثورية عجز عنها جيلنا وأجيال سبقتنا.

كأن الأطفال وحدهم من يجيد اللعبة التي يهرب منها الكبار.

وحدهم الذين يعرفون كيف تتم الإنقلابات على الأنظمة الشمولية.

وكيف تبدأ الثورة..

وكيف يجب أن تنتهي رغم أنهم لم يقرؤوا ولم يسمعوا كثيراً عن الثورة الفرنسية أو أية ثورة أخرى في التاريخ، لكن استعدادهم الفطري للثورة يفسد ثقافة العبيد.

وبدأت حكايتهم من درعا ثم صارت في كل مدينة..

ابتعدتُ كثيراً بأفكاري حتى كاد المكان والزمان يفوتني.

اقتربتُ من باب المقهى الذي اتفقتُ مع زيد على أن نلتقي فيه، كان الباب خشبياً بني اللون أيضاً، وجدرانه كذلك من الخشب كنوع من الديكور الكلاسيكي.

زيد كان ينتظرني على الطاولة، هي المرة الأولى التي نلتقي بها هنا، فنحن نغيّر أماكن لقاءاتنا بحيث لا يتكرر اللقاء في المكان ذاته أكثر من مرتين كي لا نلفتَ النظر، فذلك جزء من نظام عملنا..

كنا نراقبُ المزاج العام في المدينة..

نقرأ حالة الخوف والترقب لدى سكان المدينة..

نقرأ وجوههم..

نستنتج مانريد..

نسرقُ الحوارات العابرة أحياناً لأنها توحي بالكثير..

جلست وصديقي..

كان يبدو وقد أنهى شرب قهوته وأنا من تأخرتُ عليه حقاً فبادرني بعد أن ردَّ تحيتي:

-ظننتُ أنك لن تأتي..

-يبدو أن الشرود أخذني إلى أماكن أخرى.. اليوم بالذات هناك ازدحام غير عادي وكأن كل البشر في هذه المدينة قد خرجوا من بيوتهم واستقلوا الحافلات. مشكلة المواصلات في هذه المدينة تشبه الأنظمة العربية..

قلتُ عبارتي الأخيرة بصوت خافت..فرد زيدا مازحاً:

-يبدو أنكَ تريدُ العودة إليهم.. هل أعجبك السجن؟

-نعم للحد الذي جعلني أستغرب كل ماحولي لحظة خروجي يبدو أنه كان يغريني كي أعود فاختلفت كل الأشياء علي.. هل تصدق أنني بعد أسابيع من إطلاق سراحي لا أستطيع أن أتأقلمَ مع حياة الحرية.. كأنهم يأخذون البشر إلى ذلك المكان كي يقولون هم بأن السجن هو أكثر مكان يليق بكم..

- ستعتاد بعد أن تسمع ماحدث اليوم.

-ماذا حدث؟

-الآن.. حريق يلتهم أسواقاً في دمشق القديمة.

-سمعتُ أشخاصاً يتهامسون بذلك عند باب المقهى.

هل يجب أن نكون هناك.

- لانستطيع.. المكان محاطٌ بالشرطة والمخابرات وأغلبُ الظن أن الحريق مفتعل.

اليوم يجب أن نتكتم على هذا الموضوع لأن الأمر تكرر كثيراً، قبل فترة عرض الإيرانيون على أصحاب هذه المحلات أن يشتروها منهم، أصحاب المحلات رفضوا، اليوم يشتعل فيها الحريق، فما هذه الصدفة؟

- هل تحدث التجار في ذلك، يعني هل قالوا أنهم عرضوا عليهم بيعها؟

-نعم. وأحد التجار لديه إثبات رأيته بنفسي، طبعاً أنا لم أقل له أني صحفي معارض.

الأمر حدث صدفة.

-سيقولون إنه ماس كهربائي كالعادة، وتنتهي القصة عند هذا الحد.

-يجب أن نجتمع، هل أخبرتَ رشا ؟

-سأتصل بها، أعتقد أنها في الجامعة.

-حسـنـاً سـنلتقي اليـوم مسـاءً لابـد أن نكشـف عملنـا مـن أجـل العـدد الجديـد.

-وأنـا سـأكون بعـد سـاعة عنـد الطبيـب عنـدي موعـد هـام مـن أجـل ذراعـيْ أريـد أن أطمئـن أكثـر..

-هـل سـألك الطبيـب عـن الرصاصـة التـي اخترقـت ذراعـك؟

-نعـم. هـو صديـق قديـم للعائلـة وموثـوق جـداً. أنـا قلـت لـه أننـي أصبـت في أحـد المظاهـرات.. موعـدي بالأسـاس معـه يكـون خـارج أوقـات دوامـه.

-على ذكر الرصاصة هل عدت والتقيتَ بتلك الفتاة؟

-لا

-ولم تتصل بها؟

-أنـا مديـن لهـا وهـذا يكفـي. إنهـا تعمـل في الوكالـة الرسـمية الإيرانيـة للأنبـاء.

-ولكن كيف عرفت ذلك.

-هي مراسلة صحفية يمكن أن تراها على تلك المحطة..

-مراسلة هنا في دمشق؟

-نعـم.. هـي لم تخـفِ ذلـكْ أعطتنـي «كرتهـا» عندمـا خرجـتُ مـن منزلهـا.

-قالتْ لك ذلك وهي تعلم أنك تعمل مع الثوار؟

-نعـم لكنـي لم أخـفْ لحظتهـا أن تخـبر أحـداً عنـي أحسسـتُ بوداعـة غريبـة في عينيهـا.

هنـاك شيء قـوي أخـبرني أن مهمتهـا تقـف عنـد أن تعمـل وتنـال أجر عملهـا ولـن تـشي بي لأي جهـة.. ثـم أني بقيـت في بيتهـم أيامـاً..

-إذاَ هي لاتسكن وحدها؟!

-إنهـا تسـكن مـع أمهـا في البيـت لم يكـن يوجـد سـوى امرأتـين.

- هي زميلتنا إذاً ؟

-هي كذلك.

هي كذلك ولكن ليس إلى ذاك المدى..

كيـف أطـوّر شـخصية مثلهـا لتكـون حبيبـة لا مجـرد امـرأة تخـرج رصاصـة مـن جسـدي ألتقيهـا صدفـة تأوينـي في بيتهـا لأنهـا عرفـت قصتـي دون أن أشرح أو أتكلـم..

طمأنينة عينيها تغريكَ أن تشعر بالأمان وتتابع الحكاية..

مـن زنزانـة قضيـت فيهـا شـهوراً إلى مظاهـرة أشـارك فيهـا دون فاصـل زمنـي بـين اعتقـالي وتلـك المظاهرة..فرصاصـة فعشـق امـرأة تورطـتُ بـه أو كأنـه لم يكـن عشـقاً.

-هل أحببتها؟

يسألني زيد..

سؤال تقليدي ساذج..

-بصراحة لا أدري..

ودعتُ زيداً عند هذه الإجابة..

في ذلك المساء عدنا التقينا في مقر عملنا..

مقرُّ العمل هو قبو تابع لبيت دمشقي قديم جداً..

خطواتنا إلى المكان تتبعها حركة رصد نقوم بها.. نحاول دائماً أن نكون حريصين جداً في هذه النقطة..

في لقائنا لم ينتهِ الحديث عنكِ..كأنّ الحديث عنكِ لا ينتهي..

عشاء بسيط ببساطة المكان..آلة صنع القهوة..

ومعدَّات العمل الصحفي..

المكان في نصف عتمة ونصف ضوء..

كنا نحضّرُ للعدد الجديد..

اعتذرتْ رشا عن المجيء واكتفتْ بإرسال موادها عبر الإيميل..

صمت ورشفة قهوة فيعاد تكوين المكان يليه سؤال مباغت من زيد كأنه يتعمد أن ينبش قصة غالية متسائلاً أو سائلاً :

-هل تفكر بلقائها مرة أخرى ؟

ورغم معرفتي عمَّنْ يسأل سألته:

-ومن تقصد؟

أجاب بكلمة واحدة وكأن ضمير الغائب مرتبط بها:

-هي..

أجبته دون تردد:

-لا

-لماذا؟

-لقائي بها يثير الريبة بالنسبة لي وبالنسبة لها. هل نسيتَ ماطبيعة عملها؟ هذه المرأة موضوعها خطير جداً، إنها تعمل في الوكالة الرسمية الإيرانية، أي إنها عملياً تعمل في جهة تتخذ منهجاً معادياً للثورة، وفي هذه المؤسسات يكون ارتباط أجهزة الأمن وثيقاً جداً.

قال وكأنه لم يقتنع بما أقوله:

-لكنكَ مهتم بأمرها..

ثم تابع مازحاً:

-أعتقد أنه يندرج تحت بند العشق من النظرة الأولى، لكن لماذا النظرة الأولى، أنت بقيت في ضيافتهم وتحت عنايتهم أسبوعاً وهذا كاف لأن تحبها إن كانت كما وصفتها بذاك الجمال الخارق..

حاولتُ أن أهرب من فضول صديقي وأبحث عن موضوع آخر لكن دون جدوى.

ثـم سـكتُ وكأن صديقـي حـشرني بالزاويـة الصعبـة فقلـت لـه:

-أنـا مديـنٌ لهـا فحسـبٌ لـن نلتقـي في أي مـكانٍ قصـة عابـرة وأنـا طويتهـا لحظـة حصولهـا.

أنا اكتفيتُ بما حصل..

وماحصلَ حصل وانتهى..

رجع الوطن..

قلتِ لي رجع الوطن..!

ورجعنا نحن أيضاً..

وسقط المطرُ على ليالي الثورة رغم قسوة المشهد..

سباق المسافات الطويلة، وزمن خصب يلملم بقايا جسدي من عبثية الألم..

ألهذا السبب لم تكن معي؟!

سألتِ أنت..!

(معك حتماً، لكن كثيرة تلك الحواجز..والأسلاك الشائكة أيضاً .)كم سورياً التقيتَ ؟

كم إنساناً سورياً حتى الآن تحدثوا إليكَ عن جراحهم؟

ثم لماذا تفتح جراحهم أصلاً من أجل فيلم وثائقي؟ فيلم تريد أن تعرضه في المحافل الدولية كي يكتشفَ العالم مأساتنا، وكأنهم لايعرفون؟ أبصم لك بالعشرة إنهم يعرفون أكثر مني، بل ويصنعون ألمنا، ويعرفون نوع الأسلحة التي تقتلنا، بل هم الذين يصنعونها.. هم وحدهم من صنعوا أسواقاً سوداء وأخرى بيضاء لبيع السلاح الذي يفتك بالجسد السوري؟

هل ردينة الحسن «أم خالد» شرحتْ لك كل قصتها أم أنها اكتفتْ ببعض التفاصيل؟

لأنَّ مقـدار الألم في قصتهـا لا يُحتَمـل؛ فالمـرأة تتجاهـل أعماقهـا مـع كل سـائل يطـرق بـاب قلبهـا؛ تتجاهـل حجـم ألمهـا لتتظاهـر بالصمـود كـي تبـث الحمـاس في نفـوس الثائريـن؛ فهـي لـن تبكـي ولـن تشـكو ولـن تظهـر الضعـف أبـداً لتبقـى القـدوة لأجيـال الثـورة.

أم أنـك تكتـب روايـة عـن سـجنك وإصابتـك بالرصـاص مرتـين؟!

المـرة الأولى في دمشـق عندمـا كنـت تصـور مشـاهد التظاهـر والمـرة الثانيـة خـارج دمشـق عندمـا خرجـتُ متخفيـاً مـن دمشـق إلى إدلـب..

أنـتَ محظـوظ بالحيـاة فالمـوت لـن يحتفـي بـكَ مـرة أخـرى عندمـا تطـرق بابـه.

أنـتَ لم تعـرف مصـدر الرصاصـة التـي احتفظـت بها لسـاعات حتـى لحظـة وصولـك مشـفى ميـداني في مـكان لم تعرفـه جيـداً؛ فـكل البنـادق مصوبـة لأنّ الحـذر واجـب ذاتي أحيانـاً في فـوضى الانقضـاض. وأنـت كنـتَ زائـراً مفاجئـاً غريبـاً لبنـادق الثـوار المتأهبـة للجـرح والانتظـار..

فكل الجراح مسؤولة عن عسكرة الثورة..

والجسد السوري مثل بورصة .

ربما..

أو مثلُ شيء أو لاشيء..

وكلُّ ذلـك لأجـل روايـة أو فيلـم وثائقـي قـد يتحـدث عـن نسـوة انتظـرن أولادهـن أو أزواجهـن أو معتقـلات تعرضـن للاغتصـاب في سـجون الجنـاة عندمـا سـقطت النخـوة مـن رؤوس الجبـال.

والزنزانة الباردة القاسية التي خرجتَ منها..

وثقوب الرصاص على الجسد..

والنـزع الأخـير للوصيـة المتأهبـة لحظـة توديـع الحلـم و«ملاحظـات في زمـن الحـب والحـرب»

تلك هي.. لم أخترْ لها الاسم.

هناك قانون ثابت تنطوي تحته..

الزنزانة باردة جداً ودمي يعبر آخر الأنفاق..

ربما لن نفترق بعد وطن أو قبل وطن..

قبل ثورة أو بعد ثورة..

ولازلتْ ثقوبُ الرصاص على جسدي..

لأنَّ الوطـن ليـس قبـل أو بعـد.. فالوطـن كل الأزمنـة.. كل اللحظـات..

كلّ الثواني وأجزائها..

ونحن في مساماته نقاط حبر في زمن المطر..

تقولـين لي أنـتِ التـي هـي أمـي :لا تخـرج بـلا معطـف أو «جاكيـت» فالشـتاء بـارد هـذه الليلـة بالـذات..

وكأنـكِ سـتلمحين وجهـي بعـد حـين أو يتكفـل الوقـت بسـداد وقتـي لـك..

خرجتُ والساعة صفر..

ظننتُ حينها أني لن أعود..

لكن نداء قلبي للحياة كان أقوى..

حتـى لـو قـال لي أحدهـم لا تلحـق بفصـول قلبـك إن تعاقبـتْ بسرعة..

فالثورةُ هنا توردت من خيالات مضتْ..

قبـل هـذه العبـارة لم تكـن الثـورة بـل كان زمنـاً آخـراً لا أعـرف كيـف ستتغيّر فصـول وأزمنـة بعـد هـذه الكلـمات.

صديق لي اسمه ثامر أيوب خسر كل أهله وأقاربه قال لي :

أتعـرف؟ لقـد وصلـت إلى مرحلـة قلـت فيهـا بينـي وبـين نفسي عندمـا نظـرت إلى كل هـذا الحطـام (ليـت هـذه الثـورة لم تقـم). فاتورتهـا كانـت باهظـة جـداً. صحيـح أن للحريـة ثمـن لكـن ليـس لهـذا الحـد.. ماحـدث يفـوق كل تصـور. ليـس لدرجـة أنـك تجمـع لحـماً متطايـراً لجسـد واحـد حتـى تدفنـه كامـلاً تحـت الـتراب.

هذا حصل معي..

نعم معي أنا. لقد جمعتُ لحم أخي المتطاير..

قبل زمن فكرتُ بكلمات هذا الصديق الحميم، ربما من يسمع كلماته هذه سيلومه، لكني شخصياً لا ألومه أبداً فالمجروح إنسان لا يُلام.. وهو الذي أمسكَ بأشلاء أخيه.

يتابع حديثه : ليس ثمة ابتلاءٌ أكبر من هذا.. هل جريمتنا أننا نريد أن نكون أحراراً؟

«ميرنا آغا» زميلة دراسة خسرتْ كلَّ شيء. وأخيراً خسرتْ نفسها. ميرنا دخلت مشفى الأمراض العقلية، فقدتْ عقلها عندما رأتْ جثث الأطفال بعد مجزرة الكيماوي. ميرنا كانت ممرضة لكن عقلها لم يحتمل.

هؤلاء لا يختزلون الجرح السوري، لكن جراحهم قد تكون نموذجاً لجراح سوريين

آخرين لم نعرفهم..

لم نلتقِ بهم..

مهمتي أن أجمع قصصاً أتنفس من خلالها..

وكأنَّ القصة بدأت من هنا..

فأنا كنتُ أرتب لقاء قادم يجمعني بك..

(عبارة قلتها لأم خالد المرأة الحمصية التي نزحت من جغرافية أكثر ألماً الى أخرى أقلُّ ألماً) .

لا أعـرف بصراحـة متـى كان وسـيكون اللقـاء.. أهـو قبـل الربيـع العـربي أم بعـده؟

وقتهـا استغرقتْ ثـورةُ تونـس ثلاثـة وعشريـن يومـاً. وبعدهـا سـقط أول زعيـم عـربي مسـتبد بثـورة شـعبية في العـصر الحديـث. وكانـت شـعارات إسـقاط الأنظمـة تكتـب عـلى القـماش مثـل وصايـا عشـاق..

وتخـدَّرَ الصمـت.. واسـتفاق الربيـع العـربي مثـل قيامـة عاجلـة..

وانتهى..

ولما ينتهِ..

لم يكـن سـجني إلا قـدرٌ رسـمهُ الذيـن أعـرف وجوههـم في الليـل الدمشـقي الأخـير..

وللقصـة بقيـة أرويهـا لـكِ عندمـا أدرك في لحظـة مـا أنّي سـأخرج مـن هنـا..

سـأخرج مـن هنـا.. بعـد عمليـة جراحيـة يتـم إجراؤهـا بـلا مخـدر أو مضـاد حيـوي. صعبـة جـداً.. صعبـة جـداً تلـك العمليـة .

لم أخرج وحدي فالمتمردون على الظلام صاروا أكثر فأكثر.

لا أعرف أكنتِ أنتِ أم لا..

لكنه وجهكِ..

أعرفه جيداً.. وليس وجهاً يشبه وجهكِ..

فتاة أحببْتها في مراهقتي كتبتُ بها قصائد عبثية كأنها أول أبجدية على هذه الأرض.

تموتُ في افتراض الحلم أو الرواية برصاصة ما..

أو بشظية جائعة تبحث عن جسد..

وذلك الجدار الذي يشتم لصوص البلاد سارقي الملح والخبز والماء والنفط والحياة والحرية..

لكنَّ الذين اقتربوا من الجدار هم قلة والبقية ساروا دون اكتراث..

كلمات كتبها أطفال درعا وأطفال سورية كلها تابعوا المهمة لا أحد يحب أن يخسر الحياة طائعاً لكنَّ الحياة تحتاج الى معادلةٍ الموت يساوي الحياة..

الكتابات بأصابع شقية اعتادت على الحرمان تصنع ثورة كما كنتُ أكتب لفتاة كانت هي عشقي الأول أيام المراهقة..

ولازلتُ حتى اللحظة كلما أحببت امرأة أسأل نفسي هل كان حبّاً؟

لكني عندما أكتب للثورة لا أكتفي بالأسئلة وقصص السجون الحمراء والساحات الحمراء..

عندما أكتبُ عنِ الثورة أشعر بالدفء.. دفء وطن فقدتُه حتى حين.. كنتُ أحسد شعوباً اقتلعت الطغاة بصرخة أو بفكرة أو حتى برصاصة..

فالطغاة هم الطغاة والثورات واحدة والشعوب هي الشعوب ذاتها التي تتحرك في عروقها دماء الثورة والاشتياق إلى الحياة...

ليسَ ثمة شعبٌ عاقل ينتظر صحوة الطغاة المستبدين فالضمير غائب في دستور الطاغي المستبد لأنَّ الضمير يحتاج إلى فضيلة..

في قانون الطغاة تختفي الفضيلة تماماً بأدنى درجاتها.. لذلك لن يهتدوا إلى قانون الحق الذي يفصل بين استبدادهم وحق الشعوب بالحرية.

لا تنتظر مستبداً أن يصحو كي توفر على نفسك عناء الثورة..

خلقت الثورة عذراء وخلق المستبدون فجرة..

المسافة بين الحرية والحياة تقرر مصير الثورة..

في بلادنا العربية المقهورة يضاف إلى صفة حكامها الطغاة صفة مجرمي الحرب عندما تبدأ الثورات ضدهم.. لا أدري لماذا نمنا سنين طويلة دون اهتمام أو اكتراث بهذه الصفة..

ماذا لو لم نصحُ من غفلتنا ؟ ماذا كان سيشفع لنا؟ صمتاً لا تقتضيه الحاجة بل التواضع أمام رغبة الجاني.

ذاكرتي لا تبدأ من هنا..

من هنا أبدأ عندما تقتضي الثورة..

يسألني مجهول الهوية أو شاهد عيان على وجعي..

ألا تملّ بالحديث عن الثورة؟ لاتكاد جملة واحدة من كلامك تخلو من كلمة ثورة أو مرادفاتها.

أجيبه: الثورة ليس لها مترادفات، استخدام المترادفات ينقص من المضمون ويحرف المسار، الثورة هي الثورة فقط ولا مترادفات لها.

هل كان للثورة الفرنسية اسم آخر؟

هل جوع الفرنسيين واضطهادهم وعبوديتهم من قِبَل الطبقات الحاكمة والارستقراطية وفساد ملوك وحاشيتهم هو السبب لاندلاعها ؟!

قد يكون هو السبب، لكن السبب الأهم هو الشعور بأن الدافع صار أقوى..

القمع يكفي للثورة وإلا لما كانت ثورة..

الفرق أنهم انتصروا، ونحن نبحث ونؤمن بالانتصار .

ألفُ «باستيل» هنا في بلادنا العربية، وكان لهم باستيل واحد صار مكانه مزاراً لعشاق الثورات..

أذكرُ كلمات أبي المعتقل السياسي الذي مات بسجنه -والذي لم أره- وأحفظها كأنها وصية سابقة لأوانها..

كلـمات عـلى كتـاب أوراقـه صفـراء..

يتحـدث عـن امرأة(هـي أمـي) انتظرتـه عمـراً لكنَّهـا ماتـت وابنهـا في عمـر أشـهر معـدودة.. ثـم تـودع الأم الحيـاة لتنقـل الحضانـة الى العمـة التـي صـارت أمـا فيـما بعـد .

ثـم أحفـظ وصيـة امـرأة ماتـت قهـراً عـلى زوجهـا المعتقـل. وعندمـا قـرروا بعـد ثلاثـين عامـاً أن يخلـوا سـبيله خـرج جمـة هامـدة..(لا تقـترب مـن الجـدار عندمـا ينسـحب الآخـرون فالحـذر حكمـة والشـجاعة في مثـل هـذا لا تسـمى شـجاعة.. الشـجاعة فضيلـة تحتـاج إلى حكمـة..والشـجاعة مـن دون حكمـة مغامـرة جوفـاء..)

تذكرين أنتِ حكمة الثورات..

تشردين لحظات ولحظات..

تقولـين مايقولـه الآخـرون الثـورات يحصـد ثمارهـا الجبنـاء لأن الذيـن يشـعلونها هـم الشـجعان الذيـن سـيمرون مـن هـذا الطريـق لمـرة واحـدة ولـن يتكـرّروا..

الثوار الحقيقيون لن يتكرَّروا..

قلتها وطويتُ الصفحة..

فصل..

خيمة فوق سيل جراح..

كيف ترتّبُ الجراحُ موعدها وكيف تفتحُ للريح أبواب من اللانهاية؟

كيف صار الوطن خياماً؟ وكيف صار التراب من زمرد الدم؟ وكيف صار الأوكسجين وجعاً؟

أين نخبّئ كل هذا الوجع فلم تبق منطقة آمنة..

لم تبقَ منطقة آمنة إلا الأمل فكلُّ مضادات الحزن لاتكفي..

جئتكَ بمنتهى حزني وحلمي لأطرق باب صمتك..

فكيف ياوطني صرت خياماً؟!

غادرتكَ لكن بلاخيمة..وهويتي كانت معي..

أصابعي كاملة إلا واحداً تم قطعه تحت التعذيب.

أحدهم يسألني كيف تكتب يدٌ أحدُ أصابع يدها اليمنى غائب عن الحضور..

نعم هو غائب وأنا لست بمأتم.. أنا أجيد الكتابة من دون أصابعي لأني ببساطة قد ألقّن الحبر ما أريد وأملي عليه..

إصبع مقطوع لايمنع حلماً.. ولايمنع وطناً أن يمزّق خيام بؤسه ويعود إلى الحياة.

عامان مرا على غربتي، وشعرت أنهما ليسا عامين، بل سنين تجر سنين، وما أقساها من سنين..!

عامان مرا وليس عندي سوى حلمي، لكن ماذا عساها تفعل الأحلام في أزمنة لاتفهم لغة الحالمين..

جميلة قشعريرة الحلم في عمق الجرح، لكن ماذا نحن فاعلون؟لم تنتهِ أسئلتي، ولم تنته عتمة زنزانتي حتى عندما خرجت أجرُّ جراحي..

وحده الألم في هذا الوطن لم يضمحل ولم يتحول إلى ركام من طلول تبكي عليه أصابع الطغاة ندماً.

وقورٌ هو الوطن خارج الزنزانة..

وممتع هو الضوء وراء جدرانها..

والأوكسجين له طعم الحياة مرة أخرى..

وصرتُ أشعر به كائناً يلامس جسدي فترتعش ثورةً..

التاريخ..! أذكره جيداً..

عمر الثورة الآن يقارب سبعة أشهر.

عمر اعتقالي ثلاثة أشهر ونصف.

أشعر بها عقوداً بعمر اغتصاب سورية..

سنين انتهت ولم تنقضِ..

أحتاج الى قنديل هذه الليلة فالثائرون تفرقوا حتى اشعار

آخـر..

وبينـي وبـن الليـل مسـافة تتقطـع بالرصـاص المسـكوب عـلى جسـد هـذا الليـل المتمـرّد الهـارب مـن زنزانـة الامتـداد..

ترتجفُ الكلمات تبحث عن آمال تقترب من التحقق..

وتعـبر قوافـل أخـرى مـن الموتـى الذيـن لم يكونـوا موتـى في يـوم مـا بقـدر ماكانـوا أحيـاء وهبونـا الحيـاة عـلى هـذا الـتراب الـذي تـضرج بأحلامهـم..

عـبروا حـدود الصمـت بصمـت دون ضجيـج فالعـالم صمـت ليثنـي عـلى الجـلاد الـذي تجـاوز حـدود البربريـة..

في سورية ..

في ثورتها يصبح كل شيء بالآلاف..

الشهداء.

النازحون.

اللاجئون.

المفقودون.

المعتقلون.

الرافضون.

الثائرون .

المنتظرون .

بينما القتلة ثلة يتفق العالم على تأجيج حقدها الأعمى الذي يستعر ليحرق الجسد والوطن والأحلام وحتى الركام كي لا يبقى أثر لجريمة تجاوزت حد الإجرام. وقت آخر للحب نضيّعُه في المدينة كي نشعل الثورة غرقاً حتى الروح المتحالفة مع القدر .

تتوزع على ملامحه ساعة النهاية التي تقترب مع قنديلي إلى العتبة .

ليسألني كيف أختار أبطالي الروائيين.

ولم جلهم ثائرون أليس للشر مكان..؟

فكلُّ ثورةٍ تحرّضُها تلك الظلمة القابعة في أطراف أخرى..

فكيف أجيب وبيني وبينهم مسافة من صمت يهز العتمة..

المجابهة بين الحبر والحقيقة ليست مستحيلةًً فأنا اخترت أبطالي.

لكنهم لم يكونوا أبداً أبطالاً افتراضيين .

كلهم حقيقيون جداًً وأنا قابلتهم خارج الرواية..

خارج الفيلم..

في بلادي هناك ثورة..

غداً.. بعد غد.. إلى آخر جسد ستستمر وتمرًًُ تمر الى النصر..

كان السجان يصرخ فينا في ذلك المعتقل الذي لم يكن إلا مسلخاً بشرياً (خدمنا يثورون علينا..يريدون اسقاط النظام) لم يهزّني كلامه بل هزتني عنجهية الغباء والكذب على الذات بأن مايحدث ليس ثورة؛ بل مؤامرة.

كانت الدقائق تمر علي ساعات والساعات سنين..

اشتقت للساحات..

لأصوات الثوار وحناجر الحرية..

اشتقتُ لكل ماهو خارج هذا السجن المرعب الذي أدخله أول مرة والتهمة أني ثائر.

أنا لستُ هنا ثائراً بل متآمر خائن أشترك بحياكة المؤامرة العالمية لإسقاط حكم الفرد والعائلة وأجهزة المخابرات..

أشعرُ برغبة بالضحك لأني قبل يومين من اعتقالي كنت أحدث صديقي -على سبيل المزاح- بأني لو اُعتقِلْتُ بعد اشتراكي بمظاهرة فتأكدْ أن الثورة ستكون في سورية بعد تونس مباشرة..

قد أتردد قبل خروجي لأني أجزم بأن رصاصة قد تصيبني؛ أما إن كنتُ محظوظاً فقد لا يستخدم الأمنُ الرصاص في هذا اليوم .. وربما يستخدم الرصاص المطاطي الذي لايوجد أصلاً في قاموس المخابرات السورية.

وقد أهربُ مباشرة من أول رصاصة؛ بعد أن أثبت وجودي في الساحة كمتظاهر.

لم ينتظـر صديقـي لأتابـعْ فقاطعنـي وقتهـا مازحـاً (قـل بأنـك لاتريـد الخـروج في المظاهـرة ولاداعـي لهـذه المقدمـات ياصديقـي لكنـك لـو خرجـت بعـد كل هـذا الـشرح فحتـماً سيسـقط النظـام).

قال لي أيضاً: (انتبه فأنتَ حديث العهد بالحرية)

حديـث العهـد بالحريـة يعنـي أني خرجـت قبـل أيـام مـن السـجن ويجـب أن أكـون حـذراً.

تذكرتُ شرحي المسهب له وتذكرتُ رده علي بذاك المزاح.

والآن أنـا هنـا حيـث كنـتُ أحـذر وأخـاف هـذا المـكان مثـل كل سـوري ولاأتمنـاه..

ماحـدث لي بعـد الجمعـة العظيمـة أني ولـدتُ مـن جديـداً في نيسـان تحديـداً..

كنـتُ أتسـاءل لمـاذا يهطـل هـذا المطـر الغزيـر في هـذا اليـوم تحديـداً ؟

هل هو مطر الأمل بالنصر..

كان الوقـت غريبـاً في ليـالي لاأعـرف أهـي سـنين أم لحظـات تلـك التـي تمـر بعيـداً عـن وطـن. كنـتُ أتمعـن في تفاصيلـه خـارج زنزانـة وعـلى مقربـة مـن المسـتحيل..

لم يهدأ الصوتُ ولم تهدأ الساعات..

أأكتبُ لك كلماتٍ لم أكتبها من قبل؟

هل أكتب لإحداهن أنّي أحبها؟

وكم يمكن أن أحبَّ في زنزانة؟

فالحب في زمن الثورات نهار وثورة أخرى..

جدران سجني ولغة سجاني توحي لي باشتياق رغم أني لم أكن قد التقيتكِ بعد.

كأنّي أخفيكِ أو أتخيلكِ فيزداد حضورك كأنثى تكتمل أنوثتها في ذاكرتي قبل أن أدرك بعضاً من مصيري المجهول..

وأنا بانتظار حفلة التعذيب اليومية..

هناك رجفة مزعجة في أصابعي فالصعقات الكهربائية التي خدرتني من الألم ليلة أمس بدأ يظهر مفعولها الآن .

أصحاب السجن بعضهم نائمون، وآخرون يئنون من آثار التعذيب..

كانت أصواتهم تنحت وجداني وأحاول أن أخفي أنيني كي أكون قدوة مؤقتة بنظرهم.

لم نعد نعرف بعضنا، فكلٌّ منا يلهيه ألمٌ أو ذاكرة أو انتظار..

نستقبل لحظة ونودع لحظة أخرى.

إنها الثورة التي توحَّدت في زنزانة..

يمر الزمن قاسياً بطيئاً متكاسلاً، لكنه كان يمر..

ونحن نعبر..والثورة تستمر..

من دمشق إلى باريس..

إلى وطني..

كان الربيع..

ربيعٌ يوحي ببعض مافيه..

كنتُ في باريس أعقد مؤتمراً صحفياً قبل عرض الفيلم..

أسئلة وأسئلة..

أسئلة كثيرة منها مثلاً لماذا كنت مختطفاً عند جماعة إرهابية حاولت أن تسرق الفيلم منك؟

-لا. أبداً، هم فصيلٌ تابع للجيش الحر كما يسمى، أو للمعارضة المسلحة، والمسألة أمنية لأني كنتُ قادماً من منطقة خاضعة لسيطرة النظام السوري.

وفتاة بملامح عربية هي أنتِ..

لم يكن لقائي بها صدفة، بل كان ميعاداً، فعندما قدَّمت الفيلم لأحد المعنيين في «المركز العربي» في باريس كانت هي المسؤولة عن ذلك، وهي التي قامت بترجمة الفيلم إلى الفرنسية..

لكن ماذا يعني أن يتعرَّض رجلٌ لمحاولة اغتيال من امرأة تحبه..؟

لم تسعفني الذاكرة ولكن ماشأنُ باريس بثورتنا، وماهذا العنوان الذي اخترته للفيلم هل هو مجرد تمويه لقصة

ثــورة أو قصــة حــب؟

قصة حبّ أنا هربتُ منها ولازلت أتهرَّبُ منها.

تلـك المـرأة كانـت جميلـة بـما فيـه الكفايـة كـي تلفـت انتبـاه رجـل اعتـاد الخجـل والحـذر مـع النسـاء..

كانـت قويـةً بـما فيـه الكفايـة كـي تُعجـبَ بهـا، فالرجـل لاشـك تعجبـه المـرأة القويـة التـي تـوازن بـين قوتهـا وأنوثتهـا، توازنـاً آسراً.

امـرأة تُجْـري لـك اسـعافات سريعـة وتقـوم بتجريـب الطـب الفطـري عـلى جسـدك، تعلـنُ مهاراتهـا في إخـراج الرصـاص مـن جسـد ثائـر هـارب مـن وجـه عدالـة كاذبـة .

لازلـتُ حتـى اللحظـة في باريـس وذاكـرتي معـي حتـى آخرحلـم، لكنّـي عـدتُ إلى دمشـق، أعادتنـي ذاكـرة مسـتبدة..

في دمشق مرة أخرى..

في ضيافتي صديق..

صديقٌ قريبٌ مقرب..

هــو أحـدُ السـوريون الذيـن سـيتحدثون عـن تجاربهـم مـع الاعتقــال والقمــع في الفيلــم .

زميـلٌ وصديـق في آن، هـو الـذي قـد قـررت أن أجعلـه بطـل الروايـة حتـى حـين..

ذاك الثائر المجنون الاحترافي..

جنون كاد أن يحوله إلى مجنون حقيقي..

إنـه القـدر الـذي جمعنـا في المعتقـل في زنزانـة واحـدة. وهنـاك بـدأتْ صداقتنا.صداقـة غريبـة جـداً..

تحـت التعذيـب، وفي سـجونهم الحمـراء لايمكنـك أن تتوقـف عـن فعـل الحيـاة رغـم أنـك فعليـاً قـد توقفـت عـن الحيـاة.

سـالم خـرج بعفـو سـياسي في الشـهر السـادس عـام ٢٠١١صداقـة تنمـو بـين صرخـات الألم ووجـع الـروح والجسـد.

سبقتُ سالم بالخروج من عتمة الزنزانة، وتركته هناك..

كان غائبـاً عـن الوعـي تمامـاً في بدايـة خروجـه، لكـن أمـه واظبـتْ عـلى علاجـه رغـم الحصـار ونقـص الـدواء والعـلاج، ولـولا ذلـك كلّـه لفقـد ذاكرتـه بشـكل كامـل.

ولاتـزال آثـار التعذيـب في نفسـه وجسـده واضحـة المعـالم. كان يعـاني مـن ارتجـاف دائـم في أطرافـه ومـن الفـزع أثنـاء النـوم.

قـال إنّهـم وضعـوا أعقـاب السـجائر في أنفـه وفي أذنيـه وعـلى لسـانه أيضـاً..

وكان لابـدَّ أن يمـرَّ عـلى «الكـرسي الألمـاني» الـذي اشـتهرت بـه مخابـرات النظـام السـوري. كـما تعـرَّض للصعقـة الكهربائيـة، واسـتطاع جسـده أن يحتمـل كل هـذا رغـم أنـه ضعيـف البنيـة .

خـرج سـالم بعـد أن أمـضى قرابـة سـبعة أشـهر، كان ذلـك بعـد إطـلاق سراحـي بحـوالي شـهر..

الآن نلتقي خارج المعتقل أحراراً نحلم بحرية وطن..

ويحرص سالم الآن أن يخفي ملامح وجهه تماماً وأن يعيش باسم مستعار.

لم يتوقف عن أداء عمله واستمر بكتابة اللافتات سراً للثوار.

كان سالم طالباً في كلية الطب في السنة الخامسة عندما جرى اعتقاله.

كان أبوه معارضاً سابقاً لآل الأسد، لذلك كانت العين مسلَّطة عليه، وقد تعرض هو وأمه لكثير من المضايقات، لكنه اختار أن يقوم بكثير من نشاطاته متخفياً وتحت اسم مستعار، فهو حريص على أمه في ظل وجود كل هذا التسلط الأمني الذي يحيط بالإنسان السوري..

لكن ذلك التخفي لم ينفعه، فقد انكشف أمره، وحصل ماحصل.

كان أبوه يعمل دبلوماسياً في وزارة الخارجية في ظل حكم الأسد الأب، وقد ألَّف كتاباً لم يقم بنشره حتى الآن، ولازال عبارة عن مسودة، والكتاب يتحدث فيه عن تفاصيل انقلاب حافظ الأسد على الحكم وسيطرته عليه، أو مايسمونه الحركة التصحيحية. فقد شهدَ هذه المرحلة بكل تفاصيلها. كما كان في قلب السياسة السورية آنذاك كونه كان دبوماسياً في وزارة الخارجية وهوحاصل على ماجستير علوم سياسية.

شكَّوا بنواياه وبميوله السياسية، فتعرَّض للاعتقال..

اعتقل لمدة خمس سنين، وفي سنته الخامسة هناك، قضى هناك وودع الحياة، وترك وراءه زوجته وابنه سالم.

تابع سالم طريق أبيه لكن بحذر، إلى أن جاء زمن الثورة فانخرط فيها.

لكن قبضة الأمن الحديدية وصلتْ إليه.

وكان موعده في المعتقل الذي خرج منه قبل أيام..

كل قصته حكاها لي في المعتقل..

وهاأنذا ألتقيه في بيته..

وتبادلنا أحاديث طويلة عن الوطن والمعتقل والثورة..

تحدَّثنا عن دمشق وكأنه وكأني قد غبنا عنها دهراً .

دمشق وأبوابها السبعة، وقصة عرائش الزهر فيها وأبجدية الياسمين، والسياسة التي تدخل من نوافذها في زمننا وهي التي كانت أميرة المواقف.

وقصص أهلها مع الحب والحرية لاتنتهي..

من ينسى كيف أسقطتْ دمشق عام ١٩٣٠ صبحي بركات لأنه كان مرشح الفرنسيين، وانتخبتْ بدلاً عنه رجلاً آخر اسمه محمد على العابد. كان رئيس سورية الجميلة يشبهها بتاريخها وثقافتها فقد كان يحمل شهادتي دكتوراه، إحداها في الهندسة والثانية في القانون الدولي، وكان يتقن اللغات العربية

والتركيـة والفارسـية والفرنسـية والانكليزيـة.

هي دمشق أو فيها.

في دمشقَ

يواصل فعل المضارع

أشغاله الأموية

نمشي الى غدنا واثقين

من الشمس في أمسنا

نحن والأبدية

سكان هذا البلد»

كما قال عنها درويش

دمشق ٢٢-٤-٢٠١١
(رصاصةٌ وأنتِ)

ماالـذي يجعـل دمشـق تنتفـضُ ثـم تخبـوأ فتنتقـل الثـورة لمدينـة أخـرى؟

عجيبةٌ دمشق..!

حتى صمتها ثورة أ ولعلها ستأتي يوماً..

احتقان كبير هنا. جنود ينتشرونأ وجوه عابسة مترقبة..

وشهر رابع من الثورة..

وعدد القتلى يتناثر وعداً بالحرية على هذه الأرض..

عدة شهور خارج الحرية..

الصدفـة الأولى رصاصـة أتلقاهـا في كتفـي فتسـعفني امـرأة جميلـةأ لازلـتُ أسـأل نفسي هـل وقعـتُ في حبهـا أم لاأ ومنـذ صدفـة الرصاصـة وأنـا أشـتهي صدفـة أخـرى تجمعنـي بهـا.. أمنيـة تحتـاج إلى إشـباع لعـلَّ فضـولاً يرتـوي أو لهفـةً تنتهـيأ فأنـا لسـتُ بعاشـقأ بـل مـتردد بـين أن أكـون عاشـقاً أو مكابـراً أو لاعاشـقاً..

وصـوتٌ آخـر يقـول لي كيـف يمكـن لـكَ أن تعشـق امـرأة تخالفـك الموقـف مـن الثـورة والثـورات كلهـا؟

عدتُ إلى الحرية أملاً بحرية وطن..

لكني عدتُ إليها أحمل بشرى موتي المؤجل..

كأني وحيد في المكان؛ وكأن حاجتي للاندماج ب(في) الثورة قد بدأت..

عابس..

وحيد..

مشرد..

خائف ..

محاصرٌ ومترقّب وقلق..

كلُّ هذه المترادفات الملحة.. وهناك المزيد..

كلُّ هذا في آن..!

آنُ الثورة التي تنتظر الإشارة..

أشعر أنّي تأخرتُ عن الثورة سنيناً وليس أشهراً..

أنظر إلى جسدي فأراه نحيفاً جداً؛ وأشعر أن روحي خارجه.

فكيف لروح مثقلة بكل هذا الانتظار الموجع أن تسكن هذا الجسد النحيف؟لم ألتقيهم كلهم..

لما ألتقِ كلَّ أصدقائي القدامى..

لكني التقيتكِ أنتِ؛ وجاءتْ الصدفة التي اشتهيتُ.

وكنتُ التقيتك قبل شهر تقريباً.

صدفة الرصاص جمعتنا..

الرصاص كان عادلاً لأول مرة .

ينهمرُ غزيراً لا نراه نسمعه فقط .

التقطتُ صوراً صوراً فقط .

كنتُ أركض.. أركضُ أسرعَ من كل رصاصة .

لكنَّ واحدةً استقرتْ في جسدي في كتفي اليسرى تحديداً..

التقطتُ الكاميرا من الأرض بعد أن سقطتْ من يدي وأكملتُ الجري العشوائي الذي أخذ طريقاً متعرّجاً في حارات دمشق التي لم أعد أميزها..

صوتُ الرصاص لم ينقطع..

لم ينقطع أبداً..

ربما كان الرصاص يحتفي بخروجي من السجن على طريقته أو يعاقبني لأني تورطتُ فيك ولم أعد أميز بين حديثي عن الثورة وحديثي عنكِ أنتِ.

أسرعتُ بكل طاقتي أريد ملجأً ألج إليه فجسدي تخطى إدمان الخوف لأنَّ الدم رسم خيط نهايتي على الشارع الدمشقي الثائر..

صوت يناديني..

صوت يناديني مرة أخرى أن أدخل بسرعة.

صوت أنثى .

صوت امرأة.

صوت صدفة لاتأتي مرتين.

فمن أنتِ بالضبط؟

ساعةً تكونين أنثىً وساعة تكونين شيطاناً وساعة متهمة بقضايا محاولات اغتيال.

أنت التي عشقتها بصمت حتى إشعار الحلم..

كنتِ معي في حلمي..

في يقظتي..

في أمكنتي..

في عودتي.

في ثورتي..

وفي نزعي الأخير كنتِ أنتِ الوحيدة معي..

قلتِ لي لاتقتربْ لأنَّ قناصة الأحلام يتكاثرون هنا..

وبقيت أحلم بصدفة أخرى تجمعني بك بعد أول صدفة..

لكني لم أعد أميّز كثيراً بين الحبيبة الروائية وبينكِ أنتِ..

وكانت الثورة..

دخلتُ بيتكِ فالباب نصفُه مفتوح ونصفه الآخر وجه امرأة تطلب مني أن ألج البيت بسرعة قبل أن تلحق بي عناصر المخابرات..

دخلتُ بعد أن شعرتُ بأن الخطر اقترب مني..

خرجتِ أنتِ تراقبين المكان وبدأتِ تنظيف الدم عند عتبة الباب؛ دم تقاطر من جرحي.. ثم أغلقتِ الباب..

كانتْ هناك امرأة أخرى..

رسم الزمن خطوطه على وجهها..

كانت أمكِ..

العبارة الثانية التي سمعتها منك عندما قلتِ لي:(يجب أن نُخْرج الرصاصة بسرعة)تبادلتِ حديثا قصيراً مع تلك المرأة التي يبدو أنها أمك؛ ثم خرجتِ بعد أن ألقيتِ شالاً على شعرك الأسود الطويل..

بعد لحظات عدتِ وكانتْ أمك قد ربطتْ ذراعي بقوة خوفاً من نزف حاد..

المكان تلطخ بالدم..

وشراشف السرير الأبيض..

البلاط الكلاسيكي القديم..

ثم عدتِ..

رجعتِ بعد لحظات تحملين كيساً فيه شاش وعلب

وأشـــياء أخـــرى لم أعـــد أميزهـــا..

بدأت تنازلين رصاصتي وكأنكِ في معركة معها..

تمديــن يــدك بسرعــة إلى جرحــي، وتلــك المــرأة تأخــذ زاويــة أخــرى مــن البيــت تحسباً

لعملية مداهمة بغرض التفتيش..

الرجال يدخلون البيت يسألون لكن لا يفتشون..

يجري حوار بينكِ وبينهم، ثم يخرجون..

كنتِ قد نظفتِ مكان الدم على الأرض بسرعة..

ثم تنظرين إليَّ وتقولين أنت بأمانٍ لا تخفْ ..

لا أحد سيرجع.. لقد ذهبوا..

بعــد أيــام تعطينــي قميصــاً آخــر وتقولــين ارتــده، أصبحــتَ أفضــل ويمكنــكَ أن تغــادر..

غادرتُ وحتى إشعار آخر لم ألمح عينيكِ ..

غادرتُ بعد أن بقيت بضيافتك أربعة أيام..

ومنــذ ذلــك الوقــت لم ألمــح وروداً في الطرقــاتِ، وصــارتْ خــارج تصوراتنــا، وتحولــت الممتلــكات بصــك بــراءة خــال مــن الــبراءة..

خرجــتُ مــن بيتــكِ متخفيــاً، لكنــي لم أعرفــكِ كثــيراً ولم يشــفَ فضــولي..

عرفتُ اسمكَ فقط..

لكـن الاسـم لـك يكـن كافيـاً لأعـرف كيـف اسـتطعتِ ألا تجعـلي أحـداً يفتـش تلـك الغرفـة التـي أويتنـي بهـا..

فضـول عـارم يجتاحنـي وشـوق يعترينـي كـي أعرفـكِ أكثـر مـن ذلـك .

من أنتِ؟

وكيف تملكين قوة إخراج رصاصة ؟

كيف تملكين قوة إخفائي ؟

قوية أنت..

وجميلة أيضاً..

جمال عربي نادر يغري بالفضول وبالمزيد..

*****

في ذلـك الصبـاح الدمشـقي العابـق بانتظـار الحريـة غـادرتُ بيتكَ.كنـتُ أرتـدي القميـص الـذي اخترتـِهِ أنـتِ لي بعـد أن مزّقـتِ الرصاصـة قميـصي.

قميصـكِ الـذي يلتصـق بجسـدي مثـل اسـتبداد مملكـة تلـفُّ بـشيء مـن أنوثتهـا ذراعـي الـذي تهشـم بالحريـة..

وتركتُ القميص الذي اخترقته رصاصة شاهداً أخيراً في حضورك.

ذهبت إلى شقتي في حي النصر.. ويبدو أنها تعرضت لتفتيش فالباب مخلوع وكلّ الأشياء متناثرة. أخبرني أحد الجيران أنه وضع قفلاً للباب بعد أن قاموا بعملية التفتيش حرصاً منه ألا يدخل أحد ما بغرض السرقة..

هذا الحال وجدته أيضاً بعد خروجي من المعتقل..

بعد ذلك تركتُ البيت إلى عنوان آخر مؤقت..

نور الدين صديق الدراسة والعمر. صديق الطفولة الأولى. الصديق الذي لم يفرّقني عنه سوى دراسة الاختصاص الجامعي فأنا اخترت أن أدرس الآداب وهو اختار أن يدرس الفن.. هو الرسام الكاريكاتيري الساخر الذي يتحف جريدتنا برسوماته اللاذعة.

اختار أن يوقع كالعادة بالاسم المستعار كما نفعل نحن أيضاً. فهو تارة يرسم وتارة يكتب بأسماء مستعارة هرباً من الرقيب وتارة يكتب في زوايا اجتماعية أو اقتصادية في جريدة حكومية -وهو عمله الحالي- ويتجنب السياسة.

هو يتجنَّبُ السياسة فقط في تلك الصحيفة الرسمية فهو مثل كل إنسان طبيعي لا يجامل نفسه فهو إما أن يقول الكلمة الحقة أو ليصمت..

كنتُ في ضيافته في ذلك اليوم فهو مؤخراً لم يعد يرسم الكاريكاتير لأنه متفرغ لمعرض دولي في بلد عربي.

قال لي:

-نحن جبناء، وأنا أكبر الجبناء. الموتى يتساقطون ولانستطيع أن نشهر كلمة واحدة بأسمائنا الحقيقية، إلى متى نهرب من وجوهنا الطبيعية إلى اللاطبيعية؟

أحسستُ أن كلامه هو صائب لأبعد مدى، لكن تبرير الهروب هو عمل حكيم في هذه الحالة..

الآن وقد مضتْ أشهر أخرى على لحظة الحرية، لازالتِ الأسئلة تطرق بابنا متى سيكون اللقاء؟ حتى الأسماء المستعارة ضجرت..

ألقيتُ نظرة سريعة على لوحاته التي كان قد أنهاها استعداداً لمعرضه القادم ويبدو أنه لاحظ إصابتي:

-حمداً لله على السلامة.. ماذا حصل معكَ؟

-رصاصة..!

-رصاصة؟

-قبل أسبوع في مظاهرات الجمعة العظيمة..

سكتنا ولم يتحدث كلانا.. ثم قطعتُ الصمت:

-أنا هنا كي أخبرك بأننا بعد يومين سنصدر عددنا الجديد من الجريدة..

وقبل أن أكمل قاطعني ونهض يبحث في فوضى المكان..

ثم سألته سؤالاً لاعلاقه له بالموضوع:

-لماذا يكون الرسامون عادة فوضويين؟ الشيء الوحيد المرتب في هذا المكان هو اللوحات فقط.

أجابني:

-وهو المهم.

ثم ناولني حزمة أوراق وقال:

-هذه رسومات قديمة؛ اختاروا ماتريدون منها..

-قديمة جداً؟ لكن كيف تبقيها في بيتك مباحة أمام النظر؛ على الأقل اخفها بعيداً عن النظر.

-لا ليس لذاك الحد؛ قديمة يعني أنها آخر مارسمت قبل أشهر؛ وبالنسبة لإخفائها لم أفكر بالأمر إلا قبل فترة أي منذ اندلاع الثورة؛ ثم نسيت الأمر..

-حسناً..جيد على كل حال

-أنا أيضاً أريد أن أتخلص منها وأصدّرها إليكم.

قالها بنوع من المزاح لكن يبدو أنه ليس مزاحاً ثم تابع:

-هناك حملات تفتيش واسعة النطاق ولا أدري في أي لحظة يفتشون هذا البيت.

البارحة أخذوا جاري.. شخص بسيط لاعلاقة له بكل يحدث؛ لديه محل لبيع الثياب المستعملة.. وحتى اللحظة لا خبر عنه بعد مضي أكثر من أربع وعشرين ساعة.

-قل بعد أربع وعشرين يوماً على الأقل.. الآن يجب أن أغادر..

قال لي:

-انتبه للجرح..انتبه لهذه الأوراق التي تحمل..

أقصد انتبه لنفسك من حديث الجرح والأوراق ربما تنطق لتشهد ضدك.. اخفها جيداً .

قلتُ له:

-بالنسبة للجرح فقد التأم.. قد أحكي لكَ قصته يوماً عندما تنتهي من حفلة الرسم

-لن أنتهي.. لذلك ستحكي في أقرب لقاء قادم..

ودعتُ صديقي القديم الذي كان غارقاً في ألوانه..

افترقنا على أمل لقاء قادم..

لقاء قد يحتويك حديثه..

وجه دمشق عابق بالعشق..

«هي وجه أمي في الظلام»

هي لا أحد إلا هي..

الشوارع الخالية إلا منكِ.. أو بشالكِ الذي أوقدَ جرحي..

تلمّستُ ذراعي المصابة وأنا أسأل نفسي:

هل سُتعاد مظاهرات دمشق أم إنها شرارة لمعتْ وانطفأت؟

كانت عناصر الأمن تنشر كالذباب في كل شارع وزقاق أمام كل باب في كل حارة.

كانت مغامرة قلقة جداً أن وصلتُ البيت بسلام وأنا أحمل تلك الأوراق التي أخذتها من صديق لا أعرفُ كيف سرتُ بهذه الشوارع المحتقنة بالخوف وأنا أحملها معي..

كان في رأس أحد الحارات حاجز تفتيش يتكون من عدة عناصر أمن.. كانوا يفتشونثم ينظرون في هوية كل مار..

استطعت أن أغيّر مساري وأتفادى المرور به حتى وصلت برَّ الأمان المؤقت..

أشعلتُ الضوء بسرعة وأخرجت الأوراق من جعبتي ووضعتها بكتاب قديم.

الكتاب هو ديوان شعر قديم لأبي اسمه « إلى غرناطة مع التحية».

أخفيتُ الكتاب بما فيه في مكان ما..

في تلك اللحظة خطر على بالي أن أجمع كل الأوراق ومنها أوراقي الثبوتية التي قد تلزمني فيما لو خرجت من دمشق في الأمد القريب..

تمعنتُ بجدران هذا البيت الذي قررتُ أن أغادره في مكان أكثر أماناً خاصة بعد أن تعرّض للتفتيش مرتين؛ المرة الأولى عندما تعرضت للاعتقال؛ والمرة الثانية يبدو أنها بعد مظاهرات اليوم بينما كنتُ أنا لاأزال في بيت غالية..

أخرجت هاتفي الجوال..

رسالة من زيد(لن نلتقي اليوم)

اليوم لن نلتقي ويبدو أننا سنؤجل إصدار العدد عدة أيام؛ فبعد مظاهرات الجمعة العظيمة وذلك الزخم الكبير الذي أخذته الأحداث صار الوضع أكثر تشدداً من قبل أجهزة الأمن..

سقط في الجمعة العظيمة أعداد كبيرة من المتظاهرين. هي الجمعة الأكثر دموية في الثورة السورية. ويبدو أنة الوضع سيتغير من الآن فصاعداً..

رغم كلّ ماحدث لي ويحدث الآن في البلاد لازالت صورة تلك الفتاة عالقة في ذهني لاتبرح. أجد نفسي لاإرادياً أفكر بها؛ ثم أحاول أن أتجاهل ذلك التفكير لكنه يهزمني وتهزمني هي وتعود إلى المكان ذاته الذي ترفض أن تغادره منذ مايقارب الأسبوع.

هل ستهديني الصدفة لقاءها مرة أخرى؟

فلم يعتد الحظ أن يكون سخياً معي لدرجة أنه يلبي لي الأمنيات كلها.

هل ذلك الاسم هو اسمها الحقيقي؟

تلك المرأة بقوة ألف رجل، أخرجتْ رصاصة من جسدي كما لو أنها تخرج دبوساً من عجين، لم ترف لها عين كأنها معتادة على إخراج الرصاص أو إنها مجبولة بالفطرة على خشونة الرجال رغم كل ملامح النعومة والرقة في وجهها .

لكن شيئاً ما أخافني. فتلك الصورة المعلقة على جدار الغرفة تطرح ألف سؤال وتترك إجابة واحدة، ماعلاقة فتاة مثلها بهؤلاء الأشخاص مثلاً؟ ولماذا تضع صورة هذا الرجل بالذات؟ ولماذا تساعدني امرأة تضع صورة «المرشد الإيراني للثورة» كما يسمونه ؟ وماهو فحوى الحديث الذي دار بينها وبين رجال الأمن فخرجوا دون أن يفتشوا البيت؟

لكن خوفها عليَّ وحرصها الزائد على حياتي حتى بعد معرفتها بأنّي من الثوار لم يغير من الأمر شيئاً بالنسبة لها..

فقدْ أصرّتْ أن أبقى في ضيافتهم حتى أستعيد عافيتي بشكل كامل، وعاملتني وأمها بمنتهى الطيبة والاحترام كما لو أني أحد أفراد العائلة.

صحيح أن أمها لم تكن مرتاحة للأمر لكن ما يهمني هو النتيجة..

أخذني شرودي إلى مناطق أبعد مما رسمتُ، فأردتُ أن أقطعه لأتابع آخر الأخبار..

لاشيء جميلٌ كالعادة، فمنطق الجمال في هذا العالم قضية شائكة.

ربما لأجل ذلك نثور..

لأجـل زمـن مـضى دون أن نكـترث بـه، ودون أن نكـترث أن الثـورة قـدر يجب أن يكـون.

الذيـن حرَّكـوا التاريـخ وصنعـوه عاشـوا، ومـن نسـبوا أنفسـهم الى التاريـخ قسراً انتهـى بهـم المطـاف الى قاعـه..

نحـن هنـا مـرة أخـرى نبحـثُ عـن ثـورة ووطـن بـآن واحـدٍ، لذلـك سـخَّروا كل إمكاناتهـم لقمـع الثـورة لأنهـا أعظـم ثـورة هـزتْ أركانهـم، لأنهـا الثـورة المركبـة، ثـورة عـلى الظلـم والقهـر والقمـع، ثـورة عـلى نفايـات السياسـات القمعيـة التقليديـة، ثـورة عـلى كل عـدو للإنسـانية والحيـاة.

لكنَّ الجسد تابع زحفه، وتابع الدم مسيره..

كنـتُ أفكـرُ بآولئـك الذيـن قابلتهـم لأجـل نجـاح فيلـم مـا أو عـدد لجريـدة معارضـة للأنظمة.

كل الذين قابلتهم وتشابهت أقدارهم كانوا هنا منذ البداية.

لكنَّ الصدفة وحدها هي التي هيّأتْ أسباب اللقاء.

كانوا هنا قبل أن أكون هنا..

قبل وجودي..

وطفولتي وشبابي..

ولجوئي..

جمعهم القدر في كتاب القدر..

وأنا كنتُ مُكلَّفاً من القدر بالبحث عنهم جميعاً.

عندما تمرُّ بي لحظات العمل الصحفي المضني مع رفاقي وذلك التخفي العجيب الذي نمارسه في كلّ مرةٍ وتلك الحياة المتوترة القلقة التي نشعر معها أن الموت أو الاعتقال لا شك قادم..

أتذكرُ أمكنة الاختباء والعمل ولحظات الموت والترقب والأمل..

فتزداد رغبتي أن أجمع حكايات من التقيتهم لعلّ الصدفة تلمحهم معي جميعاً فيتغير

قدر الشعوب.

على ثورة..

على ثورة نلتقي..

أنا وأنتِ وذلك القدر المصحوب بالأعاصير..

على ثورةٍ نلتقي ..

نلتقي قادمين من عصورٍ سحيقة معتقة بالحزن..

على ثورةٍ..

على أمل..

علىٍ أبوابٍ مشرَّعة للريح والنار والرصاص وعبق الورد أيضاً.

أسألكِ ماذا تعرفين عن السياسة؟

تجيبين بتردد كأنّ السؤال ثقيل أوممل:

-السياسة هي ألاّ نعود.. لكنَّ السياسة كاذبة دائماً ولأنها كذلك فإننا سنعود حتماً.

ذلك جواب أم خالد الذي لاأنساه أبداً..

امرأةٌ تبني عليها ثورةً..

ثم فيلم..

فرواية..

فتاريخ..

لكن هنا أسئلة لوقت جديد.

هنا باريس إذاً..؟!

ماالذي أوصلكَ إلى هنا؟

أليسَ من المفترض أنك تمارس الثورة السورية وليس الثورة الفرنسية؟

سؤالٌ غريب يجتاحني، فقبل برهة من زمن كنت في دمشق، أما الآن فأنا في باريس..

في باريس.. كأنكَ تعيدُ اكتشاف مدينة أو فتحها مرة أخرى لكن دون سيوف أو جياد .

هي لغة الزمن ليس إلا، أو لغة الأشياء، فكل شيء لا يبقى على حال .

الأسئلة تطاردكَ دائماً، خاصة إن كنتَ غريباً في مكان ستعتاده شئت ذلك أم أبيت، فالمكان الذي سيغدو جزء من قدرك من الضروري أن تعتاده وتبني معه صداقة متبادلة..

صداقة قد تتحولُ إلى عشق من نوع خاص يتحول فيما بعد إلى حالة إدمان مبرمج أو تلقائي .

صباحٌ مكتمل التفاصيل إلا منها..

وتفصيلٌ آخر سأعرفه..

فمن هو مثلي يعشق التفاصيل أو يبحث عن اكتمالها..

حجرٌ بنـيُ اللـون جـداً يشـبه الشرفـات الدمشـية، وحـارات تضيـق وتتعـرج مثـل حـارات دمشـق أحيانـاً.

أسرار المـكان، غموضـه الـذي لازال.. وطريقـة التعامـل مـع تفاصيلـه المحبكـة يغـدو مثـل إليـاذة أخـرى.

على ثورة نلتقي أو على أمل بالضوء المنكسر..

باريس ليستْ تلك المدينة الفائقة الجمال فقط..

ليسـت تلـك المدينـة الارسـتقراطية المتعاليـة بكبريـاء أنثـى جميلـة فحسـب، بـل المتعاليـة لأنهـا سـبقتنا بالثـورة...

هنا أيضاً سراديب للموت والثورات ومناجم العظام..

زمن ليس قادماً إلا من حيث يعبر الثائرون الجياع..

التقيتكِ حيث يجب أن التقيكِ..

كان أحـد أصدقائي القدامـى ويدعـى شـاكر قـد اقـترح عـلي أن أقابـل شـخصاً يعمـل في المركـز العـربي في باريـس ثـم أقـدم فيلمـي إلى هـذه الجهـة المختصـة لعلهـا تسـاعدني في عرضـه هنـا في باريـس، كـما حدثنـي عـن فتـاة مـن أصـول عربيـة تربطـه بهـا علاقـة صداقـة قديمـة قـد تسـاعدني في هـذا الموضـوع..

ربـما لم يصححـوا عبارتهـم، كأن يقولـوا -مثـلاً- أن الفتـاة سـورية الجـذور، لم يضيفـوا حولهـا شـيئاً آخـر، لكـن مايهمنـي أن أحـداً مـا ينتظـرني أو أنتظـره وعـدا ذلـك مـن تفاصيـل قـد لاتعنينـي .

المكان: -وبعد جهد جهيد- المركز العربي في باريس.. أو جزء منه..

الزمان: زمن الثورة الذي لازال.. وصيفٌ باريسي ليس حاراً لدجة التصوف.

طرقتُ البابَ، صوت أنثوي هادئ يطلب مني الدخول.

كانت منشغلة بالحديث مع شخص آخر، أشارتْ إليَّ بالجلوس والتفتتْ باتجاهي مبتسمة ابتسامة ترحيب خفيفة، أغلقت هاتفها، رتبتْ شعرها وقالت:

-أهلا بكِ، أعتذر لأنّي جعلتكَ تنتظر كثيراً..

فاجأتْني أنها تتحدث بالعربية بلسان عربي فصيح أيضاً رغم ملامحها الأقرب إلى الملامح الفرنسية الغربية، شعرٌ أشقر مجعد مائل إلى البني، ليس مرتباً بما فيه الكفاية، وعينان زرقاوان متسعتان جداً، وربما هما الصفة العربية الأجمل الموسومة على وجهها، وهي سعة تلك العينين، وأناقة عفوية بسيطة من دون ابتذال..

لكن ماالذي يجعلني أجمعُ تفاصيل الأشياء والأشخاص منذ أول وهلة، هل أنا هنا كي أرتّب ميعاداً للحب أم ميعاداً لعرض قضية؟

التقاط التفاصيل ليس بحكمي رجلاً، بل لأنكَ عندما تنتظر لاتجد سوى التفاصيل..

تفاصيل الأشخاص والأشياء التي تلهي بها نفسك ريثما تعرف ما سيكون بعد لحظات.

إذاً الانتظار هو السبب..؟!

عقَّبتْ مرة أخرى بعد أن شعرتْ بشرودي وكأنها قرأت أفكاري أو شعرت بأفكار متذمرة تجتاحني بصمت:

-لعلك مللْتَ من طول الانتظار..

قالتها بينما كانت تكتب شيئاً ما على الكومبيوتر، ولم تكن قد التفتْ إليَّ إلا لثواني.

رددتُ على لطفها:

-لا أبداً، كلها عشرون دقيقة..

قلتُ عبارتي هذه ثم حال الصمتُ بيني وبينها..

(عشرون دقيقة قد تكون مدة فيلم ما..عشرون دقيقة قد أكتب بها فصل من رواية..عشرون دقيقة قد أكتب بها مقالاً صحفياً، عشرون دقيقة قد تستغرق مقابلة مع زعيم سياسي، عشرون دقيقة قد تغيّر مصير أمة بحالها، عشرون دقيقة هي المدة التي تحتلها أم خالد في الفيلم.. عشرون دقيقة قد تحدث تغييراً استيراتيجياً أو اقتصادياً أو سياسيا هاماً..)

قلتُ ذلك في نفسي. قلته كله دفعة واحدة دون أن ألتفتَ لوعورة الطريق ووخزة الأشواك..

أما هي فقد تابعتِ الكتابة..

ثم توقَّفتْ فجأةً، ونظرتْ إليَّ بكاملها وقالتْ :

-ماذا تحب أن تشرب،لدينا قهوة عربية وشاي وعصير و..

رددتُ ببساطة :

-لا داعي لذلك فلن أعطلكِ أكثر من اللازم

قالتْ:

-لا أبداً أنا من عادتي أيضاً أن أشرب القهوة أثناء عملي.

-حسناً إذا كان لا بدَّ من ذلك فسأشربُ القهوة.

غابتِ المرأة لدقائق. دقائق تعدت العشرة.. ضحكتُ من نفسي كثيراً..

ضحكت في سري من طلبي الغريب..

فأنا أريد قهوة..لكنني لم أحدد نوعها أهي ذات سكر وسط أم من دونه أثقيلة أم خفيفة..؟ يبدو أني لازلتُ تحت تأثير «اللابتعاد».. أم تلك أنفاس الوطن تتسلق شغف القهوة. وهل أنفاس الوطن تشبه رائحة القهوة التي لايمكن أن تكون عابقة إلا في سورية.. في سورية وحدها.

جاءتْ فقطعتُ أفكاري بدخولها وهي تناولني فنجان قهوة مختلف. شكرتها وقلتُ:

-أحدُ الأصدقاء اقترح علي أن أزوركِ علك تساعديني أنا وكما تعرفين لديَّ مشروع مهم جداً وقد صار بالنسبة لي هاجساً هناك جهة محددة تبنتْ مشروعي الخاص لكنَّ الأمر قد يحتاج إلى وقت هناك عائق آخر وهي الترجمة باعتبار أنكم الجهة التي ستقوم بعرضه في أوروبا وانطلاقاً

من فرنسا، لذلك أنا بحاجة إلى ترجمته إلى اللغة الفرنسية، ولا أعرف مدى قدرتك على إنجاز هذه المهمة.

-لا مشكلة عندي..

قاطعتكِ:

-شاكر كان همزة الوصل ..

قلتِ:

-أه طبعاً اتصل بي شاكر وحدثني عن قصة الفيلم وعنكَ أيضاً. شاكر الصفدي أعرفه جيداً، نلتقي أحياناً ببعض الفعاليات، هو رسام تشكيلي ونحات أيضاً، يقيم معارض أحياناً، وله حظوة في باريس، والصحافة الفرنسية تكتب عنه باستمرار. لكن منذ متى تعرفه؟

أجبت:

-منذ سنين قبل أن يأتي إلى فرنسا لمتابعة دراسته العليا في الفنون الجميلة.

كنا أصدقاء لفترة طويلة، وقد حافظنا على صداقتنا حتى في فترة وجوده هنا في باريس، كنا نتواصل بشكل دائم..

سألْتني:

-منذ متى أنتَ هنا في فرنسا ؟

ـ منذ حوالي سنة ونصف تقريباً.

-منذ سنة ونصف وأنت هنا لم يحصل أي تقدم في الفيلم.. ولم تعرضه رغم أنه مكتمل فنياً..!

-نعم هذا ماحدث والسبب أن استقراري النفسي والمجتمعي قد تأخر.

مدة بقائي في مخيم اللاجئين هنا في فرنسا كانت طويلة استغرقتْ تسعة أشهر وبعد

أن حصلتُ على الإقامة بقيت في المخيم لأني لم أعثر على سكن. قبل نحو عدة

شهور وجدتُ بواسطة بعض المعارف شقة صغيرة هنا في باريس. بنظري التفرغ

لهذا العمل والترويج له كان يحتاج إلى نوع من الاستقرار والعلاقات أيضاً.

ـ وجميل أنكَ حصلت على الإقامة..

-وجميل أني حافظتُ على نشاطي الصحفي بخصوص الثورة عندما كنت في

المخيم. وكذلك أنهيت كتابة رواية عن الثورة السورية.. هي أفكار قديمة شبه مسودة لكني أتممتها هنا وقريباً جداً سأقوم بطباعتها.

ـ جميل جداً..فيلم ورواية وعمل صحفي دائم..

-شكراً لكِ.. وشكراً لأني سأتعبكِ معي لكن الحق كله على شاكر..

ضحكتِ وقلتِ:

-لابأس، على كل حال كلٌّ بمقابل، نسخة من الرواية وبطاقة لمشاهدة العرض الأول للفيلم.

قالت هذه الكلمات ولم تقل سواها، وتابعتْ كتابتها على لوحة الكومبيوتر ولم أعد أسمع سوى صوت «قرقعة» لوحة المفاتيح ثم قالت:

-لدي شيء أريد أن أنهي كتابته بسرعة، أنا أعتذر منك، يمكننا أن نتحدث وأنا أكتب، هل لديك مانع؟

أجبتُ :

-لا أبداً (خذي راحتك) .

عاد الصمت ليحول بيني وبين امرأة أخرى، أحاول ألا أجعلها شخصية روائية، بل امرأة واقعية أمارس معها الواقع لا الخيال، لكنها تصلح جداً أن تكون حبيبة البطل، فهي راقية مثل جادة باريسية، أرستقراطية مثل طبقاتها، وفوضوية بتلقائية الشرق كحارة دمشقية، أخذني شرودي المهذب إلى ساحة المنازلة معها..

فكيف يسمح لي خيال الرجولة أن أتغزّل بامرأة أراها أول مرة وتربطني بها علاقة عمل تقتضيه الحاجة والمكان والغربة البعيدة..

كيف أسرد عنها كل هذا المدح وكأنها صارت حبيبة شاعر الأطلال، مالي والنساء!

ألم أتعلمْ من تجاربي السابقة الفاشلة؟! قطعتُ شرودي وعدتُ إلى الواقع أجمع شتات الشرود الطويل وسألتها سؤالاً ساذجاً جداً كما لو أن الأسئلة نفذتْ:

-منذ متى تعيشين هنا؟

أجابت دون تردد:

-ولدتُ هنا، وأنا من حمص.. أقصد أبي سوري وأمي سورية لكنها متوفاة..

توفيت منذ سبع سنين تقريباً.

ـ رحمها الله..إذاً أنت سورية؟ لم يقولوا لي ذلك

ـ نعم جذوري سورية..

ـ وأباك.. يبدو أنه مهاجر قديم ؟

وقبل أن أكمل تابعت هي وكأنها عرفت ماذا أريد أن أسأل فأجابت مقاطعة سؤالي:

-أبي لجأ الى فرنسا في آواخر الثمانينات، أخذ نصيبه من سجون النظام السوري ثم طلب اللجوء في فرنسا وحصل عليه بسهولة ربما بسبب ديانته.. لست متأكدة.

أو ربما بسبب ماعاناه في السجن، في ذلك الوقت كان من المؤكد الحصول على لجوء سياسي، فاللاجئون كانوا قلة ؟

ـ هل هو مسيحي؟

ـ آه..نعم.

ثم عقبتْ وكأنها قرأتني جيداً:

-كأنك تفاجأت؟ هل توقعت أنني أنتمي لديانة أخرى كالإسلام أو..طبعاً ذلك يشرفني أيضاً..

قالتها مبتسمة بأقرب للمزاح:

قلتُ:

-لا أبداً ليس كذلك..فنحن السوريون لاندقق في هذه الأمور؟ نحن نتعايشُ مع كلّ الطوائف منذ مئات السنين ربما في الفترة الأخيرة لعب النظام على وتر الطائفية مع اشتعال الثورة. فهو بالأساس نظام طائفي..

نحن منذ أكثر من أربعين عاماً تحكمنا طائفة واحدة. لكن بالنسبة للشخص لايمهني كثيراً دينه إن كان إنساناً يؤمن بما هو جميل.

ثم قالتْ وكأنها تريد أن توضح زلة لسان أو سوء فهم :

-لكن ليس بسبب ديانته حصل على اللجوء في دولة ديانتها هي المسيحية؟ لقد مر باجراءات بيروقواطية حتى ناله بصعوبة ثم إنه كان يتقن الفرنسية فقد كان مترجماً..

مثلاً عاش ثلاث سنين في مخيم اللجوء قبل الحصول على الإقامة؟ كانت الإجراءات طويلة؟ تصل أحياناً لسنين؟ وفي تلك السنين الثلاث كتب أول كتاب له يحكي أيامه في المعتقل الذي قضى فيه سنين وكان بين خروجٍ ودخول..

سألتها:

-وما اسمه؟

أجابت دون تردد :

-زاهر حداد

أردفتُ على كلامها:

-سمعت عنه الكثير.. لم أقرأ له لكن اسمه كان يمر معي بحكم عملي في الصحافة وكذلك كثرة البحث والاطلاع.. ويسرني الآن أن ألتقي بابنته.

أجابت :

-ويسرّني ذلك أيضاً..

عبارة واحدة اكتفتْ بها وكأنها تذمرّت من أسئلتي عكس مايبدي وجهها.

ثم تابعت:

-هو الآن يعمل بالترجمة إضافة إلى التأليف. وكما تعرف الترجمة عمل شاق ومضن هو أشبه بعملية كتابة أخرى لنص أو كتاب لقد ترجم الكثير من كتب المفكرين الفرنسيين والسياسيين منهم على وجه التحديد.

وبعد أن أنهتْ كتابتها على الكومبيوتر استدارتْ بكاملها بوجهٍ نصفه فرنسي ونصفه عربي قائلة:

ـ أنتَ كاتب إذاً وصانع أفلام؟!

قلتُ:

-هو كذلك، وأتمنى أن يحظى الفيلم بفرصة جيدة للعرض، العمل فيه استغرق مني ثلاث سنين. بدأ مع الثورة، وتابعته على الحدود السورية التركية، هناك مخيمات للألم فقط، وفي تركيا أيضاً التقيت بأشخاص آخرين..

-يبدو أنه أخذ من عمرك الكثير.. ولابد أنه يغري بالمشاهدة.

-أفهم من كلامكِ أنكِ لم تشاهديه بعد ؟

أجبتِ:

-عندما أحضرَ لي شاكر الشريط للترجمة كنتُ مشغولة جداً ولم أعلم أنكَ قدمته للمركز منذ فترة، يبدو أنَّ الملف كان عندي لكنني لم أنتبه إلا عندما اتصل بي شاكر، وحتى اللحظة للأسف لم أجد الوقت المناسب، ثم أني بحاجة إلى نص مكتوب وسيناريو الفيلم إن تو فر ذلك، وبعض التوضيحات منك، خاصة بما يتعلق باللهجة السورية التي يتحدث بها الأشخاص. لذلك أعتذر منك أني لم أباشر ذلك. لذا طلبتُ لقاءك.

-لاعليكِ أبداً، يبدو أنه خطأي، كان يجب أن نلتقي قبل هذا التاريخ لتفادي هذه الأمور. الفيلم مركبٌ بعض الشيء، فهو مقابلات وشهادات لأشخاص، ومشاهد دمار، وقصص ألم لم ينتهِ حتى اللحظة.

قلتِ :

-ذلـك مؤسـف حقـاً. مايحـدث في سـورية مأسـاة بشريـة لم تمـر عـلى العـالم منـذ زمـن الحـروب العالميـة..

صمـتٌ سـاد جـو المـكان.. يبـدو أنـه مقدمـة لنهايـة اللقـاء بينـي وبينهـا..

ثـم نهضـتُ ونهضـتْ هـي كأنهـا تنتظـر انـصرافي كـي تتابـع عملهـا الـذي يبـدو أنهـا مشـغولة بـه وأنـا مـن قطعتـه..

مدَّت يدها وصافحتني بابتسامة ديناميكية:

-سرَّني جداً أن أعرفكَ.

أجبتُ على لطفها وكانت يدي لاتزال بيدها:

-وشرفٌ لي كذلك..

سحبتُ يدي من يدها وانصرفت..واستدركتْ قائلة :

-إن كان لديـكَ وقـت سـنلتقي بعـد غـدٍ في التوقيـت نفسـه بخصـوص بعـض التوضيحـات وبعدهـا يمكـن أن أبـدأ عمليـة الترجمـة وباعتبـاره فيلـم مدتـه سـاعتان أو أقـل فلـن يأخـذ كثـيراً مـن وقتـي.

-هـذا يسـعدني جـداً وأنـا بغايـة السـعادة للتعامـل معـك. إذاً بعـد غـد؟

-نعـم ..سـأكتب رقـم هاتـف المكتـب وهاتفـي الخـاص للتنسـيق يمكنـك الاتصـال بي كـي نحـدد ذلـك.

ناولتني الورقة ثم انصرفتْ..

امرأتان وثورة..

كيفَ تحاولُ أن تهرب من أسئلة أنثى.. امرأة تحاولُ دون قصد أن تنبش مقبرة الماضي في داخلك؟

مزعجةٌ مقابر الماضي؛ حاضرة حدائقه فينا.

أثرها مثل زلزال لكنه لا يحطم سوى جدار الصمت..

كالثورات.. الثورات هي نقيض الصمت دائماً .

هل مازلتُ رغم كل ذلك الخراب و الهزات المتتابعة أراك بثوب ثورة ؟

زمنان متسابقان متوازيان على زمني.. أحاول الهروب من أحدهما كي أوازن روحي على زمنٍ حاضر.. أريد أن تنتهي الأسئلة هنا؛ وأدفنها هنا لأنّي أبحثُ فقط عن اليقين«ماريا حداد» اسم نصفه شرقي ونصفه الآخر غربي..

تسكن باريس وكأنها لهذا المكان فقط. كاتب مثلي يبحث عن تفاصيل جديدة.

ربما يبحث عن امرأة أخرى يبني عليها قصة لا تتعدى حدود رواية.

هل أنا مريض باللقاءات العابرة الأولى التي تغوي أفكاري لمزيد من الأسئلة.

خرجتُ من تحت مطر ثورة أو من تحت مطر أنثى؛ وكأني لم أعرف امرأة تمارس دور البطولة في تخيلاتي..

(هنـاك أبطـال استـثنائيون أريـدُ أن أبقـى عـلى تواصـل روحـي معهـم) قلـتُ لـك فانتهـى مجمـل الحـوار..

حوارٌ لم يبدأ..

سيبدأ بعد قليل..

التقيتكِ مرة ثانية وكأنها المرة الألف..

انتظرتكِ في مكتبكِ لدقائق..

لم تكوني هناك..

وكنتُ قبل حضوري اتصلتُ بك لترتيب الموعد المبدئي.

الفيلـم الوثائقـي الـذي أعددتـه عـن الثـورة السـورية قبـل سـنين شـكل بالنسـبة لي هاجساً فلـم يعـد ذلـك القلـق بالنسـبة لي أمـراً طبيعيـاً فحسـب بـل صـار الهـواء الـذي أتنفسـه. صرتُ أهتـم اهتمامـاً مبالغـاً بـه بـكلّ الأشـخاص الذيـن يرتبطـون بقضيـة هـذا الفيلـم مـن قريـبٍ أو مـن بعيـد.

وأنتِ كنتِ من هؤلاء..

فجأة جئتِ فبادرتني بالتحية قائلة:

-أعتـذرُ للمـرة الثـاني لأني جعلتـكَ تنتظـر وللمـرة الثانيـة أيضـاً.

ودون فاصلٍ تابعتِ:

-لـدي الكثـير مـن الأسـئلة.. والكثـير لأقولـه.. البارحـة شـاهدتُ الفيلـم..

بعـض الأشـخاص الذيـن كانـوا يتحدثـون اسـتصعب عـليَّ فهـم لهجتهـم. صحيـح أنهـا لهجـة سـورية بحتـة لكنـي كـما تعلـم ولـدتُ وعشـتُ هنـا. لكـن عندمـا كنـتَ تتحـدث باللغـة الفصحـى كان الأمـر سـهلاً عـليَّ.. المشـكلة عنـدي هـي اللهجـات..

أجبتكُ:

-جميـل أنـكِ شـاهدته.. أنـا سـعيدٌ بذلـك، وبالنسـبة لبعـض تلـك الصعوبـات في اللهجـة سـأوضحها بالتأكيـد

- عـلى كل حـال أنـا دوّنـتُ كل تلـك الملاحظـات عـلى الـورق..

-لم أسمع رأيكِ..!

-يكفي أني أول من شاهده على الأراضي الفرنسية..

قلتِ ذلك مازحة...

أما أنا فلم أكرر سؤالي..

ربـما لـك رأيـك الـذي لـن يكـون مجاملـة تـأتي بإلحاح السـؤال لكنـك قطعـتِ الصمـتَ قائلةً:

-كنـتَ قاسـياً في عـرض الجـراح.. لكنّـه شـدّني منـذ أول لحظـة.. رأيـي ليـس مهـماً فأنـا هنـا لسـتُ ناقـدة. ينبغـي أن أقـوم بأعـمال الترجمـة فحسـب..

شـعرتُ أن أسـلوبكِ المـرح يخفـي إعجابـاً بهـذا العمـل، فقلـتُ لك :

-أنت درستِ النقد السينمائي؟!

-نعم.. لكني لن أنتقد الفيلم في الأعمال التي تلامس جرحاً إنسانياً عميقاً كالجرح السوري -مثلاً- نحن لانبحث عن النقد بقدر ما نبحث عن القيمة المضافة إلى الضمير والحس الإنساني..

- لكن لن تكون أبداً فوق النقد..

-طبعاً طبعاً..

ثم تابعتِ بعد لحظات صمت:

-لكنَّ الفضول يدفعني لأسئلة كثيرة.. أنت مثلاً مثلُ شخص يهرب من قصة فيكتبها ليبرر كيف فشل في تلك القصة ولم يكملها إلى آخرها قد تكون قصة حبّ وقد تكون قصة وطن وقد تكون الاثنين معاً..

تفاجأتُ ولم أعلّق..

تفاجأتُ كيف قرأتني.. كيف لاحظتِ هروبي..

ثمّ شعرتُ أني أبالغ نوعاً ما فربما كان رأيها أو تحليلها شبه عفوي أو جاء مصادفة لكن مثل تلك الكلمات قد لاتأتي مصادفة..

رددتُ على ذكائها بالهروب :

-هي تفاصيل أتجنبُ الخوض فيها الآن إنها أكبر من الوقت العابر..

قالت:

-لماذا تهربُ منها مادمت حفَّزتَ المشاهد أو المستمع أو القارئ لمعرفتها؟ الناس لاتبحث عن نصف حقيقة.. الناس تحب أيضاً أن تقرأ شخصية من يقدّم لهم المادة الثقافية. الناس فضوليون جداً ويحبون الورائيات..

قلتُ:

-أنا لم أقل نصف حقيقة، ربما في زاوية معينة تركتُ شيئاً للمتلقي كي يُعْمِل خياله..

لذلك تجنّبتُ بعض التفاصيل، في المقابل أضأتُ كل الزوايا المعتمة..

قلتِ:

ـ هكذا أقنعْتَني .

ثم أردفتِ:

-الفيلم رائع جداً، سيضرب بقوة، وسندعمه..

أجبتها:

-أعتقد أن مصطلح يضرب بقوة ليس المناسب في هذه الحالة، أليس كذلك؟

إلا إذا كنتِ تنظرين إليه كإعصار، فهذا يعني أنك تعطينه مرتبة متقدمة.

عقّبتِ على كلامي بعبارة واحدة:

-إعصار مشروع..

سألتكُ بعد لحظات صمت:

-هـل أنـت عاملـة متطوعـة أيضـاً في مجـال حقـوق الإنسـان أم إنـك تعملـين...؟

وقبل أن أكمل أجبتِ:

-لاأبداً أنا متفرغة أيضاً لعملي بحكم دراستي...

غـيرتْ جلسـتها وكأنهـا تريـد إنهـاء الحديـث عـن الفيلـم، ثـم نظـرتْ اليَّ سـائلة بخفـر عـربي:

-هل أعجبتكَ فرنسا؟

أجبتُ دون تفكير طويل على سؤالها التقليدي:

-عندما لانختار قدرنا فالأشياء يجب أن تعجبنا.

ردت علي كمن تفاجأ بالإجابة اللادبلوماسسية :

-لماذا؟هل لأنك لاجئ من حرب..؟

أجبتُ:

-أنـا لسـتُ لاجئـاً مـن حـرب، أنـا هـارب مـن ثـورة لم أسـتطع أن أكملهـا فأكملـتْ نفسـها بنفسـها.

قالت وكأنها شعرت بذنب طرح الأسئلة:

-لم أقصد أن أثير شيئاً من الأسى داخلك..

ـ لا أبـداً ليـس ذنبـكِ، سـؤالك عـادي لكـن القصـة طويلـة تحتـاج لوقـت..

هنا انتهى الحوار بيني وبينها..

وانتهى الزمن الذي احتفى بهارب مثلي..

هاربٌ من ثورة أو قضية..

هـاربٌ لكنه لازال يتابع القضيـة كأنـه صـار هنـا أكثـر أو أقـل شجاعة..

هـل تحـاولُ أن تهـرب الآن مـن قصـة حـب مضـتْ أو قصـة سـتأتي؟

شـعرتُ أن كلـماتي قـد أشـعلت فيهـا الخيبـة، فهـي أرادتْ اكتشـافي مـن جديـد وأنـا ألغيـت هـذا الفتـح.. ألغيتُ الفتح قبـل أن يبـدأ، لم أمنحـك فرصـة مـع أنّ نـداء رجولتـي طلـب منـي أن أمنحـكِ فرصـة اكتشـافي..

فلماذا هربتُ منكِ كما هربتُ من ثورتي؟

هل لأني أحاول أن أشفى من قصة قديمة؟

لاأعـرف كيـف يحلـو لي أن اذكـر اسـم امـرأة تابـتْ عـن ذنبهـا بعـد اكتشـفت أنهـا تعمـل ضـد الثـورة وإرادة الشـعوب..

يبـدو أني قـد أقحمـتُ كل القضايـا هنـاك.. لكـن الفيلـم للثورة ومـن حقـي أن أعـرض مايجـري عـلى الأرض. الهيمنـة الفارسـية الإيرانيـة في دمشـق إحداهـا، ومظاهـر التدمـير في دمشـق ومـدن مـررت بهـا حتـى الشـمال بعـد خروجـي مـن البـلاد.. ومجـزرة

الكيماوي في غوطة دمشق التي صمت عنها العالم بعد أيام فقط ومرت مرور الكرام مثل كل مجزرة ارتكبها النظام السوري وكان ضحاياها بالآلاف..

أنا لستُ مؤرخاً للثورة لأنّ تفاصيل البشاعة لايمكن احصاؤها، إنها كثيرة جداً، تفاصيل الألم والوجع والدم المتناثر كل يوم، ونحن الذين كنا نعد قتلانا فقط، وننتظر اليوم الذي يليه كي نقارن بين الأيام أيها أكثر دماً.

لماذا كل هذا الخراب، لماذا كل هذا الدم، ولماذا حصل كل ذلك ؟

كل الأسئلة تحاصرني.

وسؤال واحد يضيق خناقه حولي فتجوع عندي كل الإجابات، كيف هربتُ؟

ولماذا أنا هنا؟

هل لأني أقل شجاعة وأكثر خوفاً ممن بقوا هناك؟ أم لأني أحمل في جعبتي فيلماً بقيت أعمل فيه سنين كي أعرضه في منابر أوروبا التي صمت سياسيوها عن قتلنا وعن قاتلنا.

أنا أقنعهم وهم المقتنعون، أم أنا أزيد جرعة قناعاتهم وهم العارفون؟

أليسوا هم من زرع في بلادنا تلك الأنظمة القاتلة ثم يحاولون الآن أن يشتموها أمام الكاميرات كي يجاملوا بعض حقوق الإنسان المنسية أصلاً من قاموس الإنسان؟

أبطاله أشخاص على قيد النسيان، وبحكم التاريخ يجب أن تدوّن أسماءهم.

نصف الأبطال هن نساء، إحداهن ثكلت أولادها فلقبت بخنساء الثورة وماأكثر خنساوات الثورة! وإحداهن مثل الكثيرات تعرضتْ للاغتصاب في أقبية السجون، ومنهن من أرادتِ البوح بصوت مخنوق، وبعضهن لزمن الصمت ومن حقهن الكلام، لأنَّ العار هو عارنا نحن جميعاً، عار جلادهن وعارنا نحن الذين سمحنا بذلك..

وأجسادٌ بلا ملامح تناثرت إرباً في الفضاء المنافق..

كلٌّ ملامحنا اختفت..

كل ملامح رجولتنا الجوفاء البالية العقيمة..

هزمتْنا امرأة اغتصبها الجلاد وهي واثقة أنها أشرف من ألف رجل منا.

ملامح الزمن الرديء المهترئ الذي لم يصرخ بوجه قاتلنا.

كلنا أبطال لمسرحية حقيقية، أبطال رديئون أحياناً وأحياناً يتفوق علينا طفل يملك من الإيمان والحكمة مالايملكه أكبر الحكماء.

نتسولُ المواقف وهي حقنا كما المتسولون في شوارع أوروبا أو مدن الشرق.

ثم نقول إنها فاتورة الحرية والدم، فالتحرر من عبودية الطغاة يحتاج الى فاتورة مضاعفة وتصبح حتى المواقف

صعبــة المنــال ..

يــوم درامــي سرى بسرعــة مفعــول أملــه الــذي تــسرب خلســة . شــعرتُ أن كلام تلـك الفتـاة قـد أعطـاني جرعـة أمـل بعـرض الفيلــم في منابـر عديـدة بعـد مهمـة الترويـج لـه..

أنا الآن انتظر أملاً..

أنتظــر رداً بــأن يقولــوا لي بــأني قــد حصلــت عــلى موافقــة عرضــه

أنتِ للمرة الثالثة..

ولأجل ذلك قرّرتُ أن ألتقيها مرة ثالثة..

أخرجـتُ مـن جيبـي بينـما كنـت أسـير في ذلـك الشـارع الباريـسي الحـالم تلـك الورقـة التـي

تحـوي أرقامـاً لهاتـف مـا.. لامـرأة مـا.. تفصلنـي عـن معرفتـي بها سـاعات..

ساعاتٌ باريسية ولحظة عطر..

صباحٌ باريسي آخر يبعث أملاً قد يتأخر..

أأتابع الكتابة هنا؟

قبـل لحظـاتٍ كنـتُ أدقـقُ في تفاصيـل مسـودة الرواية وأشـذبُ مايحتـاج فيها إلى تشـذيب..

أصدقاء قدامى أتواصل معهم بين حين وحين..

عملٌ نصفي فقط كي أتفرغ لكتابة الرواية..

وباحـثٌ عـن عمـل في منابـر الصحافـة هنـا، لكنـي لازلـتُ أعمـل مـع فريـق تحريـر جريدتنـا القديمـة مثـل زيـد الصديـق القديـم الدائـم وآخريـن بعـد توسـعة العمـل، وذلـك بعـد أن تـمَّ نقـل مقـر عمـل الصحيفـة إلى الحـدود السـورية التركيـة.

امرأتـان إحداهمـا أنـت والأخـرى مثـلُ أهـداب الليـلِ العابـث بي، وأخريـات كثـيرات لاأجهلهـن أبـداً فأنـا كتبـتُ بيـدي اليمنـى جـزءاً مـن حياتهـن..

جـزءاً مـن خيباتهـن وأوجاعهـن، ولحظـات انتصارهـن عـلى الوجـع.

«تقولـين متـى نلتقـي؟ أقول: بعـد عـام وحـرب. تقولين: متـى تنتهـي الحـرب؟ أقـول: حـين نلتقـي.»

التقينا للمرة الثانية أو الثالثة..

ترتجـفُ أصابعـي وأنـا أضغـط أرقـام هاتفـك عـلى هاتفـي الجـوال خشـيةً مـن تطفـل لاتفسـير لـه.. غريبـةٌ جـداً أصابعـي لمـاذا ترتجـف كلـما أرادت الحديـث مـع امـرأة؟!

ثـم شـعرتُ أنـه مـن غـير اللائـق أن أرسـل لـكِ رسـالة، فيجب أن أتصـل بـك وأكسر حاجزالخجـل الـذي يجعلنـي مـترددداً في إتمـام الاتصـال.

كان صوتـكِ.. يشـبه أصـوات كلّ النسـاء، لكنـه لايشـبه إلا صوتـكِ.

قلـتِ لي أنـكِ سـتختارين مقهـى شرقيـاً عربيـاً لكنـه لم يكـن سـورياً، ذكـرتِ بأنـه مقهـى لـه طابـع شرقـي، فهـل أنـتِ لاتحبين أن تظهـري مـع شـاب تحـت عدسـات المراقبـة والفضـول، لذلك لم يكـن سـورياً..

هكـذا فهمـتُ موقفـك ومرافعتـك اللطيفـة عـن اللقـاء، قـد يكـون حـدسي مخطئـاً ولكـن..

كان المقهـى مغربيـاً، أغلـبُ رواده مـن تونـس والمغـرب والجزائر، درجـة الفضـول عندهـم أقـل منـا نحـن المشرقيـين، ربـما..

في زاويــة مــا يجلــس أشــخاصٌ يتحدثــون بلهجــة مغربيــة سريعــة جــداً لم ألتقــط منهــا مايمكــن أن أفهمــه.. في زاويــة أخــرى تتعلــق سـجادة حائـط مــن اللونـين الاحمــر والأسـود بنقــوش شرقيــة وطابــع عــربي كأنــه شيء أبقــاه الأندلســيون، ودخــان النراجيــل يذكــرني بالشــام..

وأنفــاس الســجائر أتــى بالزمــن المنــسي إليّ دفعــة واحــدة.. ورغــم أن رائحــة القهــوة لاتشــبه قهوتنــا لكــن حميميــة المــكان وامتــزاج الروائــح والألــوان جعلــه أقــرب لمملكــة شرقيــة في

زمان ومكان مختلف..

وكأني معكِ أتحدث عن الثورة والوطن المفترض..

أنا وأنتِ وهذا القدر المصحوب بالأعاصير..

لا تعــودي أدراجــك إلى رفّ الغيــاب.. أعــرف أنــك ســتقحمين الحــب في الثــورة عندمــا ســتُكتب الثــورة بعــد انتصارهــا..

لكن لم اقترنَ زمن لقائنا بزمن الثورة؟

ولو لم تكن الثورة، هل كنتُ سألتقيكِ؟

ولــو لم يكــن حريــق بوعزيــزي، هــل كانــت ستشــتعل الثــورات في هــذا الزمــن العــربي الــرديء الموحــل الــذي تظاهــرتْ فجيعته عــلى الفجيعــة؟

هــل كنــا معــاً حقــاً قبــل أن نعــرف محمــد بوعزيــزي و نســتضيء بناره..؟!

ماالذي تغيَّرَ بعد نار محمد بوعزيزي وقبله..؟

كلُّ الأبطـال القادمـين بسـيوفهم مـن أسـاطير بعيـدة سـيلتقون هنـا..

هنا خارج القيد والوهن والليل..

وحتى خارج نبوءة أبي القاسم الشابي:

إذا الشعبُ يوماً أراد الحياة فلا بدَّ أن يستجيب القدر

إنَّـه القـدر حقـاً.. والطريـق إلى الحيـاة لايبـدأ عـادة بنبـوءة شـاعر.

كأنـكِ البطلـة المفترضـة التـي قالـت لي:أضـاف محمـد لنـا الحيـاة عـلى المـوت؛ ووهبنـا لـه بعـد جسـده أجسـاداً..هل كان يعـرف كل ذاك؛ أم أنّ في دمـه صدفـة احترقـت فـوق ركام بثـوب الفضيلـة؟

أعـود الى حـوار سـابق مـن زمـن مـضى مـن عمـر الثـورة وكأنّ كل تفاصيلـه زخـتْ عـلى انتظـاري لـكِ..

وكأنـكِ تقولـين لي مـن جديـد : اتـرك الرصاصـة بيـدي فالقـدر الجميـل لا تغـيّره رصاصـة..

القدر الجميل لاتغيّره رصاصة..

عبارتكِ الشهيرة التي كتبْتُها على جدران الحرية..

كلُّ الرصـاص أمطـر عـلى جسـدي؛ لكـنَّ إحداهـا لم تصبنـي كامـلاً؛ أصابـت جـزءاً منـي..

لم أمتْ تلك الليلة..

للمرة المئة لم أمت رغم زخات الغدر..

وحلمي الذي اخترق جدار صوتكِ عاد إليَّ بالخيبة من جديداً وظلت الرصاصة في يدكِ وكلامك اختزل الحكاية فلم أكن محتاجاً الى راجمات أحلام أو مضادات عشق..

عشقتكِ من دون لوناً وحتى اللحظة لازلت أسأل(هل كان حباً)؟

والتقينا..

ولم يخبُ ضوء القناديل.. والمدينة غرقتْ في صمتها وتحت الصمت ثورة هيَّأها قدر انتظرناه منذ أربعين عاماً..

غبنا أمداً..

صرتِ أحلى بعد الغياب..

فهل تذكرين آخر لقاء؟

لم يتغيَّرْ فيكِ شيء..

وجدتُ وطني في عينيكِ..

(عبارة روائية للبطل)

عاتبتْني بينما كنتِ تحدقين بأثر اصابة قديمة لكنها ليست قديمة جداً.

عندما افترقنا لم تكن موجودةً لكنكِ تفضلين تغيير المصطلح وتصرّين على ذلك.

وأنا عندي إصرار أكبر من حجم الألم. كنتِ حاضرة تلعبين دور البطولة في تلك الرواية.. وفي كل زوايا حرماني ولحظاتي وفواصل الأمل التي تسربت من بين أصابع الوجع..

استطالتْ أصابع الطغاة وتأخر اللقاء..

استيقظتُ من غيوبة انتظارك وشرودي الطويل..

هو صوتكِ وحده الذي أيقظني وقد جئت أخيراً:

-آسفة تأخرتُ عليك، إنها زحمة باريس ..خفتُ أنكَ لن تجد المقهى بسهولة

قلتُ:

-لا أبداً، مذ أعطيتني العنوان وضعت الاسم على الخرائط ووجدته بسهولة، تعلمتُ في فرنسا أن أكتشف الأماكن بشكل مسبق، خاصة إن ربطني بها ميعاد مع شخص ما، لكن المكان جميل، فيه حميمية الشرق، إنه يذكرني بمقاهي دمشق..

ـ المكان..آه فعلاً هو جميل جداً وأهم شيء طابع البساطة فيه.

عقّبتُ:

-المقهى طرازه أندلسي أو شرقي..

قلتِ:

-لذلك تعمدتُ أن نلتقي فيه؟

-إذاً أنت تحبين الارتباط بكل ماهو شرقي، لم يغير ميلادك هنا حقيقة ذلك..؟

أجبتِ:

-ولدتُ هنا. لكنَّ دفء الشرق يشدني، دفءٌ لم أجده عند الفرنسيين.

ـ ذكرتِ الأندلس، فهل تعرفين عن الأندلس بحكم وجودك قريباً من أرض أجدادك القدامى.

ابتسمتِ وقد استغربتِ كلامي وقلتِ:

-ألأني أعيش في فرنسا يجب أن أتخلى عن جذوري العربية، أنا أيضا أعرف قصة الأندلس، أبي عنده مكتبة عربية ضخمة، أنا أقرأ باستمرار..

القراءة ليست عندي رغبة فحسب، أنا اقرأ أيضاً مجبرة، بصراحة كي أبني ثقافة ذاتية، بحكم عملي في المجال الثقافي..خاصة أني أعمل في المركز العربي في باريس.

قلتُ لكِ:

-أنا أميّز النساء القارئات من أول وهلة ؟

قلتِ:

-فهل رأيت فيَّ قارئة أم مجرد امرأة عادية؟

قلتُ :

-بصراحة حدسي لم يخطئ، لكنك في المحصلة تقرئين مهما

اختلفـت الغايـة.

قلتِ بفضول:

-لا أفهم كيفَ تميّز المرأة العادية من سواها؟!

أجبتُ بنوع من المزاح لكنه الجد:

-انا لاأسلّمُ أسلحتي! إنه سرُّ المهنة الذي لن أفصح عنه..

ضحكتِ قائلة:

-سيأتي يوم وأعرف مقاييسك في تحديد نوع النساء.

صمتْنـا للحظـات. صمـت جـاء بذريعـة القهـوة التـي لاتشـبه القهـوة الدمشـقية أبـداً..

أمّـا أنـتِ فقـد أمسـكتِ هاتفـك الجـوال رداً عـلى شيء مـا أو أحـد مـا..

ماذا كان سيحصل لو عرفتكِ أنتِ أولاً؟

فأنت تستحقين دور البطولة بجدارة تامة..

فهـل كنـتُ فعـلاً سأرسـمكِ بطلـة -مثـلا- لفيلـم يتحـدث عـن أبطـال حقيقيـين.

هل تشبهين أنت إحداهن؟

إحدى هؤلاء النسوة اللاتي لعبن دور البطولة..

سؤال مباغتٌ منكِ قطعَ الصمت:

-كأنكَ تهوى الشرود كثيراً هل تفكر بالوطن؟

أجبتُ على سؤالكِ لأنك محقة:

-الوطن حاضر دائماً..

نعم هذا نتيجة أسباب تراكمية كثيرة ربما مشاهد الدمار والخراب التي تكوّنتْ داخلنا تجعل الشرود أحيانا قهرياً أو لاإرادياً وأحيانا يكون الشرود نوعاً من التأمل.

قلتِ:

-ماحدثَ في سورية ومايحدثُ مأساة يصعب وصفها أنتَ حاولتَ أن تختزل بعض تلك الجوانب على طريقتك. سيناريو الفيلم فيه أسلوب فريد بعض المقاطع تشعر أنها جمل شعرية فهل تكتب الشعر أيضاً؟

-لا أبداً أنا أكتب بعض الجمل الشعرية. بعد عرض الفيلم أتطلع إلى طباعة روايتي الأولى ونشرها..

سألتِ:

-وهل هي عن الثورة أيضاً؟

أجبتُ:

-فكرتها جاءتني عندما كنت أقضي أيامي في المعتقل.

قلتِ مستغربة و قد تغيّرتْ ملامحكِ:

-سجين سياسي أيضاً !

قلت مازحاً:

-وهل ترين غير ذلك؟ فأنا لا أجرؤ أن أكون سجيناً جنائياً.

ضحكتِ ثم قلتِ:

-ما السبب؟

-وهل يحتاج الطغاة لسبب؟ هم يخترعون أسباباً من وجهة نظرهم هم.

كنا مجموعة شباب ننظم اعتصاماً تضامنياً مع ثورة تونس. وكما تعلمين ثورة تونس كانتْ فاتحة الثورات ضد الأنظمة الاستبدادية العربية، وكانت بشرى خير بزوالهم جميعاً، وقد فرح بها وساندها كل حر، ونحن كنا في سورية نقف معها إلا البعض الذين يرون في الثورات نهاية لمصالحهم التي ترتبط بوجود هذه الأنظمة.

الثورة في تونس نجحت إلى حد كبير، وهذا زادنا أملاً بقرب نهاية كل الأنظمة العربية الاستبداية التي جثمتْ على صدورنا دهراً، وبقدر مازادتنا أملاً، فقد زادت بقية الأنظمة وأعوانهم خوفاً.

وأنت ترين وكما يرى الجميع لا أحد يريد أن تنتصر ثورة الشعب السوري.

ثم تابعتُ قائلاً:

-مؤسف ذلك حقاً الثورات العربية ومنها ماحدث في تونس أو ليبيا أرعبت المجتمع الغربي السياسي الذي يتغنى بالحرية والإنسان لقد خافوا كثيراً لايريدون لشعوبنا أن تتحرر سياسياً أو اقتصادياً وتختار أنظمة تحقق لها العدالة. هم يريدون أنظمة قمعية تخدم مشاريعهم وأطماعهم التي لاتنتهي في الشرق.عيونهم لاتزال فارغة ونفوسهم جوعى للشرق.

فقلتِ:

-معكَ حقك. أعتقد أنه لاتوجد إرادة سياسة لدى أحد لتغيير النظام في سورية تبدو المسألة أحياناً مجرد عرض سياسي إرضاء لحقوق الإنسان.

أعجبني حماسكِ وتحليلك المنطقي رغم أنكِ منطقياً محسوبة على المجتمع الغربي.

فقلتُ لكِ:

-بالعادة يدافع المقيمون في أوروبا عن مجتمعهم الأوروبي. ويسرفون في مدح أوروبا وأمريكا بخصوص حقوق الإنسان. فهل هم حقاً يريدون الحرية فقط لشعوبهم وبالنسبة للشعوب الأخرى فالأمر مختلف؟

قلتِ:

-هذا مايقوله من يؤمنون بنظرية المؤامرة..

سألتكِ:

-هل تؤمنين بها؟

أجبتِ جواباً مقتضباً:

-نظرية المؤامرة؟ أحياناً..

لحظةُ صمتٍ أعقبها سؤالٌ منكِ:

ـ هل تم اعتقال الجميع ممن كانوا معك؟

ـ تقريباً.. وبعضهم لازال في السجن حتى اللحظة ولاأعرف عن مصيرهم شيئاً. آخر شخص ممن التقيتهم في المعتقل كنت قد زرته في بيته في دمشق قبل خروجي من سورية كان ذلك قبل أكثر من سنة ونصف. اسمه سالم خرج من السجن بعد أن نال منه المرض. كان مجرد هيكل عظمي يتحرك.

سألتِ:

-وهل يتم اعتقال الأشخاص بمجرد تأييد ثورة أخرى ؟

ماهذا الجرم الذي يستحق كل هذه العقوبة؟!

قلتُ:

-تلك عقلية المستبدين على مدار التاريخ تتوارد خواطرهم.. كلُّ ثورة في بلد ما تشكل خطراً عليهم وهم بذلك يدينون أنفسهم كما أنهم يشتركون في تقييم الحدث والشخص والهدف والوسائل كالغايات تتشابه. هم يفعلون ماهو أكثر من ذلك وأفظع لذلك لا تستغربي خاصة وأن والدكِ كان سجيناً سياسياً قضى عمراً هناك.

قلت متسائلة بنوعٍ من الفضول:

-هل عذبوكَ أم كان سجناً مدنياً ؟

قاطعتكِ قائلاً:

-إذا ارتبط الاسم بكلمة سياسة بمجرد الاشتباه والشبه دون أدلة فليس ثمة سجن مدني ولاشيء من هذا القبيل، كلها سجون -ما يسمى- فروع أمنية تابعة للمخابرات، وهي أقرب ماتكون إلى مسالخ بشرية، ومع اندلاع الثورة حتى المشافي في معظمها وخاصة في العاصمة تحولت إلى سجون، بل وملاعب كرة القدم أيضاً. ولعل والدك حدثكِ عنها، تلك السجون ازدادت رداءة وإجراماً بعد أحداث حماة. أي منذ أكثر من ثلاثين عاماً.

قلتِ:

-نعم أبي حدثنا كثيراً عن حماة، وأنا قرأتُ كثيراً من المقالات عن ذلك، لكن لم تجبني

هل نلتَ حصتكَ من التعذيب؟

أجبتكِ:

-كانتْ شهوراً قاسية، قاسية جداً، لم يعذبوني بقدرمارأيت غيري ينالون حصة أكبرمن التعذيب، وعندما جاء الخامس عشر من آذار وهو تاريخ انطلاق الثورة كنتُ هناك..

سألتِ:

-وما الذي تغيّرَ الآن بعد كل هذه السنين التي مرّتْ من عمر الثورة؟

هل انتصرت؟ فشلت؟ ربحت الرأي العام؟

قلتُ لكِ:

-إلى حد ما أقنعتْ جزءاً كبيراً من البشر على هذه الارض أنها ثورة محقة وعميقة ولها طابع إنساني وسياسي بالدرجة الأولى، هدفه تحرر الروح والعقل من نير نظام شمولي، وأظهرت وحشية وإجرام النظام السياسي هناك ومنظومته الأمنية رغم كل التعتيم الذي حصل ويحصل في مسار الثورة والتآمر الواضح عليها حتى من أطرف تدعي التحرر والدفاع عن حقوق الانسان، العالم -للأسف- وبعد مرور كل هذه السنين على انطلاقها يقف عاجزاً بكل منظوماته السياسية والقانونية أمام شلال الدم السوري الذي لايتوقف، ويقف بكل عجزه أيضاً أمام نظام يمارس ساديته المطلقة في تعذيب الجسد السوري.. البعض ألبسَها ثوب الحرب الأهلية، والبعض الآخر قال بأنها أزمة ومؤامرة ومجموعات إرهابية تمردتْ على حكومة دولة..

صحيح أنَّ هناك أخطاء كثيرة اعترت الثورة، وهذا صحيح، فالذين يقومون بالثورة بالمحصلة هم بشر، الخطأ والصواب من صفاتهم..

قلتِ :

-كلُّ ثـورة لاتخلـو مـن سـلبيات قـد يتعمـد البعـض إظهارهـا لـزرع روح اليـأس أو التحايـل عـلى الحـق. أعتقـد أن كل شيء يطـول أمـده تظهـر عيوبـه وهـذا نمـو طـردي طبيعـي.

كان يجـب أن يتدخـل العـالم ضـد هـذا النظـام منـذ الرصاصـة الأولى كـما حـدث في ليبيـا ومـصر مثـلاً.. لنأخـذ -مثـلاً- الثـورة الفرنسـية، فـترة الحسـم فيهـا كانـت قصـيرة نسـبياً مقارنـة -مثـلا- بثـورة تونـس التـي اسـتمرت ثلاثـة أسـابيع ومـع ذلـك فـإن الثـوار الفرنسـيين ارتكبـوا أخطـاء كثـيرة، وفي النهايـة التاريـخ لم يذكـر إلا الوجـه الناصـع مـن الثـورة الفرنسـية .

عقّبتُ على كلامكِ:

ـ أنـت اختـصرتِ كلامـاً كثـيراً بـكلام مهـم يبـدو أنـك تفهمـين طبيعـة الثـورة السـورية، وربـما لأنـكِ تعيشـين مـع رجـل قـد جـرّب أن يكـون ضحيـة لذلـك القمـع..

قاطعتني قائلة:

-صحيـح، فـكلُّ هـذا تعلمتـهُ مـن أبي. أعتقـد أن كلَّ ثـورة مهـما كانـت عثراتهـا وأخطاؤهـا لاتحتـاج الى مزيـد مـن الإقنـاع كـي يقتنـع بهـا الكـون إلا إذا تعمّـد فعـلاً أن يصـم أذنيـه عـن الحقيقـة .

قلتُ في معرض الرد على كلامكِ:

-انظـري مثـلاً إلى تصريحـات الفرنسـيين بخصـوص الثـورة السـورية، ربـما هـي ثابتـة، لكنهـا في تفاصيـل كثـيرة تتلـون تبعـاً

لتغـيّر التحالفـات..

أجبتِ:

-أعتقـد ذلـك، أنـا عـادة أتابـع العناويـن العريضـة، لأني لا أتابـع مجريـات الأحـداث السياسـية كثـيراً. النـاس هنـا في أوروبـا لايتابعـون تفاصيـل الأحـداث السياسـية كثـيراً وتحديـداً مايجـري في العـالم، يهمهـم ماتفعلـه حكوماتهـم، وشـؤون بلادهـم الداخليـة. وأنـا تطبّعـت بطابعهـم .

(قلت جملتك الأخيرة بنوع من المزاح) فأجبتكِ:

-موضـوع معقـد جـداً والخـوض فيـه بالنسـبة لي يسـبب لي الصـداع. وكـما قلـتِ للتـو الأوربيـون لايتحدثـون بالسياسـة كثـيراً..

الاقتصـاد أحيانـاً يكـون هـو السياسـة بالنسـبة لهـم، وأحيانـاً السياسـة بالنسـبة لهـم هـي وجهـة نظـر الحـزب الـذي ينتمـون إليـه أو الخـبر الجاهـز الـذي يتلقونـه دون الخـوض في الورائيـات..

قلتِ:

-صحيـح، لذلـك يؤثـر الإعـلام كثـيراً في رسـم وجهـة نظرهـم، فالوجبـة السياسـة الوحيـدة التـي يتلقونهـا، يتلقونهـا عـادة مـن صحيفـة أو مـن محطـة إخباريـة وخصوصـاً إذا تعلـق الموضـوع بالـشرق.

-حسـناً هـل تحبّـين أن نغـيّر الموضـوع، لكـن المشـكلة أن السياسـة تدخـل حتـى في كـوب القهـوة الـذي نشربـه الآن..

وأحيانـاً تبـدو لاشيء! إنهـا مزعجـة جـداً حتـى بالنسـبة للذيـن يمارسـونها! لعلهـم يضطـرون للكـذب كثـيراً..

ثم طرحتِ سؤالاً منفصلاً عن الموضوع:

-هل ستسألني عن فيلمك أم أنك نسيت الأمر كله؟

رددتُ على مزاحك بمزاح آخر:

-ربما سأنساه لأبدأ قصة عن باريس .

-ماالذي وجدته فيها؟ لعله شيء مختلفٌ!

قلتُ:

-دفء الـشرق بعضـه هنـا! وشـوارع ليسـتْ نظيفـة! تتناقـض مـع ذاتهـا! كنـا نسـمعُ عـن جمـال باريـس وأناقتهـا دائـماً! لكـن ذلـك ليـس صحيحـاً دائـماً..

رشفتِ رشفة من الفنجان وقلتِ:

-بصراحـة أعتقـد أن لجنـة الأفـلام الوثائقيـة قـد أعجبهـا فيلمـك وهـذا ماتسرب لي! وهنـاك سـعي لعرضـه قريبـاً! أعتقـدُ أنهـا مسـألة وقـت! وسأسـاعدكَ أيضـاً لمراسـلة عـدة جهـات لتقديـم الفيلـم كمشـارك بأحـد المسـابقات سـواء في أوروبـا أو المغـرب أو الجزائـر! وربـما في قطـر أيضـاً.

-أنا سعيد بما أسمع..

رددتِ قائلة بحماس :

-فيلمـكَ جميـل جـداً! مبدئيـاً ينقصـه بعـض الاحترافيـة! لكـن

الثغـرات شيء طبيعـي خاصـة أنـكَ أنتجتـه بوسـائل بدائيـة نوعـاً مـا، وغـداً يمكنـكَ أن تجتمـع بالشـخص المسـؤول، إنـه شـخص مثقـف ومتفهـم وهـو جزائـري الأصـل..

*****

انتهى اللقاء بيني وبينك..

انتهى وكأنه معقود منذ أمل..

كنـتُ سـعيداً بوجـود بصيـص حيـاة بـأن يـرى الفيلـم النـور أخـيراً.

خرجتُ برفقتكِ وقلتِ بعد صمت ليس بمزمن:

ـ نحن على السين..

قلتُ :

–نهرٌ يرتبط بالثورة، بالحب والدم، أليسَ تناقضاً عجيباً ؟!

تناقـضٌ فاضـح أن يكـونَ النهـر شـاهداً عـلى عبقريـة الـروح الفرنسـية وشـاعريتها وأدبيتهـا وثوريتهـا، وفي الوقـت نفسـه هـو ناطـق متفـوّه لمـاضٍ اسـتعماري.

سألتِ:

ـ ماذا خطر ببالك فجأة على السين، أهي ثورة أخرى؟!

ـأجبتكِ:

-قرأتُ الكثير عن السين وباريس وقرأتُ جزءاً يسيراً من الأدب الفرنسي، لكنَّ الأنهار لها طريقتها بكتابة التاريخ، لعل الفرنسيين يهربون من ماضيهم كثيراً، ويحاولون تجاهله، لكن الماضي عندما يكون حد الفيجعة، ومرتبط بالألم لا يمكن

الهروب منه .قبل فترة كنتُ أشاهد فيلم (دماء على نهر السين). بصراحة تأثرت به وشعرتُ أنه قريب لتجربتي. في البداية شاهدته كي أراقب التقنية الفنية فيه، لكني دون وعي أبحرت فيه، لقد كان تراجيديا بحد ذاته.

قلتِ:

-نعم فيلم جميل، لم أشاهده وأعتقد أن عرضه مُنع في فرنسا. صاحبة مغربي اسمه (المهدي بكار) وقد حصل على جوائز..

-جائزته هي صوته العالي حين تلوَّن النهر بدماء آلاف الجزائريين بمجازر رهيبة، ترى من يعطي الحق (لأحد ما) لقتل (أحد ما) ؟ هل هي السادية فقط؟ التعالي؟

الفوقية البشرية العمياء؟ ماذا يمكن أن يكون ذلك ؟

صمتنا.. صمت تلونَ على السين وأبحر في مياهه المعكرة المائلة إلى اللون الترابي الفاتح، كأنَّ جرحاً وجراحاً كثيرة أثارت النهر الثائر أو المستبد أو السادي جداً.

انقطع الصمت بيني وبينك لأنكِ قررتِ الذهاب بحجة عملك المسائي وعرضتِ عليَّ أن توصليني بسيارتك..

وافقت بحكم توفير المجهود والوقت..

ركبنا سيارتكِ..

أوصلتني الى بيتي أو غرفتي المتواضعة في أحد ضواحي المدينة غير بعيد جداً عن مركز باريس..

خرجتُ مودعاً اياكِ على أمل لقاء ..

دمشق ١٧-٧-٢٠١١

وتغيّرتْ ملامحُ المدينة التي التقينا فيها..

تغيرتْ عما كانت عليه قبل شهور..

قبل شهور كنتُ مصاباً برصاصة.. كان الدم يتقاطر من جسدي وأنا أحاول أن أحتمي بجدار أي بيت دمشقي..

قبل ذلك كنتُ لعدة شهور معتقلاً في أحد فروع بتهمة التحريض على الثورات..

أنتَ الآن تائه روائي بين عدة نساء جعلتهن أبطال رواية أو واقع..

أو فيلم ليس من خيال..

استمعتُ الى شهادتهن..

شهادات عفوية أو شهادات تم رتيبها بالتواطؤ مع القدر..

الحيرةُ مؤلمة جداً..

فعندما نكتبُ تصبح الحيرة ألماً وأشد تجليات ذلك الألم في حبكة تريد أن تخرج منها بأقل الخسائر، فالحبكة الروائية تورطٌ في الشغف لاحدود له إلا بالخلاص، والخلاص هو الحل المفترض، وهو الحل الأخير..

أنت الآن تبحث عن حل لكل امرأة التقيتها صدفة أو بميعاد .

وكتبتها أو سردتها في فيلمك..

هي إحداهن .

وقواعد اللعبة كما هي لم تتغير .

افتراضيـة حتـى الآن..تكسـوها مقارنـة متعبـة بـين مـدنٍ مـررتَ بهـا..

فأنتَ لاترى دمشق كباريس أو اسطنبول.

كلّهن جميلاتٌ لكنَّ التفاصيل مهمةٌ مهمة جداً

وهنا التبس عليّ الحوار. أيهن كنتُ أحاور.

هـو حـوار افـتراضيٌ لكنَّـه واقعـي جـداً بـما يكفـي كـي يحـرّكُ رواسـب المـرارة التـي بقيـتْ في أسـفل الفنجـان..

إلتقيتك إذاً..

التقيتـك مـرة أخـرىٰ وهنـا الصدفـة تفعـل فعلتهـا معـي كـما فعلتهـا أول مـرة..

يتزحـزح القـدر قريبـاً منـكِ لكـن مـن دون رصـاصٍ سـليماً تمامـاً إلا بالتفكـير مـن صدفـة تجمعنـي بـكِ.. وهاهـي الصدفـة تتحقـق.. وبعـد أشـهر مـن أول صدفـة..

لكنْ دون رصاصة..

تحت سقف وطنٍ كما يقولون..

السبب: تجتمع كل وسائل الإعلام والصحفيون للرد على المؤامرة الكونية ضدهم..

كنتِ أنتِ حاضرة بصفتك صحفية تعمل في وكالة أنباء..

وكنتُ حاضراً لأني صحفي يعملُ في صحيفة حكومية لكنه يخفي ثوريته في النهار ويكتفي بإظهارها في الليل.. يمارس تواريا خلف ذاك القناع الذي فرضه القدر..

ثائر حتى النخاع لكنه لم يجاهر برأيه خوفاً..

نعم خوفاً..

التقتِ العيون وكانت تلك صدفة أيضاً فأنتِ لم تلحظي وجودي إلا عندما التفتِ صدفة..

كنتُ جالساً خلفك مباشرة..

كنت جالساً على مقربة منك..

على خط النار والثورة..

عرفتِ أنتِ أني هنا، تفاجأتِ كثيراً..

وارتسمَتْ على وجهكِ إشارات استفهام لاتنتهي..

لكن قلبي عبقَ بالورد وشعر بنشوة لقائكِ، كأنكِ الحبيبة التي أعشقها جداً، والتقيتها ألف مرة عشقاً، وأنا الذي لم أراك سوى مرة وكانت صدفة من قدر تمنيت لو أنها لم تكن..

فمنذ تلك الصدفة وأنا أطرح على نفسي السؤال(هل كان حباً)؟

التقيتكِ فتغيرتْ شرفاتُ المنازل.

أنينُ الساحات..

لون حجارة الأرصفة..

والريح التي تحرّك سكون أوراق الخريف صارت باهتة جداً.

لكنّ القلب وحده هو دليلنا إلى الأمكنة..

قلت لكِ في فاصل روائي مباغت:

-تعلّمتُ من الثورة ألا أعشق امرأة سواك أو بعدك، لكني حتى اللحظة لم أجدك..

قلتِ:

-لم تسرف في مدحي، فهذا الترف ليس لي.

كنا نحتاج الى كاتم صوت..لأقول لك أحتاجك لكن ليس كثيراً..

ثم لاأشك أنك تقولين لي الأمر ذاته..

هاأنذا أتخيلُ قصة قصيرة ضمن روايتي. أحدد الحوار فيأتي على لساني.

أحدد المكان فيأتي باريسياً أو سورياً..

تابعتُ سردي الروائي بتعديل فجائي على مسودة روايتي:

-أدمتنـــي تلـــك الحكاية...وجســـد يثقلـــه ألم يحـــضر نفســـه للثـــورة..

أي رصاصة أوصلتني إليكِ وأي قدر جميل؟

تابعتُ على لسان البطل:

-التقيتكِ في مدينة سيدي بوزيد..

فهل تعرفينها؟

ليست مدينتنا ولكن جدرانها قضية..

هـي المدينـة التـي أشـعلت الثـورات العربيـة ومنهـا بـدأ الربيـع العربي.

سـيدي بوزيـد.. ومحمـد بوعزيـزي.. وعشـقٌ لزمـنٍ ممطـرٍ قـادم عـلى هـذه الأمكنـة..

سيدي بوزيد والأمكنة الممطرة في ربيع آت...

قلت لي:

-أحـبُّ هـذه المدينـة التـي عرفتهـا في زمـن الثـورت لـو لم تنجـب هـذه المدينـة شـاباً عربيـاً اسـمه محمـد بوعزيـزي .

وطن بلاضفاف.. بلا أصابع أو أظافر..

قطعوها! لكنَّ الحياة وحدها ترسم لنا الحياة..

ثم تقولين:

أحبُّ أن أعيش في مدينة سيدي بوزيد.. أريد أن تبقى الثورة ساهرة..

ليس في «سيدي بوزيد» وحدها.

لكن كانت هي الوطن لكل وطن..

القهر والألم والحياة والحزن..

أحرقَ جسده كي يطفئ أرواحنا..

هنا توقفتُ..

توقفتُ لأني لاأحبّ التعديل الروائي..

كنا هنا جميعاً. والآن نحن جميعاً نهيّء ثورة، ندونها، نسرقها من فم الإعصار. كأنكِ كنتِ معي، بل حتماً كنتِ معي..

الزنزانة لم تتسع لكل هذا الألم، نتألم كي نكسر جدار زنزانة كبرى هي الوطن..

مرّتْ في الساحات آثار الوطن، بل الوطنُ كله هنا..

وأطفالٌ رأيت شيباً في رؤوس بعضهم، كأنهم كبروا في هاتين السنتن عشرين سنة أو أربعين سنة، كانوا يمارسون ما لا يليق بطفولتهم، كأنْ يكونوا كباراً جداً. يجمعون الشظايا بعد القصف، والرصاصِ الفارغ من الشوارع، ويضعونها في حقائبهم المدرسية بدلاً عن الدفاتر والكتب. مدارسهم تعرضت للقصف، وصار لكل مدرسة قصة.

صرنا نرى حبال غسيل في المدارس لأنَّ هناك بشراً نزحوا وصارت تلك المدارس آخر مأوى لهم بعد أن غصّتْ البيوت بالهاربين من هول القصف،ومدارس أخرى تحولت الى ركام، وأخرى لها حكايات..

صار الأطفال يعرفون أسماء الأسلحة التي تقتلهم، ويعرفون ألوان علم الثورة..

أطفال يتحدثون عن الفيتو ويعرفون الناتو، ويفسرون لك ما معنى الحضر الجوي، يشتمون روسيا والصين وأمريكا كثيراً وحتى الجامعة العربية، وحتى أسماء المراقبين العرب الذين راقبوا سفك دمهم دون أن يخرسوا أنينهم، ويدركون بأعمارهم الفتية وعقولهم التي نضجت باكراً أن ثورتهم ومسارها لا تغيّره مواقف دول. ويعلمون تماماً أنهم حين تحدثوا بصوت البنادق فلأنهم اضطروا أمام همجية الظالم وجبروته إلى حمل السلاح، لكنهم يصرون ويرددون ويعلمون أن ثورتهم سلمية وستبقى، لذلك يعددون أسماء المظاهرات التي كانت تنطلق كل جمعة.

في باريس..

فيكِ شيءٌ من باريس.. تطرّفُ الاستثناء.. أناقة التفاصيل..

بساطةُ الفخامة... الشيء واللاشيء..

جسورها العاشقة للجياع القدامى وشهوة الحروب..

أحتفيتُ بكِ على طريقتي.. قادمٌ من ألف قصة حب لم تكتمل..

أنتِ لم تعرّفيني بنفسكِ بل احتفيت بالمكان الذي أحاول أن أعرفه وبالخط الموازي أحاولُ أن أعرفكِ..

احتفينا جداً بالمكان كأننا نتقدم لطلب الزواج به :

-أقدمُ مقهى عربي في باريس صاحبه جزائري آتٍ من حرب التحرير وهنا تحرّر ألف قلب من حبيباتٍ سابقات..

شعرتُ بعبق المكان كأني في دمشق..

مقاهي دمشق تختصر أساطير الشرق مع حق البساطة..

قلتِ:

-أعتقد أنهم يقدمون قهوة سورية كما تحبها .

سورية..! قالتها وكأنها تنفي سوريتها..

فهل هي تفضل أن تنتمي لمكان ولدتْ فيه وهي التي حدثتني في لقائنا السابق عن تعلقها بالشرق هي تحاول أن تجاملني بعد أن لمستْ ذلك التطرف العشقي فيَّ للشرق؟!

ـأمي ليست فرنسية..

قالتها فاستنفرتْ أعصابي كما لو أن شعاعاً ناعماً لدغني. تُرى كيف قرأت أفكاري؟

ـأمكِ أليست سورية؟!

ـ نعم، لذلك أنا أملك حنين الطرفين للشرق، قد يكون ذلك سبباً أني أتكلم العربية التي حرص أبي أن أتعلمها وكان حازماً معي في ذلك.. نحن لانتحدث إلا العربية في البيت.

ـ ألا تعرفين شيئاً عن سورية ؟

(كان سؤالاً ساذجاً مني)

-أعرف الكثير طبعاً..

أعدت السؤال بصيغة أخرى:

ـ ماذا تعرفين؟

-الذي أعرفه يحتاج لوقت أطول كي يقال.. سورية أكبر من أن نختصرها..

صمتنا.. وأنا كنتُ في لحظة الصمت تلك أوزّع أحرف عبارتها الأخيرة على غيابي «سورية أكبر من أن نختصرها في لحظات» أما صمتكِ أنتِ فكان متعالياً مثل جدار قصر ملكي، يشوبه التواضع الحذر..

وكأني أكرر مقولتي عنكِ، أرستقراطية مثل باريس، طبقية

مثـل نبلائهـا، فوقيـة لكنهـا تختبـئ بتواضـع مصطنـع، جميلـة مثلهـا، هادئـة مسـيطرة لاتحـب مدينـة أخـرى أن تنافسـها...

سألتها وعادة أخجل أن أسأل النساء ذاك السؤال الوقح:

- متى نلتقي؟

ثم استدركتُ:

-متى نلتقي مرة أخرى؟

هـل أحسـت المـرأة أن في سـؤالي طمـع عاشـق مثـلاً وخاصـة أننـا نلتقـي الآن، فكيـف أبحـث عـن لقـاء بعـد لقـاء بـدأ الآن؟ هـل كنـتُ وقحـاً في سـؤالي؟ لكنهـا لم تأخـذه مـن ذاك البـاب، ربـما مكابـرة، فأجابـتْ:

-عندمـا نتقاطـع في الفـراغ سـنلتقي، المـرة الماضيـة التقينـا بنـاء عـلى رغبتـكَ، واليـوم بنـاء عـلى رغبتـي لأني أحببـت أن أعرفـك عـلى هـذا المـكان الـذي حدثتـك عنـه..

المرة القادمة سنلتقي بناء على رغبة الفراغ..

جواب ملغم جميلٌ منكِ يصلح لحوار روائي..

قلتُ لكِ:

-لم نتحدث بما نحن من أجله..!

أجبتِ جواباً مباشراً كأني أعطيتك خلاصة القول:

ـ بقـي القليـل وأنهـي ترجمـة الفيلـم، أعتقـد أننـا لـن نلتقـي لتنـافي المصلحـة، بعـد هـذا اللقـاء سـنلتقي لحديـث آخـر..

قالتها مازحة بلغة براغماتية تخلو من مرواغة..

سألتها:

ـ وهل يلتقي البشر للمصلحة فقط؟

ـ أجل، لكنَّ كلمة مصلحة ليست دائماً تحمل دلالة سلبية، فالعشاق يلتقون مصلحةً كي يطفئوا نار الشوق، والثوار يلتقون مصلحة كي يتابعوا الثورة، والمثقفون يلتقون لأجل قضية.. أليست تلك مصلحة؟ وربما تكون أحياناً مصلحة جميلة.. في اللغة الفرنسية كلمة مصلحة تعني الفائدة، أعتقد أنها في العربية قد تحمل دلالات سلبية أحياناً.

ـ تعريف جميل جديد للمصلحة، والسياسيون كذلك يلتقون للمصلحة، وقد ينسون حروباً طاحنة قديمة بينهم، فتجمعهم المصلحة..

أوروبا مثلاً نسيت خلافاتها كلها ووحدتها المصلحة، دول كثيرة لاحدود بينها، لافواصل لا زمن.. التقت لأجل مصلحة ما..

قلت:

-الزمن كفيل أن يدواي المشاكل لكنَّ ذكاء الحاجة يفرض طي الخلافات أحياناً..

الحياة أحياناً تفرض عليك أن تنسى عدوك القديم، وتقبل صداقتهُ إنْ اقتضت المصلحة.

ـ أنـتِ محقـة جـداً. هنـاك قضايـا كثـيرة تحتـاج إلى حلـول والحـل هـو نسـيان المـاضي.

أنْ نضـع المـاضي خلـف ظهورنـا ونتطلـع إلى المسـتقبل هـو نصـف الحـل.

فسألتِ من وحي كلامي:

-هل نسيتَ ماضيكَ؟

ـ هنـاك أشـياء لاتُنسـى لأنهـا جـزء منـي.. مـن وجـودي وكيـاني وربـما مسـتقبلي..

وهنـاك أشـياء أحـاول نسـيانها.. وهنـاك أشـياء اعتقـدتُ أني نسـيتها لكنهـا تظهـر أحيانـاً في اللاشـعور..

ـ إذاً أنتَ لم تنسَ ولم تطبق كلامك النظري عن النسيان.

ـ ربـما أحـاول أحيانـاً..أو أتظاهـر.. لكننـا بـشر في النهايـة. لذلـك نقـول في أدبياتنـا نحـن العـرب أن النسـيان نعمـة، هـو نعمـة فعـلاً .

قلتِ بنوع من المزاح كأنك امتعضتِ من كلامي :

-وأنـا عربيـة أيضـاً . تتحـدث معـي كأني فرنسـية، فهـل تعنيـك جذوري؟

قلتُ لكِ:

-أنـت تتواريـن خلـف كلمـة جـذور لأنـك باسـتخدامك لهذه الكلمـة سـتقولين بأنـك فرنسـية أيضاً؟

قلتِ:

-هذه المرة خانتكَ قدرتك على التحليل..

عبارتكِ تلك كانت الأخيرة..

افترقنا برهة من زمن..

صاراسم «ماريا حداد» يعنيني جداً ولايعنيني..

كأني أعرفكِ قبل زنزانة أو بعد زنزانة..

قبل وطنٍ أو بعد وطن..

كأنّي لمحتكِ في الجمعة الأولى من الثورة السورية..

الكلُّ سيعرف تفاصيلها الآن بمجرد أن أذكر اسمها؛ أنتِ والقارئُ للرواية والناقد الأدبي..

أنا لا أذكرها لأنها خارج منطق الذكريات؛ لأني كنتُ في ذلك التاريخ تحديداً رهن الاعتقال التعسفي..

لكني أفردتُ لها حيزاً واسعاً في الفيلم بناء على شهادات الشهود؛ فهي أول صرخة للحرية المعتقلة منذ عقود..

ربما لأنها الأولى كان يجب أن أكتب عنها..

أحكي عنها بفيض..

لكن مظاهرات كثيرة حصلتْ فيما بعد جمعتني برفاق المهنة الثورية الذين انفصلتُ عنهم زمانياً ومكانياً فقط...

خرجتُ وقد مضى من عمر الثورة ثلاثة أشهر وأكثر بقليل؛ فالشهور التي قضيتها في المعتقل بتهمة الانتماء لفورات الشعوب كما يسمونها أيقظت فيَّ انتظار الآتي الملوع بحزن منتظر..

لم يشعر أحد أنّ ذلك السيناريو التلقائي للزمن الفوضوي سيصير ثورة..

فالشرارة التي بدأت في تونس كانتْ حقيقة وانتصرت..

وللقدر قصته أيضاً؛ فقد كان رأيه استثنائياً..

في ثورة تونس أتعرضُ للاعتقال..

وبعد إطلاق سراحي أشارك -مباشرة- بمظاهرة؛ ثم يتلقى جسدي بتدبير القدر رصاصة ثم يسوقني القدر إلى قصة أخرى؛ قصة سببها رصاصة أو ثورة أو قناص ماهر

وفيما بعد يصير الرصاصُ امرأةً قصتها كثورةٍ على جسدِ وطنٍ جريح..

في الساعات الطويلة تلك التي جئتكِ بها بلامعطف لازالتْ آثار الشتاء واضحة هناك. ورغم الغيم فقد امتلأتِ السماء حلماً.. وصرنا الآن في رحم الثورة ونأمل بمخاضٍ ليس عسيراً .

جمعتني بكِ الصدفة.. صدفة من القدر رتبَّتْ بعد ذلك لأسئلة لاتنتهي..

صحفيـة مثلـك ملامحهـا تخفـي نعومـة عاليـة وإحسـاس دفـين يختفـي خلـف شيء مـن الرصانـة؛ كيـف تعمـل في مؤسسـة مهمتهـا قتـل ربيـع الثـورات وضـد خيـارات الشـعوب بالتحرر مـن نـير الطغـاة في الوقـت الـذي كانـت فيـه الثـورة تشـتعل في كل مـكان مـن وطـنٍ يـشرف عـلى جـرحٍ عميـق..؟

وكانت دمشق على الموعد..

لدمشق قصتها..

هي قصةٌ أخرى..

في دمشـق التـي خرجـتْ منهـا الصرخـة الأولى وتـورد الحلـم عـلى أطـراف ثوبهـا الرصـين التقيتـكِ. في هـذا المـكان قبـل أن أصـيرَ رقـماً في ملفـات للجـوء؛ أبحـثُ عـن نصـف وطـن في نصـف كـوب مـن قهـوتي الصباحيـة الباهتـة التـي يختلـف طعمهـا عـن العـادة..

هنـاك حيـث يرقـدُ الياسـمين متخليـاً عـن أنانيتـه ليتسـلقَ الجـدران العاريـة..

امـرأةٌ أخـرى؛ وقصـة أخـرى لا أريـد أن أبدأهـا؛ فالتفاصيـل التـي أتعبتنـي زمنـاً منحتنـي فوبيـا «اللاتكـرار»..

اللاتكـرار في الجـراح.. في العذابـات السـورية التي اسـتطالت أظافرهـا..

اللاتكـرارفي الليـالي الدمشـقية الهانئـة.. والليـالي السـورية المترقّبـة..

سيأتي ما لا يتوقعه أحد، فحسابات الزمن تختلف..

أطفأنا المصابيح لهذه الليلة فقط..

وقلنا (لاتكرار) للجرح..

اختفتِ الوجوه تحت لثامِ الحرية، فالحريةُ خائفة كعادتها..

حاولتُ أن أدوّنَ كل أفكاري حول مشروع رواية.. تلك التي انتابتني خواطرها خلف قضبانِ سجنٍ استمر أشهر بتهمة الانتماء للحرية..

امرأة واحدة كنتُ أكتب عنها، لا أعرفها لكني كنتُ أكتب.. لاأحدَ يعلمُ من هي، وعن أيّة امرأة كنتُ أتحدّث في الرواية، هل هي امرأة أحببتها أم أحبها أم هي محض خيال ارتجله الفكر ليضفي نوعاً من الدفء على روتين الاعتقال ؟

شخّصتُ المكان والتفاصيل لكِ مثل طبيب يوصي مرضاه بعلاج طبيعي لمرض لم يجدوا له دواء كيميائياً..

التشخيص عادي جداً:

المكان هو ذاته، بمحاذاة عينيكِ، قرب زنزانة..

بمحاذاة عينيكِ مرة أخرى..

أنت لستِ معي..

لكني كنتُ أكتب..

لو تعلمين كيف يعلو صوتُ الوطن في تأريخية الجرح..

كيف ينضجُ القمح قبل أوان الانقضاء..

كيـف يبـدأ الفـوح مـن هنـا، فللحـبّ والثـورة طريقـان متآلفـان..

أزفت الساعات الطويلة وصار الانتظار وطناً..

أنت ذاتها التي تسألني وتستنطقني:

«أعذبوكَ»؟

زنزانـة وفـرع أمـن، فـرع أمـن ليـس للأمـن ولهـذا السـبب فقـط كنـتُ أشـعر بالـبرد مـن دونـكِ ـ أنت التـي لا أعرفهـا بـل كنـتِ خيـالاً ـ . كـم كنـتُ أشـعر بالـبرد مـن دونـك، لكـن كنـتِ معـي في صحـوي وفي إعصـاري، في غضبـي، في هدوئـي..

لنا ألف سبب كي نثور..

ووطنٌ واحدٌ..

لنا..

في ضلوعنـا مـن الألم مايكفـي كـي ينفجـر وطنـاً ينسـل مـن ثـوب أنثـى..

مـات أبي بعـد ذلـك بفـترة وجيـزة بأزمـة قلبيـة فالاعتقـال قـد أثّرعـلى قلبـه، ثـم تبعتْـهُ أمـي..

اسـتمر نشـاطي الاعلامـي -وتحديـداً عـلى صفحـات الأنترنـت- ولم أتوقـف، وكانـت ردة فعـلي أقـوى.

مـع بدايـات الربيـع العـربي في تونـس أنشـأنا صحيفـة

إلكترونية..كنـا عـدة رفـاق..

نكتب بأسماء مستعارة..

عـلى الخـطّ المـوازي كنـتُ أكتـب في صحيفـة خاصـة، يمكـن أن نسـميها صحيفـة شـبه حكوميـة، فـكلّ الصحـف ووسـائل الاعـلام الخاصـة في سـورية تكـون عـادة مملوكـة لجهـات مقربـة مـن الحكومـة، بهـذه الطريقـة تصبـح عمليـة المراقبـة أسـهل بالنسـبة لهـم، فهـم عـادة يمسـكون بزمـام الأمـور في الصحـف الحكوميـة المبرمجـة عـلى موالاتهـم أصـلاً دون الحاجـة للرقابـة..

زنزانة ورصاصة وغربة..

ماالذي أجّل حضوركِ كل هذا الوقت؟

ولماذا تصلني رسائلكِ الآن؟

هل هو قدرٌ وفق معايير الأزمنة أم هو صدفة من تلقاءِ لحظةٍ عابرة؟

فتحتُ جهاز الكومبيوتر وكانت الظلمة تعمُّ المكان..

هنا باريس.. لكني عدتُ إلى قضية الضوء..

رسالة منكِ أنتِ؛ فقد عرفتكِ رغم أن العنوان باسم مستعار. اختطفتُ كلماتِ الرسالة المقتضبة بسرعة..

أحدهم.. أو إحداهن تطمئنُ عليَّ عن وضعي الحالي في فرنسا..

لم أشك لحظة أنك أنتِ.. حتى قبل أن ألمح اسمك الحقيقي أسفل الرسالة الالكترونية.

«أنا ضد أنا» اسم مستعار غريب لأنثى هي أنت؛ يوحي بهزيمة عادية مع الذات. إذاً هناك شخص يناقض نفسه أو يختلف مع ذاته؛ ولعله صراع مؤلم يسفر عن حروب روحية لاتنتهي إلا بتوبة أصحابها عن أخطائهم الصغيرة أو الكبيرة.

فتحتُ الرسالة على عجالة وبلهفة قد أخفاها وقار مصطنع؛ فمن يقاوم رسالةً من أنثى جميلة تسأله كيف

جرحـــكَ..؟!

سنينٌ مضتْ على الجرح ولازلت تسألين كيف جرحي.

هـلِ تقصديـن جرحـاً آخـر أم أنـك تعنـين ذلـك الجـرح الـذي تسـبَّبتْ بـه رصاصـة كنـتِ أنـت مـن أخرجهـا مـن جسـدي..؟

أمّا الآن تصير كلمة السر بيني وبينك هي «كيف جرحي».

أنتِ هي ذاتها التي تعمل ضد الثورات..

تعـدُّ تقاريـر صحفيـة ضـد الحريـة والتحـرر والثـورة عـلى الظلـم والاسـتبداد..

تسـمي الضحيـة جـلاداً وتسـمي الجـلاد ضحيـةً ويصـيرُ الطفــل الــذي شرده القصــف بنظرهــا إرهابيــاً..

فهل أنتِ ضد أنتِ حقاً ؟

أنهيتُ قراءة كلماتكِ اللطيفة..

أنهيتهـا بسرعـة رغـم أني شـعرتُ بأنهـا أخـذتْ مني عمـراً في قراءتهـا..

تفهّمـتُ اسـمكِ المسـتعار وسـببهُ ولمـاذا هـذا التخفـي تحت اسـم مسـتعار..

لم أرد مباشرة عـلى (الإيميـل) ربـما لأني كنـت أحتـاج للكلـمات المناسـبة التـي يجب أن أختارهـا لم أكـن في مـزاج يسـمح لي بالرد عليكِ مبـاشرةً.

لكنـي سـأختار أن أخاطبـكِ باسـمك الحقيقـي، غاليـة حميـدي مـن دمشـق..

مراسـلة لوكالـة الأنبـاء الايرانيـة الرسـمية في دمشـق. لاتنقلـين الحقائـق كـما يجـب، لكـن مـن وجهـة نظـر أولئـك تعطـين شرعيـة للأنظمـة المسـتبدة في كل تقاريـرك الإخباريـة، لذلـك اخـترتِ اليـوم فقـط أن تكـوني ضـد نفسـكِ.

هـل اخـترتِ الكتابـة لي لأنَّي أصلـح أن أكـون رجـلاً عابـراً في حيـاة أنثـى؟ يمـرُّ فيمـلأ فـراغ انبعاثهـا مـن تحـت رمـاد أنوثـة تجامـل الوقـار، أم أنـكِ أحببتنـي حقـاً وتحاولـين مـلأ الفـراغ البعيـد بنبش قصـة قـد خلـتْ؟ أم أنـك تتوددين لثائـر تغويـن فيـه فضـول الكتابـة؟ هـل تريديـن أن تطمّئنـي عـلى أحـد ضحايـاك الـذي لم يبـح لـكِ بحبـه.؟

ثائـر يمـرُّ بمحـاذاة عينيـك المختبئتين خلـف خمار الزمـن المر، فنحـن منـذ زمـن لم نسـمع عـن عـصر البطـولات الـذي ظننـا أنـه انتهـى واندثـر دونـما عـودة، وكأني فارسـك الـذي كنـتُ عـلى مسـافة قريبـة مـن عينـيْ أنثـى فتأويـه هاربـاً..

كيف حالكَ ..؟

وأسئلة مقتضبة أخرى..

أعـرف وجهـكِ ولـون شـعركِ الـذي ظهـر نصفـه مـن تحـت وشـاح طويـل لـفَّ الجسـد المحتشـم الأنيـق، وأعـرف لـون عينيـكِ وبريقهـما وابتسـامة جافـة، لكـن فيهـا بعـض بـراءة صعبـة..

في رسالتكِ الأولى تسألين كيف أكون؟

وكأنـكِ تسـألين بطريقـة لبقـة رغـم أنـكِ لم تسـألي هـل ثمـة امـرأة في حياتـكَ؟

وربـما تسـألين عـن أثـر الجـرح الـذي سـيغدو قديـماً بعـد دهـراً ويصـيرُ تفصيـلاً مـن تفاصيـل ثـورة مـرّتْ مـن هنـا..

فالحكاية بدأتْ من رصاصة..

سـنين مـرتْ عـلى تلـك القصـة التـي غـدتْ جـزءاً مـن روايـة جـزءاً مـن فيلـم وجـزءاً مـن حيـاتي رغـم مرورهـا الخاطـف السريـع لكنـي لا أدري لمَ تركـتْ كل هـذا الأثـر؟

سنين مرَّتْ..

القصة التي حدثت في بداية صيف ٢٠١١

وأنا الآن في عام ٢٠١٧

لكنَّ مكاني تغيَّر وتزحزح عن جغرافيته المعتادة..

سـنين مـرتْ عـلى تلـك الحكايـة العابـرة التـي لم تكـن يومـاً عابـرة..

قصتنا.. حيث كانتْ هناك ثورة ولازالتْ..

عندمـا كان الوطـن يقـترب..وفي تلـك اللحظـة التـي أشـعر أني عـلى شـفا نهايـة حلـم أحـسُّ بمـلء اشـتياقي باقترابـه..

سـمعتُ أصـوات العائديـن، وسـمعتُ وقـع أقدامهـم عـلى الحيـاة.. ووقـع التعب عـلى الانتصـار.. الانتصـار الـذي فرشـه المنتـصرون هنـا.. عـلى وطـن العشـق الأزلي للحيـاة..

قلـت لي: لعلـك كنت تحلـم بسـبب ارتفـاع حرارتـك، كانـتْ حمّـى بسـيطة بسـبب التهـاب الجـرح.. لكـن أنـت الآن بخـير فقـد تجـاوزت الخطـر..

(هـذه عبارتـك التـي سـمعتها مبـاشرة بعـد أن اسـتعدت جـزءاً مـن عافيتـي.. كنـتُ في بيتكِ)عندمـا سـمعتُ صوتـكِ غفـوتُ مطمئنـاً أني لازلـت عـلى قيـد حيـاة. هـذه المـرة لم يهزمنـي المـوت، سـبقته اليَّ الحياة..سـمعت صـوتَ الثـورة..

سـمعتُ رنّـات المطـر عـلى زمـرد الـتراب في مـدنِ سـورية كلّهـا..

سـمعتُ أصـواتَ الريـح تلعـبُ بالزوايـا الثائـرة التـي امتهنـت التمـرد والعصيـان ..

سـمعتُ صوتهـا وصـوتَ تمـزق خيـام النازحـين، العائديـن إلى وطـن الشـمس، يجمعـون شـتاتهم ويودعـون الخيبـة كلّهـا..

وبرهان الدم أوضح من كلّ قضية..

أوضح من كلّ ضوء..

صوتـكِ يحيـط بي، وصـوت كل النسـوة الـلاتي مـررتُ بهـن في رحلـة التـشرد واللجوء.لكـن لم ينتـهِ فينـا تدفـقُ الوطـن المتعـب..

حتى دموعكِ التي فيها التوسل والمرارة والفقدان صارت قضية..

كأنها أم خالد تلك المرأة الحمصية التي حملت البندقية لتحمي بناتها من غدر الليل.

هل تكفي رصاصةٌ ووطنٌ لتصنع قصةَ حب؟

رصاصةٌ وحلمٌ على شفا حطام..

أنا لم أمتْ، كنتُ أنزف بين يديك مثل طائر قلقٍ..

أنا لستُ وطناً ولستُ خيالاً في الوقت ذاته..

ما كان يلزمنا هو ضمادات، وقطع شاش كثيرة..

وملقط كبير جداً وسكين وبعض الأدوات الحادة..

بدا لونكِ شاحباً، وتغيّر بهاء وجهك الجميل، فمهمتك ليست سهلة..

إخراجُ رصاصة من جسدٍ وتجفيف الدم لاتناسب امرأة بمثل ملامحك الناعمة..

فجأةً صمتتْ الجدران التي تهزأ بها الريح، فيعلو عويل الزنزانة..

المكان هو ذاته..

لكنَّ الزمان تزحزح..

وللوطنِ رائحةُ الخبزِ والانتظار والثورة...

المسافة التي كنا نتحدث عنها قبل أن نشتعل ثورةً..

والوقـت الـذي تركنـاه وراء جـدار الانتظـار غـابَ في وهـجِ الـدم..

عدتُ أنتمي لروايتي إلى الوطن المتلهف للحظة الوصال..

وأنا أستعيرُ من أحد أبطال الرواية عباراته:

(لاتصمت مثل بندقية ولاتتحدث مثل إعصار)

كن وطناً..

ولاتتسـلّق عـلى ذراع الخيبـة واسـتلقِ عـلى ذراعٍ مـن أنوثـة الثـورة..

درعا أم «سيدي بوزيد» ليس مهماً فكلُّها مدنٌ للحياة..

في المـدن كلهـا لاتـزال المظاهـراتُ سـلمية تتلـون بشـعارات الثـورة..

ويقتربُ الطريق إلى الحياة..يكنسُ ألغام الخيبة من طريقه..

يفجرُ الروح وطناً على ضفافه..

تلـك عمليـة اخـراج رصاصـة مـن جسـد ثائـر أو مـن جسـد وطـن..؟

خلعـتُ قميـصي أمـام امـرأة مثلـكِ تحـاول فقـط أن تخـرجَ رصاصـة عالقـة في الجسـد..

أذكرُ تفاصيل لقائي الأول بك..

أدوّنـهُ عـلى الـورق روايـة حصلـتْ مع فـارق كبـير جـداً فأنـا أبقيـتُ عـلى جمالـك كـما هـو لكنـي غـيرت انتـماءك..

كنتِ على الباب كأنهُ ميعادي معكِ..

صدفةُ القدر غريبةٌ ترتّب المواعيد لنا دون سابق إنذار.

لم أطـرقِ البـاب الـذي كان مفتوحـاً نصـف فتحـة وثمـة رأس يطـل منـه يغطيـه شـال أسـود حريـري فضـول جـارف لمعرفـة مايجـري وصـوت يقـول لي وأنـا ملطـخ بدمـي:

« هيا ادخل بسرعة أنتَ مصاب»

دخلـتُ دون أن أعـرف مَـنْ وراء البـاب ومـن يسـكنُ هـذا البيـت الدمشـقي القديـم البسـيط جـداً أسـماؤهم أعمارهـم عـدد الزهـر في باحـة البيـت وقطـرات المـاء مـن النافـورة الدمشـقية التـي لم تكـن تعمـل أصـلاً.

دخلـتُ وكان الـدم يتدفـقُ منـي كـما لـو أن نافـورة رقصـتْ بعـد تحررهـا مـن اعتقـال اللحظـة.

تغـيّر الزمـنُ و تزحـزح إلى الـوراء فأنـا منـذ أيـام فقـط خرجـتُ مـن المعتقـل إثـر اعتقـال دام شـهوراً فقـط بعـد تضامنـي مـع ثـورة ثـم لأجـد فتـاة جميلـة تنتظـرني كأنهـا موعـودة بي تضمّـد جـرح ثـورة..

اسـتلقيتُ بأمـر منـكِ عـلى السريـر سريـرٌ بشرشـف أبيـض مـا لبـث أن تخللـه لَـونٌ أحمـر مـن دمـي..

(أعتذر) قلتها..

تسمعينها وتنظرين اليّ بنوع من الغضب:

-هـل هـذا وقـت الاعتـذار الآن؟! يجـب أن نخـرجَ الرصاصـة مـن كتفـكَ..

ثـم تشـقين قميـصي بعمليـة سريعـة جـداً فأنـتِ لم تنتظـري خلـع الأزرار..

فأنا كنتُ أنتظرُ أن تفكي أزرار قميصي واحداً تلو آخر..

(أمنية روائية)...؟!

تابعتِ قائلةً:

-يجـب أن تتحمـل قليـلاً أنـا ليـس لـدي خـبرة بذلـك لكـن يجـب إخراجهـا.

كنتِ حائرة وكأنكِ مقيدة..

فجـأة تدخـل سـيدةٌ أخـرى رسـمتِ التجاعيـد عـلى وجههـا خطـوط الزمـن البعيـد ربـما تجـاوزت الخمسـين كانـتْ أمـك نعـم هـي أمـكِ وقـد بدأتمـا عمليـة سـبقها حديـث سريـع.

أمـك قالـت لـك إنـه مـن المتظاهريـن والأمـر فيـه خطـورة.. خطـورة بقائـه في البيـت.

أنا سمعتُ تلك الكلمات رغم همسها..

وقتها قلتِ لها أنت: (الأمر إنساني..هل نتركه يموت»

أمكِ لم تكن تعترض على المبدأ الإنساني، بل كانتْ تحسب حساب من رشقوا على جسدي الرصاصَ.

كنتُ أعي الحديث تماماً، فأنا مثلهم مترّقبٌ لخطر، متطلع له، خطرٌ لازال يحوم في المكان، وربما جنود الأمن كانوا على أمتار مني.

جئتِ بأدوات العملية، وقد هممت بها وكأنكِ خبيرة أو كأن مهمتكِ تقتضي أن تمارسي خبرتكَِ على جسدي.. جسدُ رجلٍ مصابٍ بهوس العشق أو الثورة .

أنتِ كنتِ تمارسين مهارات الطب البدائي وأنا رغم الوجع مشغول بملامحكِ..

عينان صافيتان مثل سماء تموز، ووجه كأنه أول الصبح، شعرٍ أسود داكن ظهر نصفه وبسبب انشغالكِ بي لم تحرصي كثيراً على تغطيته.

بعدها دخلتُ بغيبوبة الألم والثورة..

بقيتُ أياماً في ضيافتكِ حتى إلتأم الجرح.

أنتِ مُمارِسة حاذقة على الجسد..

وصرخة ثائر بمحاذاتها..

أنثى تلعب دورها التاريخي بالانبعاث من رحم الثورات..

نزفتُ كثيراً وقتها، وكنتِ معي لساعات تدارين النزيف وقد اضطررتِ للخروج الى الصيدلة مرة أخرى لاحضار لوازم طبية.. ومسكن للآلام..

قلتِ لي :

-الصيدلي سألني كثيراً كأنه شك بالأمر خاصة أن اليوم هو موعد المظاهرات كان الرصاص كثيفاً الأمور لم تهدأ حتى الآن.

لكن لاتخف بخصوص هذا الرجل نحن نعرفه ونتعامل معه منذ زمن لا أعتقد أنه يملك رغبة أن يشي بنا.

قلتُ وأنا ألفظُ الكلمات وكأنها تخرج من مكمن الرصاص:

-وهل عرفتِ من أنا ؟

قلتِ ما لم يعجبني:

-ثائر متمرد على الحكومة..

أعجبني التعريف الذي جمع بين المدح والذم .. ولم أعلّق عليه فرغبتي بدخول حوار وأنا بهذه الحال قد غادرتني..

لم أكمل كلامي وقلتِ لي :

-يجب أن ترتاح الآن. سأحضرُ لك شيئاً تأكله ولن تخرج من هنا حتى نطمئن أنكَ تجاوزت مرحلة الخطر فأنت لازلت تنزف.

كنتِ إلى جواري وأنا أشعرُ بك تطلين عليَّ بين الفينة والأخرى وكانتْ أمك تفعل الشيء نفسه..

هذا هو قميصي الملطخ بالدماء..

تركتهُ عندكِ..

وتركتُ الرصاصة الفاشلة..

فلادليل عليَّ إلا هذا القميص الذي احتفظتِ به بعد رحيلي..

هو قميصكِ وسرهاا وذاك الدم العالق به مثل عشقنا المعلق على جدار الثورة..

فصل

موحشة هي الغربة كاسمها الموغل في التغرّب والغياب..

كلُّ الأشياء هنا غريبة عن روحي مهما كانت قريبة..

لانشوة للانتصار، لا وعد قريب ولا أشياء تشبه الوقت المسروق من حقائب العابرين..

أشياءٌ غريبة تحدثُ كأنها تفصلني عن ذاتي، وأشياء أخرى لاتفسير لها.

مثلكِ أنتِ، وذلك القدر المفاجئ الذي عرّفني عليكِ أو جعلني على مقربة من المعرفة، المعرفة التي أجهل معالمها أو تفاصيل حدودها..

صدفةٌ أخرى حصلتُ من خلالها على عمل في إحدى محطات الراديو العربية التي تبثُّ من باريس.

لم تكنْ صدفة محضة، بل كانتْ مرتبة بعض الشيء..

لقاءٌ لي في المحطة الإذاعية مع بعض القائمين عليها..

عملٌ يسبقه فترة تجريبية تستغرق أسبوعين..

سأبتعدُ قليلاً عن تلك الشخصيات التي تآلفتُ معها..

شخصياتُ الفيلم الذي أنتظر عرضه قريباً في باريس وخارج فرنسا.

وقبل قليل قد حصلتُ أيضاً على خبر موافقة العرض..

أنتظر انتهاء القليل الباقي من ترجمته إلى الفرنسية..

في ذلك اليوم كان أول من خطر في بالي بمجرد أن سمعت بالموافقة المبدئية كان صديقي زيد..

زيد لازال في سورية وتحديداً في الشمال. قرّر البقاء هناك والتفرغ للعمل الصحفي الثوري متنقلاً بين سورية وتركيا. هناك نقلَ مقر الصحيفة التي كنا نعمل بها ووسع طاقم العمل وصارتْ الصحيفة تُطبع بشكل ورقي أيضاً بعد أن كانت صحيفة إلكترونية فقط..

كنتُ أجرّبُ الاتصال به عدة مرات..

الاتصالُ كان سيئاً للغاية..

إنها مشكلة عامة في سورية مشكلة حصولكَ على اتصال سريع مع الأشخاص..

فالبنية العامة لشبكة الاتصالات ليستْ كما هي عليه في الوضع الطبيعي..

كلّ شيءٍ تغيرَ.. حتى الذي يمزق أكفان الصمت يدفع الثمن باهضاً..

وحدي كنتُ..

والليل الذي يمتطي وجعي يتسرب ببطء من مسامات الصبر الأخير..

موت بطيء وزمن بطيء والانتظار وحش لايقبل بذلك..

وجنـون الحـبر لايكفـي؛ حتـى الذيـن يصفـون الوجـع هـم غريبـون جـداً.

فليس للوجع تعبير..

الذاكـرة أخذتني بعيـداً ثـم أعادتني إلى هاتفـي الجـوال كـي أكـرر محـاولات الاتصـال..

وبعـد محـاولات اسـتطعت أن أحظـى باتصـالٍ هاتفـي مـع زيـد..

صحيح أني منقطع عن الثورة..

لكني أحتفظ بظاهرة الجسد هنا فقط..

كنتُ لاأزال أمارس نشاطي العابر للحدود ولم يهدأ قلمي..

كنـتُ أشـارك الزمـلاء والأصدقـاء تحريـر أعـداد الصحيفـة رغـم البعـد..

وأكتب المقالات الثورية..

لكـن هـذه المـرة بالاسـم الحقيقـي عكـس مـا كنـا نفعـلُ في دمشـق مـع بدايـة الثـورة وبدايـة إصـدار الجريـدة التـي كانـتْ الأولى مـن نوعهـا التـي تتحـدث عـن الثـورات والثـورة السـورية رغـم العمـل السـري وظروفـه..

فلـم أكـن منقطعـاً عـن الحيـاة والضـوء ومسـاحة الوطـن الكبـير فأنـا في بلـد ليسـت بلـدي؛ لكنـي كنـتُ هنـاك دائـماً..

أسـتظلُ بالذاكـرة كـي أجمـع شـتات ذاتي؛ فالذاكـرة تجعلنـي

واحداً والحاضر يجعلني شتاتاً.. شتاتٌ في كل أصقاع الأرض، وكأنَّ جراحي موزعة كالتضاريس على الخرائط..

كأنّ كلَّ زاوية تعرفني، وتعرفني البحارُ والمحيطات والحدود والأسلاك الشائكة التي تفصل بين الدول، وجدران المعتقلات حتى في شرق أوروبا، تلك التي زجّوا فيها اللاجئين..

تعرفُني المطارات وشرطتها وحتى خفر السواحل والسواحل ورمالها..

لا زمنَ لجرحي فأنا كما يعرفني كلُّ أحدٍ..

هنا ائتلاف الروح في وطن بعيد..

غربةٌ ووجع واشتياق لكل ماهو جميل هناك، بل أشتاق لكل ماهو ليس جميلاً هناك، كأنّ الوحدة تهبط على روحي دفعة واحدة في هذا المنفى البعيد..

ذاك الذي ليس لذيذاً كقهوتي..

في روايتي التي لم يقرأها أحد بعد أشعر بأنَّ أم خالد قادمة إلي تحمل قهوتها وتقول لي:(تفضل) فأقول لها:

(قهوتك..! آه اشتقت إليها..إنها القهوة الوحيدة التي تذكّرني بالأمكنةَ)اشتقتُ إلى انتظاري لها..

اشتقتُ لسكينة الوطن بعد العواصف..

أكتبُ لكِ رسائل قد تصلُ أو لاتصلُ، وربما تصبحُ في أرشيف الصمت أو يقرؤها المهتمون بالقضية بعد موتنا..

كأني انتظرتـكِ أربعـين عاماً..لكنـكِ قلـت حتـى قصـصُ الحـب تُصـابُ بالملـل في أقـل مـن أربعـين عـام..

كان يجب أن نثور منذ أكثر من أربعين عاماً..

عبـارةٌ أجمـل مـن تلـك تخاطـرني عندمـا كنـتُ أحـاور أم خالـد سـألتني حينهـا لمـاذا تمتهـنُ الـكلام فقـط فهـل نفعنـا الـكلام؟

قلتُ لها في ذلك الحين:

-نفذتْ ذخيرتي..

قالتْ بكبرياء حاذق:

-ذخيرة الأحرار لاتنفذ..!

قلـتُ لحظتهـا بينـي وبـين نفسـي دون أفصـح :(فيـكِ شيءٌ مـن المسـتبدين لكنـه اسـتبدادٌ مـشروع)

فصل جديد

كيـفَ تبـدأ صباحـكَ الباريـسي بحـوارٍ مفتعـلٍ متخيَّـل مـع أشـخاص ليسـوا مفتعلـين.

في اليـوم الأول مـن العمـل التقيـتُ بعـربي عتيـق مقيـم منـذ زمـن بعيـد هنـا في باريـس عمـرة تجاوز الخمسـين بأشـهر..

لاجـئٌ سـياسي قديـم جـداً.. بـدأ حياتـه هنـا بتأسـيس دار للنـشر ثـم انتقـل للعمـل الصحفـي في جريـدة أسـلافه المهاجريـن ..

عندمـا التقيتـه في أحـد النـدوات التـي كان أحـد منظميهـا كان متحدثـاً عـن ثـورات الشـعوب العربيـة ذلـك العنـوان العريض الـذي يبـدو فضفاضـاً للبعـض أو خاويـاً أغـراني للمجـيء إلى صالـة لم تكتـظ كثـيراً..

هـو يعمـلُ في القنـاة التلفزيونيـة نفسـها التـي تضـمُ محطـة الراديـو التـي وقَّعـتُ عقـدَ عمـلٍ فيهـا. وكان حديثـاً للصدفـة عـن قصـة الفيلـم الوثائقـي الـذي يعالـج جـزءاً مـن الثـورة أخـبرني لحظتهـا أنـه سـيقوم بجهـوده الخاصـة كـي يقنـع العاملـين في المحطـة بعـرض الفيلـم.

أخبرتُـه وقتهـا أن فتـاة عربيـة تبرعـتْ بترجمـة الفيلـم بعـد أن عرفنـي عليهـا صديـق قديـم مقيـم في باريـس منـذ سـنين وقـد أعطيتهـا السـيناريو والحـوار الخـاص بـه لتقـوم بأعـمال الترجمـة منـذ حـوالي شـهر ونحـن نلتقـي باسـتمرار لأجـل ذلـك..

لقائي به فتح لي أبواباً أخرى للأمل..

وجهه المجعَّد القديم يذكّرني بأيام خلتْ من عهود الفرح..

لم أعد أتذكر الأزمنة التي اختلطتْ بعبق انتظاري لها.

الإعصار الذي أتى ولم يأتِ..

في الوطنِ الذي جمعتْنا ضفافه..

وتوشَّح الزمنُ الممطر بلوعة خفية..

ربما يذكرني بنساءٍ كثر لم أعشقْهن باستثناء واحدة..

فيها شيءٌ من الثورة أو هي الثورة..

لم ألتقيها بعد..وأشكُ بجدوى لقائها المزمع..

وكأنكِ أنتِ ذاتها التي تقولين: «دعها للانتصار..»

أردُّ عليك..-ربما هو قريب وهو آت لامحالة -

لانريدُ أن نصلَ الى مرحلة تقولين لي فيها تعبنا من الرومانسيات البائدة..

سأجيبكِ حينها: أجمل مافي هذه الثورة أنها أعادتنا الى الرومانسيات البائدة أعادتنا إلى زمنِ البساطة والعشق الجميل وملاحم البطولة الممتزجة بحب ينبع من الحرمان.. من وجعٍ متصوف حاذق في مهنته..

انظري ماذا فعلتْ لنا وبنا الثورة أشعلنا الشموع بعد أن أخذوا منا الكهرباء..

أوقدنا الحطبَ بدلاً من المازوت..لبسنا الصوف واستغنينا عن الحرير..

وظلال الشجر نيابة عن (المكيفات).. قطعوا عنا الماء وشربنا من الأنهار.

ولأنها الثورة فهي الحياة القادمة من وراء العتمات المزمنة..

تذكرتُ كلامكِ وقتها :(حرائق السياسة لاتلتهم الثورات العظيمة).

والتقينا..

التقينا وأنا أشك أني أكتب فاصلاً روائياً بعيداً عن الواقع للحظات ولم أعد أنا الراوي العتيق إنّما هو الخيط الروائي الرفيع..

في ذلك الفاصل تسألني أسئلة كثيرة.

تسألني بإسهاب عن أم خالد وعن غيابها المفاجئ بعد عبور الحدود..

أم خالد تلك المرأة التي أدهشتْ قارئها..

لم تنمْ زهرة التوليب..

لم تنم..

أغلقتْ أوراقها وغفت بهدوء.. وغلّفها شوقُ وانتظار تلألأ مثل ندى مقدس على ثوبها..

أذكر ذاكَ الصباح المميَّز الأول بعد أن غبتُ عن دمشق أشهراً وكانت الثورة على الطرقات. أشهراً في سجنٍ غريب يخلو من الفرح، بل يخلو حتى من العتمة نفسها..

صباح يوم دمشقي كان مزاجياً جداً، فساعةً تشعر أن الوقت يحتبسُ في لحظة فرح، وساعةً تشعر أن المدن بكل تناقضاتها اجتمعتْ في رأس مدينة واحدة.

اليوم الذي لا أنساه..

عندما كنتُ أمر على لحظات السجن هناك، كنتِ تلمحين التفاصيل وتتساءلين لماذا لم تترجم ذلك على الورق، كان لديك سبعون دقيقة؟

لأني كنتُ أمارس الذاكرة فقط..

ذاكرة التاريخ.. ذاكرة الثورات..

ذاكرة النساء المناضلات كأم خالد مثلاً.

عندما كنا طلاباً على المقاعد الخشبية في طفولتنا، كنا نظنُّ أن جميلة بوحيرد المناضلة الجزائرية العظيمة هي وحدها المعتقلة الوحيدة في الكون..

نحن الآن تعلّمنا أن جميلة ومعها جميلات أخريات هن أرقام وذكريات وتاريخ..

آلاف من نساء سورية يقبعن في زنازين الاعتقال التعسفي..

أذكر وجوههن..

أسمعُ صرخاتهن رغم أني لم ألتقِ بهن جميعاً..

إحداهـن قابلتهـا في تركيـا.. كانـتْ تخضـع لعـلاج نفـسي بعـد أن خضعـتْ لعـلاج جسـدي لم تشـفَ زاهـرة مـن آثـار الاغتصـاب النفسـية وهـي تـرى أن الآثـار الجسـدية بالنسـبة لها أخـف وطـأة.

قالـتْ لي وهـي إحـدى النسـاءِ المتحدثـاتِ في الفيلـم إنهـا كانت تقـتربُ مـن المـوت لكـن في كلّ مـرة تأخـذني الحيـاة إليهـا فأيُّـة حيـاة هـذه كـما تـرى هـذا جحيـم..

كان جحيـماً.. نحـن الذيـن مزّقنـا صورهـم لـن نعـود الى زمنهـم..

لن نعود عبيداً تحت سياطهم.. لقد لفظناهم من حياتنا..

لفظناهـم مـن وجودنـا.. مزقنـا ذاكرتهـم.. مزقنـا أسـماءهم.. أنهينـا وجودهـم مـن وجودنـا ولـن تعـودَ عقـارب السـاعة الى الـوراء مهـما كان سـيرها بطيئـاً..

انتهى زمنهم من زمننا..

هي التي قالت:(انتهى زمنهم من زمننا)

وطـنٌ وجـرحٌ وثـورةُ أحـلام لا تغفـو في وطنـي المرابـط عـلى تخـوم حريتـه..

الريح هي الريح...

الريح لازلت تكنّس الطرقات من ثرثرات الصدى..

وطنٌ وغياب..

وجرحٌ في ملوحته يردّد توق البنفسج..

في عينيها انحدار للحزن ولم تكشف كل أسرارها..

هي كلُّ النساء المعتقلات اللواتي ينتظرن رجالاً أو العكس.

تذكـرتُ كلامـك عـن مدينـة (سـيدي بوزيـد) في لقاءاتنـا الأولى أنـا وأنـت[1] تلـك المدينـة التـي بـزغ منهـا فجـر الثـورات العربيـة ضـد الطواغيـت..

أول مدينـة عربيـة تكلمـت بلغـة الحريـة.. المدينـة التـي احتضنـتْ حريـق ابنهـا (محمـد بوعزيـزي) .

أوطـان وأوطـان.. أوطـانٌ تجـوع عـلى جـوع وتتـأوه مثـل ليـل في أواخـره..

هـذي مدينـة أخـرى لاتختلـف فالمـدن العربيـة كلهـا تتقاطـع في أيدولوجيـا الحرمـان والحـب والحيـاة والمـراة والألم...

تنهّدَ الصبح فجأة..

هنـا أرجوحـة مـن عرائـشِ العنـب في زمـن الثـورة الـذي لم ينقـضِ..

لكـن عريشـة العنـب تدلَّـت ليـس مـن الثمـر بـل لأنَّ القصـف طالها..

البيتُ الذي ولدتُ فيه..

زرتُه قبل خروجي من دمشقَ..

كانت عمتي قد أغلقته زمناً منذ موت أبي..

هنا بيتنا السوري الذي خلا من ساكنيه، أب مات بعد اعتقال وأم لحقته حزناً..

بقيتْ جدرانه، حكاياته، ضحكاته الأخيرة التي لم أسمعها..

استفاق الوقت فجأة في غفلة من ذاته..

خلعت (جاكيتي) الذي بقي بحوزتي من ذاكرة الزنزانة المفترسة..

وجه المدينة مختلف هذه المرة، آلام تتوعدني وأخرى تكشر عن أنيابها، كسر في إبهامي، وقشعريرة لا تهدأ في جسدي رغم أنها بداية صيف..

عدتُ على صهوة حلم في ليلٍ قد أزف..

جرس الباب يرن..

استغربتُ أنَّ الكهرباء قد جاءتْ مثل مطر الصيف هكذا بلاميعاد، هل يعقل أنها حاضرة ؟

توهجَ قلقي أكثر من شبح الاعتقال فربما تحنُّ الزنزانة إليَّ مرة أخرى فمنذ البارحة علمت أن حملة اعتقالات واسعة وعمليات خطفٍ تطال أهالي الحي، بل تجري على نطاق واسع في دمشق..

نظرتُ إلى الباب الخشبي كأني أراه للمرة الأولى، تأملته في ثوان..

عندما قرعت الباب..شعرتُ أن صداه قصيدة عتيقة كلماتها مرت من هنا قبل قرونٍ خلتْ..

ذلك اليوم لم يكن عابراً على مساحاتِ الذاكرة..

أول شخصٍ حقيقي قابلته برائحة السجن هي المرأة التي أهدتني لأكثر من عشرين عاماً حناناً تمخضَ رجلاً أمامها ينازل النساء ببراءة..

عمتي زهراء..

تلك الموشّحة الجميلة المعلقة على جدران أيامي، تلك التي لو قلت بها كلاماً بتاريخ اسمها الأندلسي الجميل فلن أعطيها حقها، فأنا أبصرتُ عيوني على العالم لأجد أمامي امرأة بحجم وطن، فهي أمي وليستْ أمي..

عوضتْني بجغرافيا وجهها الجميل عن وجه أمي وأبي اللذين لم ألمحهما إلا في الصور.

منذ سنين وبعد أن تخرّجتُ في الجامعة وحصلت على عملٍ سكنتُ في شقة صغيرة بعيداً عنها، لكني كنتُ حريصاً دائماً على زيارتها، ومنذ إندلاع الثورة كان خوفها علي كبيراً، ولعل خبر اعتقالي سبَّبَ لها صدمة وألماً لم يصلني بحكم انقطاعي عن مسار التاريخ لحظة دخولي لتلك الزنزانة اللعينة.

سبقتها دموعها اليَّ، هي لم تصدق عودتي، لأنَّ أبي أمضى عمراً في غياهب السجن ولم يعدْ، دخل هناك ولم يعدْ، وهي الأخت التي انتظرته ولم يعدْ، وبعد فترة تموت أمي بسبب

ارتفـاع السـكر بعـد خـبر مـوت والـدي. كنـتُ حينهـا ابـن ثلاثـة أعـوام.

طفولـة أعـاد الزمـان تكوينهـا؛ لكـن عـلى حافـة الحرمـان التـي تجنبـتُ السـقوط فيهـا حتـى لحظـة إعـلان الخـبر.

ربـما كنـت عـلى موعـد مسـبق مِـع كل ذلـك؛ لكـن الثـورة هـي الـشيء الوحيـد الـذي لا ينتظـركَ عندمـا تمـر.

الثورة لا تنتظر أحداً..

فاصلة روائية

صدفةٌ أولى تشعلُ ثورة..

صدفةٌ ثانية تصنعُ حباً

وثالثةُ في مؤتمر صحفي في قلب دمشق..

كان ذلك بعد أن مضى على الثورة أكثر من أربع شهور..

كنتِ هناك..

وأنا كنتُ هناك..

بعد ذلك اللقاء الاعتباطي رتبنا لقاء آخرسريع..

ومرة أخرى تجمعُنا دمشق..

لكنَّ امرأة باريسية عربية تستدرجني للحديث عنك.. استدراج لحديث عن رواية لم

تكتمل.. رواية أغوتني زمناً لأتابع كتابتها ها هي اليوم تكتمل..

وأنتِ فيها لكن بطريقتي وليس بطريقتكِ..

فأنا أريد لتلك الأنثى أن تكون ثائرة متمردة وليست مثلك تبحث عن عذر يبرئُ -لاثوريتها- ورغبتها بأن تكون مائلة إلى الاستقرار بظل الاستبداد فالثوراتُ بنظرها كوارثُ لاتجلبُ الأمان والاستقرار..

هي تعرفُ تماماً أن المشكلة ليست في الثورة إنما بأنظمة

الحكـم القمعيـة..

امـرأة مثلـك تفضّـلُ الاسـتبداد السـياسي عـلى الثـورات لـن تكـون بطلـة روايـة أو حيـاة..

حديـث آخـر عـن امـرأة مـن حمـص تدعـى أم خالـد كـما تُكنَّـى تشـظتْ روحهـا في زمن الثـورات..

امـرأة ليسـت للنسـيان، لكنَّهـا للحـزن العتيـق، تلـك التـي تشـبه نفسـها حتـماً وتنتظـر الضـوء عـلى حافـة اليـأس، لا زالـت تؤمـن أن الثـورة سـتنتصر رغـم أنهـا خبَـتْ في الفـترة الأخـيرة بعـد أن خـسرتْ مناطقهـا..

وأخريات مثلها..

معانـاة زاهـرة أتعبتْنـي زمنـاً وأنـا أفكّـرُ كيـف كانـت شـهقات دموعهـا تقطـع الحديـث، وكـم مـرة أوقفـتُ التسـجيل.. وأخـيراً استسـلمتْ للصمـت وقالـت لـن أتابـع الحديـث..

لم نتابع لكني عرفتُ قصتها..

زاهـرة هـو الاسـم المسـتعار لهـا والـذي اسـتوحيته مـن اسـم عمتـي زاهـرة، فصاحبـة القصـة رفضـتْ أن تتحـدث باسـمها الحقيقـي، كـما رفضـتْ أن يظهـر وجههـا، وأنـا تفهمـت ذلـك وراعيـت كثـيراً ذلـك الجانـب مـن مبـدأ أخلاقـي وإنسـاني..

هي ليستْ مذنبة، بل نحن المذنبون بحقها.

هي لم تخترْ قدرها، إنها بطلة في رواية لم تكتمل فصولها..

رواية عرفت ماذا تصنع الحرب وماهي آثارها..

ذاكرة الحروب وجع مزمن يحتاج لذاكرة بعمر الحزن على الأرض..

(عندما أتى الجنود)

يوماً ما وقع صدفة بيدي هذا الكتاب.. لم أكمل قراءته..

آلاف النساء يقبعن في المعتقلات..

زاهرة إحدى اللواتي خرجنَ..

وإحدى اللواتي تحدثن لي ماذا فعلوا بكل معتقلة هناك..

زاهرة لم تتعافَ بشكل كامل من آثار الاعتقال النفسية وماتعرضّتْ له من تعذّيبٍ واغتصاب في المعتقل لكنها تحاولُ أن تستمر..

وأنا كنتُ مثلها حاولتُ أن أستمر..

كأنّنا على ميعاد..

كأننا على ميعاد في ذلك الزمن الدمشقي الهادئ، لكن فوق خراب..

أبحثُ عنك فأفتح باب الصدفة وباب الذاكرة..

أجد عنوانكِ على باب الغياب..

على هامشِ المؤتمر الصحفي تحدثنا قليلاً.. سألتِ عن إصابتي التي مر عليها مايقارب ثلاثة شهور..

لقاءاتي بكِ كانت قليلة جداً بمقياس الحب الذي أحاولُ تفسيره إن كان حباً أم لا..

لقاءاتٌ أعدّها على أصابعي..

اثنان.. ثلاث.. أربع..

أحاولُ أن أستعيد ذاكرتي منذ لقاء الرصاصة، فرصاصة غيّرت قدراً، كما تُغيّر وطناً..

كنتُ أظنكِ عابرة، مهمتكِ انتهتْ عند رصاصة، لكني أخطأتُ التصور، فثمة شيءٌ لا أفهمه يجعلني أفكر ملياً بتفاصيل ذلك اللقاء العابر الذي..

أنشغل بكِ دون أن أشعر..

أنتظركِ دون أن أضجر من انتظار صدفة..

من سجن إلى رصاصة الى لجوء..

والفاصـل الزمنـي بينهـا هـو أنـتِ التـي لم أعـرف إن كنـتِ حبيبتـي أم حبيبـة البطـل في روايتـي؟

لكن التقينا..

جادة رقم سبعة..

هنا دمشق مرة أخرى..

وهنا جزء من عمر الثورة يمرُّ دون أن نكترثَ له..

تأخّـرتِ كثـيراً بينـما كنـتُ أنـا أكـرّرُ النظـر إلى سـاعتي وإلى نافـذة تطـل عـلى خيبـة.

فهـل أضعـتِ المـكان؟ هـل نسـيتِ تفاصيـل العثـور عليـه بسرعـة؟

في سـاعاتِ اللجـوء فقـط أحـاول اسـترجاع تفاصيـل اللقـاء؟ ربـما لـضرورات روائيـة..

أو لـشيء آخـر أجهلُـه في بيـتٍ دمشـقي قديـم حوّلـه صاحبـه المغـترب عـن الوطـن إلى مقهـى.

المسـاءُ الـذي عـدتُ فيـه متخفيـاً هـو الـذي يجمعنـي بـكِ الآن..

هـو الحـي ذاتـه لم يتغـير؟ لكـنَّ صـوتَ رصـاصٍ متقطـع ليـس ببعيـد سرق بعضـاً مـن أمانـه.. وشـارعان يفصـلان بينـي وبينـكِ..

ثورة وحلم وانطفاء في لحظة حاجة..

توغّلتْ فيَّ أعمدة الوقت..

وانكسر واحد منها فقط.. قلبي وحده بقي صامداً رغم كل التصدعات..

(قارمة) زرقاء مكسورة بعض كلماتها مُسِحَتْ تماماً. .لوحة تشير إلى وجود سكان في هذا الحي، حيٌّ هجره معظمُ ساكنيه جراء القصف.

قريبٌ من دمشق، على تخومها أبنية متصدعة وأوراق متناثرة بيضاء على أرصفته العتيقة...

مئاتٌ تركوا الحي، وبعضُهم بقي تحت وطأة الخوف والترقب والانتظار..

وكثيرٌ من الصبر الذي يستطيل مع استطالة الثورة التي تقارب عامها الأول يسمح للآخرين بالبقاء..

ومجارير المياه التي تملأ مياهها المتسربة في الشوارع حيث يختلط الماء بالتراب بالدم بالمطر.. توحي لكَ أن هذه المدينة تتخلى عن شغفها بأناقة التفاصيل، وخاصة في جزئها القديم الذي يحكي قصة التاريخ..

أسماءٌ كثيرة خطرتْ في الذاكرة لكن قصة وئام أكثرها ألماً..

أفكاري المتعمدة انقطعتْ على صوت ما..

هاتفي الجوال يرن..

انعطفتُ الى زاوية.. فتحتُ الخط..

كان صوتكِ.. صوتكِ الذي لم أسمعُه منذ فترة طويلة..

لماذا تأتين الآن؟ هل شوقاً أم فضولاً أم تتمة لاستكشاف رجل مرَّ خلسة في حياتكِ تحت مسمى رصاصة ؟

قلتِ لي معتذرة أنكِ ستتأخرين قليلاً لكني سأنتظرُ..

ألا تغامرين عندما تلتقين بثائر وأنت التي تعملين خارج مشروعه الثوري ولا تفكرين لحظة ماهي الثورة ولماذا هي الثورة ؟

ألا تخافين أم أنكِ وضعتِ حزام أمانكِ؟

لحظات.. فدقائق.. فنصف ساعة.. ثم تطلين..

وبينما تنشغلُ ذاكرتي بالأسئلة عنكِ لمحتكُ من خلف بلور النافذة قادمة..

بادرتني بالتحية وكان وجهكِ باسماً ابتسامة براغماتية لكن عينيك لغة أخرى.

-تأخرتِ وظننتُ أنكَ لن تأتي .

رددتِ:

-أعتذر لتأخري واعتذر لكلماتي المقتضبة على الهاتف صعبٌ أن أستخدم الهاتف الجوال في التواصل المباشر لا أستطيع دائماً طبيعة

عملي تفرض عليَّ الحذر.

سألتكِ :

ـ ممن تخافين؟

شردتِ لكن ليس بعيداً ..وأجبتِ:

-أخـاف مـا يفـترض أنـك تخافـه عندمـا يصبـح الخـوف منطقيـاً إلى حـد مـا..

أجبتكِ:

-أنـتِ بمنطـق السياسـة مواليـةٌ وخوفـك لامـبرر لـهُ لا يبـدو منطقيـاً.

قلتِ:

-ليـس مـن الـضرورة أن يكـون الخـوف مـن الأنظمـة فقـطْ نحـن قـد نخـاف أشـخاصاً وأشـياءً وربـما نحـاف المواقـف ونتائجهـا..

-الخوفُ مـن الأشـخاص عبوديـةٌ وثورتنـا أحـد أسبابها هـو الانعتـاق والتحـرر مـن الخـوف.. التحـرر مـن الشـخص..

أجبتكِ..

قلتِ:

-لهـذا السـببِ اخـترتَ مكانـاً غريبـاً ومتطرفـاً لا أرى فيـه أحـد سـوى بعـض الأشـخاصْ

فهل أنتَ معتادٌ عليه..

رددتُ :

-نعم أنا أرتاده باستمرار أنا أثق بهذا المكان.. هذا المكان كان بيتاً صاحبه مغترب باعه لمستثمر فحوّله كما ترين إلى مقهى ومطعم..

قلتِ:

-هل يمكن أن نثق بالأمكنة؟

أجبتكِ:

-الأمكنة هي الشيء الوحيد الذي ينتظرنا دون أن تمل من الانتظار.

أجبتِ بذكاء كمن يترصد كلماتي:

-لكنكَ قلتَ قبل قليل أن هذا البيت قد باعه صاحبة.. إذاً لم يعد هذا البيت ينتظر صاحبه..

فقلتُ لك:

-ربما علينا ألا نغدر بالأمكنة..

ثم غيّرتِ صيغة الكلام بسؤالٍ غريبٍ لكنه يبدو في مكانه بالنسبة لكِ:

-وهل تثق بي بما فيه الكفاية كي أكون على دراية بمكانك المحبب أنت لاتعرفني بما فيه الكفاية هذا من جهةٍ

ومن جهةٍ أخرى أنا أعمل على الضفة المعاكسة لضفتك..

وقبل أن تكملي قاطعتكِ:

-أنت احتفظتِ طوال هذه المدة برصاصتي..

عدا ذلك لايعنيني مايأتي بعد ذلك أنا أثق بمن يدخلون هذا المكان قلتُ ذلك أنا ثم غيرتِ أنتِ الموضوع تماماً:

-بالمناسبة أنا أتابع باستمرار أعداد جريدتكم.. أنا أقرؤها..

النادل تأخر.. ثم جاء يسأل مانريده.. طلبنا قهوة. وبقيتُ في محور آخر ما قلتِهِ:

-إذاً أنتِ تقرأين ماأكتب؟! إذاً لن أسألك عن رأيكِ؟

-لماذا؟

-الحرية لاتحتاج إلى رأي..

لم تجيبي وفضلتِ عدم الردّ.. ثم غيّرتِ الموضوع بصيغة أخرى:

-مادمتَ تكتبُ فهذا يعني أن ذراعك قد تعافتْ لذلك لن أسألك بعد الآن كيف أصبحتَ سأعرفُ أنكَ صرتَ أفضل كلما كتبتَ أكثر..

-سأظل أكتبُ عن الحرية حتى أكون صالحاً للحياة؟

صمتٌ سيطر على حوارنا للحظات شعرتُ بارتباك فيكِ فقلتِ:

-سألتني في المؤتمر الصحفي إن كنتُ أستطيع التواصل مع أشخاص حول صديق معتقل لك، الحقيقة هناك زميل لنا يعرف ضابطاً في فرع المخابرات، قد نعثر من خلاله على إجابة، طبعاً إن كان معتقلاً هنا في دمشق..

لقد توصلنا إلى اسم مشابه لاسمه وبذات المواصفات..

قلت بلهفة:

-نعم وئام عبد الخالق. وهو هنا في دمشق..

-الحقيقة كل ماعرفته من زميلي هو أنه لازال حياً، وغير ذلك لم نستطع أن نعرف شيئاً.. لكن ما لم أعرفه منكَ ماقصته أو ما هي تهمته؟

أجبتكِ مستنكراً بأدب:

-وهل يحتاجُ الثائر لى تهمة؟

قلتِ:

-هل كان مع المتظاهرين الأوائل أم هو منذ زمن بعيد في السجن؟

قلتُ لك :

-خبرٌ سار إن كانت الحقيقة كذلك، وأنا أشكركِ غالية.

-لاداعي للشكر، أنا ما فعلته مجردُ سؤالٍ عنه لم يكلفني شيئاً، لكنك لم تقل لي هل كان قديماً أم خرج في المظاهرات، أم...؟

قلتُ لكِ بقسوةٍ ليستْ قاسية:

-جميلٌ منك أنكِ تسمين الأمور بأسمائها.. لكني سأشكركِ قلتِ وكأنكِ تمنين علي بلطف وتلمحين إلى القصة القديمة للرصاصة:

-وهل ستظل تشكرني دائماً؟!

ثم سكت وأكملتِ شرب قهوتكِ.. شعرتُ أني كنتُ لئيماً معكِ وليس من حقي أنأعاقبكِ بالكلمات..

قلتُ قاطعاً الصمت بيني وبينك:

-أعتقدُ أن لقائي بكِ هو خطر عليَّ وعليكِ في هذه الفترة سأتواصل معكِ على «الماسنجر» إن كنتُ تقبلين؟

قلتِ:

-وما الذي يدفعكَ لكي تحافظ على زمالة أو علاقة مع واحدة مثلي تعكر صفو انتمائك للثورة واحدةٌ تناقضك بكل شيء تعمل في الخط المعاكس والمعادي لكِ؟

شعرتُ أنكِ قد حشرتني في الزاوية الضيقة فأيُّ جواب يليق بمثل هذا السؤال؟

ماذا أقول لك وقد شخّصتِ الحالة باحتراف؟

أبحثُ عن إجابة سريعة فلا أجدها ربما تكون الإجابة موجودة لكنها لم تكتمل هل أقول لك بأنّي أحبك وأحاول ألا أحبكِ؟

هل أقول لك أنّي لم أعلم بعد بالفعل إن كنتُ فعلاً أحبكِ أو أحاول أن أحبكِ؟

هل أقول لك أنّي لا أريد أن أبتعدَ عن امرأة أنقذتني لذلك فإن اقترابي منها هو الرد الوحيد على ذلك الدين القديم؟

قطعتِ شرودي بانصرافكِ مودعةً:

-حسناً أنا يجب أن أذهبَ الآن لدي دوام مسائي..

انصرفتِ..

وبقيتُ وحدي.. وتركتِ وراءك أسئلة غريبة.. لم أتحرّر بعد من خدرِ سؤالك الذي لم أجبكِ عليه وكأنه مسألة رياضيات من ذلك النوع الذي أكره..

انصرفتِ بخطىً حذرة ومتوترة تماماً مثل ثوبكِ الأسود الطويل الذي تداعب الريح أطرافه.. كأنَّه ثوب يعلن عن حالة حداد في حياتكِ..حالة حداد لم أعرفها ولم أسأل عن سرها وسر ذلك السواد.. فعلى منْ أنتِ حزينة؟

ذهبتِ وبقي منكِ خيط روائي أمسكته صدفة فاهتديتُ إلى الباب الذي لا أريد أن أضيّعهُ مرة أخرى.

لكن كيف سأعبرُ إليكِ بعد اليوم وأنت التي قطعتِ الجسر بسؤالك فكأنك تقولين لي إما أن تكونَ معي دون أن تجاملَ نفسك أو تبتعد وتكون حقيقياً مع نفسك..

فأنا عاشقٌ ولستُ بعاشقٍ..

حاقدٌ ومحبّ..

فكيف تجتمعُ فيَّ كلّ تلك الأضداد بآن وتكوني أنت سبب كلّ تلك التناقضات؟ فكل مدينة أنتِ؟ وأنتِ اللاشيء والشيء أيضاً..

وكأنّكِ تلك المدينة المقطَّعة بالحواجز.. وأنا المطارد الهارب المطلوب الذي يسمع آخر العبارات «لاتتأخروا بالعودة فالوطن بحاجة لنا..

غالية سرٌّ غريبٌ يمرُّ في حياتي فجأة؟ أتحايلُ على اهتمامي اللاإرادي بها؟ أتجاهل كرهاً منطقيا لها؟ فهل أبحث لها عن مبررات مثلاً وأجدد الصدفة معها كل وقتٍ؟

تلك الصدفة التي قادتني إليها؟ إلى بيتها لا إرادياً ولا دليل على ذلك سوى خط الدم الذي تسرَّبَ من جسدي كي أعرف طريق العودة فيما بعد..

هل اختلقتُ قصة وئام كي ألقاها وتلقاني وتتحدث معي؟

هل كان وئام الصديق المعتقل هو الغاية؟ خاصة أن عائلته فقدت الأمل من العثور عليه بعد محاولات حثيثة للحصول على طرف خيط يعرفون من خلاله إن كان حياً؟ أم أنه صار في عداد الموتى والمفقودين ؟

وئام عبد الخالق وهو الاسم الحقيقي لصديقي صاحب الاسم المستعار «جاد الفضل»وهو مصورنا المغامر الشجاع الذي يعمل منذ بداية الثوة في حمص؟ قدم إلى دمشق منذ

أقل من شهرين وبعدها فقدنا الاتصال به؛ اختفى فجأة دون سابق إنذار؛ ومما لاشك فيه أنه وقع بأيديهم على أحد الحواجز؛ وهناك تمّ اصطياده...

كان وئام يصور معظم المظاهرات بحرفية كبيرة؛ وكان قبل ذلك يدرس معهد برمجيات الحاسوب وتخرج في تزامن مع الثورات العربية.

وئام وحده الذي كان يروي لنا بحرفية تستفز وجدانك كيف تحولت الحدائق إلى مقابر؛ ففي سورية وحدها صارت الحدائق -التي عادة مايسمونها أوكسجين الحياة- مقابراً..

فجأةً تغيّرتْ ملامح الوطن الذي افتقدناه ولم نفقده..

توحَّد الخرابُ في لحظات..الأصدقاء سقطوا على الطرقات..

وفي كلّ يوم كنا نودع جسداً؛ بل أجساداً على جغرافية الوطن السوري..في كل يوم؛ بل في كل ساعة نزفّ كفناً إلى الحياة فتزداد الحياة ميلاداً..

يتسرّب طهر الدم من أنوثتها البريئة.. تلك الأرض التي أدمنا عشقها..

في كل يوم كانت القوافل تعبر من هنا؛ تهتف للحرية وتابع الزحف نحو ميلاد جديد قد يكون مخاضه عسيراً على امتداد الوطن..

كثيرون منهم عبروا إلى الخلود وآخرون ينتظرون الدور.. ينتظرون رمقاً من حياة في حياة نريدها كريمة.. وحرية حمراء تخرج من توابيت الأسى والقهر..

فالجرحُ في طمأنينته تصدّع عل حواشي الانتظار..

صمتَ الوطن الجريح فجأة لكن لم تصمت أرواحنا عن الحياةواستمر الشعاع ينتظر..

شعاعكِ أنتِ ابتعدَ..

هل يعقل أن يسبب لقاؤك ووداعك كل هذا الشرود عندي..المكان خلا مني ومنكِ..

وعدتُ من الذاكرة وشتات الأفكار لأجمع الخيوط على الورق..

أبطال آخرون

لم يكـن اليـومُ عادياً كبقيـة الأيـام فاليـومُ هـو اليـوم الأول الـذي أباشرُ فيـه عمـلي الجديـد في المحطـة الإذاعيـة.. أسـبوعان مـن الاختبـار والتدريـب خضعـتُ لهـا فأنـا سـبق أن عملـت في محطـة إذاعيـة في سـورية لمـدة أشـهر ثـم انتقلـت للعمـل في جريـدة خاصـة..

اليـوم أبحـثُ عـن مناطـق أخـرى لحلـم يتسـع لكـن ينغّصـه البعـد عـن الوطـن..

تلقّيتُ اتصالاً من ماريا حداد مهنئة إياي بالعمل الجديد..

أخبرتني أنها أنهت الترجمة..

شيءٌ آخـر كنـتُ أعيـشُ انتظـاره لكـن أهـم ماأنتظـره الآن هـو عـرض الفيلـم..

وحتـى تلـك اللحظـة سـأبقى في طابـور الانتظار..سـأنتظر كثيراً..سـأنتظرُ كيـف تـسرعُ الحـرب نحـو حتفهـا ولكنهـا لاتنتهـي ولايعـود الوقـت الى ثكناتـه ولاتتعـبُ أسـلحته فأموت رميـاً بالرصـاص أو بعينيـكِ فأنـا أبحـث عـن قصـة أكتبهـا..

وأتخيـلُ عشـق امـرأة أنـا أرسـمها عـلى مزاجـي فالواقـع متعـب والبحـث عنـكِ في زحمـةِ العائديـن مـن محـرابِ عينيـكِ لاتجـدي..

سنين تمضي من عمري..

عمرٌ ثوري حائر بين عناق الجدران المتهالكة والغربة..

متصـدّع هـو الحلـم، مثقوبـة سـتائر الريـح.. والأمـلُ القليـل المتـسرب كأنـه الوطـن..

عمـل جديـد أعـادني إلى سـنين العمـر التـي خلـتْ عندمـا كنـتُ أمـارس العمـل قبـل الثـورة وبعدهـا .

كانت صعبة تلك الأيام، لكنها بطعم الحياة..

عندمـا قـرّرتُ أن أعـودَ للنشـاط الثـوري متخفيـاً كان أول شيء فكّـرتُ بـه هـو توثيـق بعـض تفاصيـل الثـورة.. في تلـك الفـترة تمخضـت فكـرة صناعـة فيلـم وثائقـي أبطالـه سـوريون أخذتهـم أوجـاع الاسـتبداد إلى مناطـق الخـذلان..

تركـتُ لهـم المجـال كـي يتحدثـوا عـن جراحهـم، فجراحُهـم ليسـت صامتـة، هـي تتحـدث بقـوةٍ ولا داعـي لحديثهـم، لكـن صوتَهـم كان مهـماً بالنسـبة لي.

عندما كنتُ هناك يوماً..

ساعات كأنها عمر.. والعمر مرّ كأنه لحظات..

كأني البارحـة كنـتُ هنـاك بينهـم، أسـمع أنـين جراحهـم وأكتبهـا عـلى ورق انتظـار الصحـو أو الصحـوة..

مرَّتْ سنين كأنها ثورة..

كلُّ شيءٍ أذكـره الآن وأكتبـه تفاصيـل لزمـن قـادم عـصيٍّ عـلى الخـذلان..

دخولـكَ إلى مدينـة تحـاذي دمشـق مغامـرة ليليـة غراميـة تظـن في لحظـة أنهـا المـوت المحتـم فالطـوق الأمنـي آنـذاك كان قويـاً حـول دمشـق وداخلهـا..

تسـللتُ مـن بين حـروف أنـا أكتبهـا حاليـاً عـلى الـورق، مغامراً حـذراً يبحـث عـن أشـخاص كـي يبنـي قصـة أو يبحـث عـن قصـة موجـودة أصـلاً، لكنـه يبحـث عـن أصحابهـا كـي يصنـع شـخوصاً متحركـة في فيلـم وثائقـي ليخـبر أشـخاصاً آخريـن عـن الثـورة أو جـزءاً منهـا، جـزء بسـيط جـداً..

كنتُ هناك.. مضت سنين قبل تاريخ الذاكرة..

كنت مثلهم جغرافية من جراح..

وكأنهـا القيامـة حقـاً.. ذلـك هـو التشـبيه المناسـب لمايجـري وماجـرى..

مـدنٌ بأكملهـا تحـترق، وتُعـاد معـالم تكوينهـا إلى ماقبـل عهـد الـولادة دون أن يـرفَّ جفـن للفاعـل.

مشهدٌ يتكَّرر حتى لحظة تأملي للمشهد..

مَن الشاهد على الموت الجماعي؟

العالم كله هو الشاهد..العالم كلُّه ألا يكفي؟

هـل أنـا مضطـرٌ بالفعـل كـي أحمـل الكامـيرا لأصـور مشـاهد الدمـار الشـامل والجثـث المتفحمـة التـي كأنهـا لم تكـن يومـاً تعيـش قصـة الحيـاة عـلى هـذه الأرض؟

بعـد لقائـي بـكِ استوحيت منـكِ -براغماتيـة- الأشـياءَ فالرومانسـية الغارقـة بمتاهـات المثاليـة التـي لـما تـأتي أتعبتنـي دهـراً.. أنـا الـذي سـأموت فيـما بعـد لأجـل قضيـة..

قضيةٌ كالحب مثلاً توحي لكَ بالموت أو الحياة..

ونضَجَ معها الجنوح الى واقع ليس بواقع...

لقاؤنـا أهـداني أمـلاً لمسته في كلامـكِ ويبـدو أن ثمـة شيءٌ سـيحصل بخصـوص هـذا الفيلـم.. فباريـس إذاً اسـتحقتْ عنـاء المجـيء إليهـا لكـن سأعود إلى مشـهدي الأول مـن ذلـك اليـوم. المشـهد الأول كان مـن مدينـة داريـا في دمشـق التـي شـهدت أكـبر وأفظـع مجـزرة (كيماويـة) في القـرن بحـق مدنيـين أبريـاء معظمهـم مـن الأطفـال..

مشهدٌ أول لكنه لم يكن أخيراً في تاريخ الثورة السورية..

لم نطفئْ مصابيحنا الزرقاء في تلك الليلةَ ونمنا على وجع..

عـدتُ بذاكـرتي الى كل الأشـخاص الذيـن لازالـوا سـوريين في فيلـم مدتُـه أقـل مـن سـاعتين..

سوريون يبدعون بمنازلة الجرح..

عـدتُ الى ذاكـرة عميقـة أنبشـها بكبسـة زر كلـما اسـترجعتُ اللحظـات عـلى جهـاز بسـيط جـداً..

في سورية.. في مدنها الغافية على كتف الألم..

في نقطـة تلاقـي القلـب والـروح وهـذه الثـورة التـي هـزت عـروش الباطـل عـلى كل تضاريـس الأرض..

رائحة الخبز الليلي تفوح بالمكان مثلما تفوح نسائم الثورة في مساءات وطن وفي نهاراته..

نسوةٌ كثيرات صارتْ صرخاتهن وطناً..

ماذا بقي من داريا وأهلها؟

ماذا بقي لنا من حمص ودير الزور؟

ماذا تركوا على ضفاف الوداع هناك؟

ومن يعيدُ الزمنَ إليهم إلى زمانهم همْ لازمان ظالميهم.

ترهقني الذاكرة بقسوة وتأخذني إلى داريا لحظات وكنتُ هناك وشهادات مقتضبة لم أجد لها عنواناً سوى كيف أختار اسماً لما يفوق التسميات بعد تلك المجزرة التي أبكت الحجر..

إحداهن فقدتْ كل أولادها.. كم هي جبارة! إنها تحتاج الى رواية بل روايات بحد ذاتها.. صورها ملأتْ مواقع الانترنت والتلفاز.. عندما التقيتُها كي تروي ماحصل رفضت الكلام..

فلا حاجة للكلام فما حدث أكبر من كلّ كلام..

تجاعيدُ وجهها الحاني تشبه أرضَ هذا الوطن وجغرافية الانتظار والحزن وتضاريس الثورة..

لم تتكلم لكنَّ الصورة نطقتْ..

أصدقاءٌ لي قضوا قبل المجزرة وبعدها منهم من بقي ومنهم من مات ومنهم من أُعتقل..

هنا في داريا كانت المظاهرات سلميةً زيتونيةَ الأغصان..

هناك كانوا يرفعون لافتات تفننّوا بها أحياناً وأحياناً تكتب على عجلٍ لكنها جميلة على كل حال..

وصولي الى ريف دمشق الذي يشهدُ اشتباكات عنيفة وقصفاً همجياً وخاصة في الغوطة الشرقية كان أشبه بمغامرة في حلم..

دخلتُ النفق.. كان مظلماً مرعباً أشعر أني سرتُ به دهراً.

ذلك النفقُ هو السبيل الوحيد الذي يأكُل من خلاله أولئك البشر في ريف دمشق المحاصر عقاباً على ثورته..

التقيتُ هناك بشراً.. التقيتُ أجساداً صمتتْ عن الحلم..

المكان خالٍ تقريباً لكنه لازال متوجاً بالحياة عددٌ كبيرٌ من ساكنيه لم ينزحوا إلى أماكن أخرى بل فضَّلوا البقاء هنا تحت عذابات القصف والقهر والتمزق..

وبعضهم عاد الى داريا مباشرة بعد انتهاء المجزرة المروعة التي استمرتْ قرابة أسبوع. عادوا ووجدوا فظائع لايتوقعها عقل بشر يؤمن بالبشرية ومنطقها العبقري.

الأعداد التي تم توثيقها فيما بعد كانت أكثر من سبعمئة قتيل قضوا هنا في أكبر مجزرة في عمر الثورة السورية لكن الكثير من السكان والناشطين ومصادر حقوق الإنسان

تؤكـدُ أن عـدد مـن قـضى في مجـزرة داريـا يقـارب الألـف ويزيـد..

بـين العشريـين مـن آب والسـادس والعشريـن منـه مـن عـام 2012 كان القتـل متواصـلاً في هـذا المكـان الـذي لم يسـتتر عـن عيـون الشـاهدين.. لم ينـم أحـد عـن مجـزرة داريـا..

فقـط ضمـير العـالم نـام عنهـا مثـل كل مجـزرة مـرَّتْ فـوق الـتراب السـوري..

لكـن توثيقهـا لم يصعـب عـلى كثـير مـن الشـباب الذيـن أبـوا إلا أن يظهـروا الحقيقيـة التـي هـزَّتْ جـدران صمـت الدنيـا.. هنـا أجسـاد لاتريـدُ أن تمـوتَ بصمـت..

هنـا جيـل آخـر لايريـد إلا إثبـات قدرتـه عـلى الحريـة والحيـاة والانعتـاق مـن قبضـة الأنظمـة المستبدة..

جيـلٌ يريـدُ الضـوء حتـى لـو كانـت كامـيرا الهاتـف الجـوال البسـيطة هـي أداتـه..

فقد انتهى زمن القتل في العتمة..

انتهى زمنُ الذبح دون أن نسمعَ صوت السكاكين..

انتهـى زمـنُ اغتيـال الحيـاة في الظـلام كـما حـدث في حمـاة وسـواها..

ولَّى زمنهم و هنا سندفن الخوف..

سندفنُ وجودهم.. أسماءهم.. صورهم.. بقاياهم..

سنسحبُهم من ساعات جدراننا.. من أنفاس حقولنا.. من حناجرنا.. من جدراننا التي تحرَّرتْ من ملحهم الباهت..

ونرسمُ زمناً انسحب من زمنهم..

صاروا وراء العتمة.. صاروا وراء الريح..

داريا مثل كل مدينة سورية قالتْ كل ذلك ولم تصمت، ووزعت آهاتها على هذه الأرض.. فلم تهدأ مثل كل مدينة سورية وقرية سورية وحارة سورية وزقاق سوري..

لم تهدأ من قلق الانتظار، ولم تتعب، ولم تنتهِ فيها الحياة..

لفظتْ مفردات تحرّرها بكل المعاني..

بعد عودتي من مهمة سرية..

وطنٌ أختصرُه في دقائق من ألم.. في ستين أو سبعين أو تسعين دقيقة..

قصصٌ كثيرةٌ أيقظتني لكن قصة امرأة شابة تدعى زاهرة في عقدها الثاني أيقظتني أكثر فأكثر، وفتحتْ باب جرح أقرب للخيال الإجرامي..

زاهرة كانت إحداهن.. امرأة من نساء كثيرات التقيتهن، منهن من اعتقلت ومنهن من فقدتْ أباها أو زوجها أو أخاها.. قصصهن وقصصهم لا تنتهي..

لكنَّ قصة تلك المرأة استوقفتْني..

ربما لأنّ استماعي إليها كان صدفة، فهي امرأة ناجية من محرقة إلى محرقة، هاربة من جرحٍ إلى جرح..

ليستْ امرأةً عادية، ولا يمكن أن تكون قصة هروبها من المشفى أو عملية تهريبها على يد الطبيب عبد الحي الموصللي مثل فيلم تم إنتاجه ببراعة في هوليوود، لكنه ليس فيلماً بل حقيقة..

سمعتُ قصتها..

كتبتُها..

زاهرة كانت امرأة من نسوة كثيرات لم يستسلمن اللانكسار رغم كل المتخاذلين.

زاهرة هي احدى نسوة مدينة داريا.. ناجية من محرقة الكيماوي وهاربة من جحيم الاعتقال..

تخرجُ من سجنها إلى المشفى العسكري بعد نزيف حادٍ تعرضتْ له إثر عمليات اغتصاب وحشية وممنهجة تعرَّضتْ لها مثل بقية المعتقلات..

وفي المشفى يخبرُهم طبيبها أنها ماتتْ، لكنها لم تمتْ، ليقوم الطبيب نفسه بعملية تهريبها من المشفى، وبعدها بحين يهربُ هو نفسه ويصبحُ أكبر المطلوبين..

أكبرُ المطلوبين للنظام ومخابراته، وأكبر الشاهدين على عمليات اغتصابِ النساء بحسب الأعداد التي كانت تمرُّ تحت يديه للعلاجَ في أحد المشافي الحكومية الرسمية التابعة للنظام، والتي كان يعمل بها.

هـو الطبيـب الـذي حاولـتُ جاهـداً أن ألتقيـه في إسـطنبول لكـن دون جدوى.زاهـرة وحكايتهـا مثـل سـورية وجرحهـا المفتـوح للريـح والغـدر والأوغـاد..

لم تهز مجزرة داريا وجدان العالم، فقد مرَّتْ مثل سابقاتها في جسر الشغوروالحولة وبابا عمرو والتريمسة والقبير وغيرها من مجازر انتشرت مثل الخيبات على رقعة الوطن..

وقتها لم أستطع إلا أن أغمض عينيَّ عندما أشرفتُ على داريا..

استقبلتْني رائحةُ الموت..

كانتْ آثارُ الموت ترسمُ خطوات الآتي..

وسطوة الهمجية عبثتْ بها وتركتْها نازحةً نازفة من ألم إلى ألم.

ماذا ستروي لي عن تلك الليلة بل عنى تلك الليالي ..؟

ولازلت اللوحة الزرقاء تقول لنا داريا تبعد عن دمشق عدة كيلو مترات..

عندما عدتُ دمشق بدأتُ بإجراء عملية «مونتاج».. لم أفعل ذلك، أبقيت التفاصيل كلها دون حذف..

لكن أين التقيتُ تلك المرأة التي أمسكتُ من خلالها بهذا الخيط الروائي؟

فأنا بحثتُ عنها ولم أجدها، لكني عثرتُ عليها من خلال كلماتها..

قالت لي:

الطغـاة يتركـون المـوت يـمارس شـهوته دون إشـارات حمـراء أو خـضراء..

الطغـاة هـم الكائنـات التـي خرجـتْ عـن سـيطرة الأوعيـة الدمويـة وملاحـم الضمـير..

زاهـرة التـي التقيتهـا مـرة أخـرى في مدينـة (أورفـا) بدافـع إنسـاني كـي أطمئـن عـلى حالتهـا في فـترة العـلاج؛ فهـي عندمـا هربـتْ مـن المشـفى العسـكري التابـع للنظـام ولجأت إلى داريـا؛ لم تبـقَ هنـاك طويـلاً؛ أكملـتْ رحلتهـا بمسـاعدة بعـض رجـال الثـورة إلى تركيـا لتلقّـي العـلاج..

زاهـرة هـي التـي حدثتنـي عـن قصـة الطبيـب (عبـد الحـي) وكيـف قـام بتهريبهـا؛ في ذلـك الوقـت حـاولَ الكثـير من نشـطاء الثـورة التواصـل معـه كـي يتحـدث عـما كان يحـدث داخـل أحـد مسـالخ أو مشـافي النظـام السـوري..

لم ينحـسر صـوتُ الرصـاص عـلى أجسـادنا؛ ولم يهـترئْ النعـاس..

وأدمتنـي تلـك الحكايـة ولم يتوقـف النزيـفُ؛ نزيـفُ الـدم والكلـمات.

ليسـتْ داريـا وحدهـا.. هنـا ألـفُ مدينـة للوجـع؛ وألـفُ قصـة في كل زاويةنزحـتْ مفرداتهـا ولم تنـزحْ بعيـداً عـن أنفـاس هـذا الوطـن..

لايتغـيرُ شيء سـوى ذخـيرة إضافيـة مـن الألم ومضـادات

للفــرح..

ليـس في داريـا فقـط.. بـل في كلّ الوطـن السـوري الـذي تـورَّدَ وطناً..

عـدتُ أتفقـدُ معـالم الطريـق اليهـا متخفيّـاً مثـل اللصـوص لصــوص يسرقــون الضــوء مــن كـفّ الطغــاة.

أمرُّ إليها بلا أسئلة ولا توقيت..

مـرَّ الوقـتُ سريعـاً والموكـب عـبرَ الحـدود عـلى هـذه الأرض التــي لا تتعــرَّى إلا مــن الوجــع..

ما أطولَ الطريق..!

ما أطولَ الغياب..!

هناك دبابةٌ معطوبة من زمن الثورة..

وهناك عشٌّ اختبأ بعيداً عن مرمى رصاصة..

عندمـا كنـتُ أصحـو مـن نوبـة الذكريات والـشرود الـلاإرادي أعيـد الكَـرَّةَ لكـن بشـكل إرادي كـي أتأكَّـد أن ذاكـرتي تعمـل وأن ذاكـرة الحـروب والثـورات لاتنتهـي بالتقـادم.

هنـا في غربتـي الفرنسـية لا أبحـث عـن مؤنسـة سـوى ذاكـرةٍ مضـتْ وذاكـرة سـتأتي..

فصل جديد

في صباح ذلكَ اليوم كان عليَّ أن أستيقظَ باكراً.. نومٌ مضطربٌ سبقَ ذلك اليوم ربما بسببِ التوتر والقلق الذي كان بداعي انتظار شيءٍ سيأتي..

فقد اقتربَ موعدُ عرض الفيلم..

العرضُ الأول سيكونُ في باريس..

وهناك عروضٌ أخرى في مدن أوروبية لم تتحدد على الأرجح إحداها برلين.

عملٌ جديدٌ ينتظرني كي أباشره هذا اليوم. عملٌ سأبدأه بعد ساعة بمقابلة مع مدير المحطة وهو جزء من روتين العمل..

نهضتُ من السرير بعد ذلك الشرود المزمن الذي يسبقُ عملية النهوض. رنّات

هاتفي المتعاقبة تخبرُني أيضاً بشيءٍ ما..

تناولتُ الهاتفَ لكنَّ الاتصالَ انقطع ..

على شاشته ظهرَ رقمٌ يبدو من خلاله أنَّ المتصل سوري..

من داخل سورية الوطن..

كان زيداً..

حاولتُ أن أعيدَ الكرة لكن دون جدوى..

تلهَّيتُ بقهوتي ريثما أحصلُ على اتصالٍ ماهي إلا لحظات حتى عاد الاتصالُ.

فتحتُ الخط على حديث سريع بيني وبينه..

ثم أكملناه على «الماسنجر» بسبب رداءة الاتصال العادي.

فتحتُ الكومبيوتر على عجلٍ وبدأت معه حواراً سريعاً وأخبرته أني على عجلة من أمرٍ ويمكن أن نتحدث مساء.. لكن في المقابل وجدتُ رسالة كان قد أرسلها لي ليلاً في وقت متأخر. رسالته الطويلة أنستني ماينتظرني وشرعتُ بقراءتها..

لمحتُ في منتصفها ما أتمناه..

(أخيراً بعد محاولات حثيثة مع بعض الناشطين في الأراضي التركية..

استطعنا أن نهتدي لعنوان الطبيب عبد الحي الموصلي.

الطبيب في أسطنبولٍ قد عثرنا على مكان إقامته ورقم هاتفه لكننا حالياً نتحفظ على هذه التفاصيل حرصاً عليه وعلى سرية المعلومات ريثما تقوم إحدى الجهات الثورية في تركية بالتواصل والتنسيق معه..

وبحسب معلومات أولية فإنه جاهز للشهادة أمام المحكمة الدولية في اجتماعها القادمٍ مع جميع الوثائق التي تثبت وقائع التعذيب للمعتقلينٍ سواء في المشفى الذي

كان يعمل به وتحت إشرافه أو في أماكن أخرى..

الخطوة القادمة ستكون ترتيب زيارته إلى أوروبا)

الطبيب الذي بحثتُ عنه طويلاً كي يدلي بشهادته في الفيلم الوثائقي تم العثور عليه. خرجتُ على عجل من شقتي إلى جهتي المفترضة وهو مقرُّ العمل، عملٌ يحاكي إلى حد ما بعض تطلعاتي..

خرجتُ من بيتي وتمعّنتُ للمرة الأولى بتفاصيل هذا الحي الباريسي الذي لايتوغل في قلب باريس بقدر ما يحاكي أطرافها..

محطة (المترو) لاتبعد كثيراً عن بيتي..

لكن ركوب «الميترو» هي عملية بيروقراطية شاقة نفسياً بالنسبة لي..

نصحني أحد الأصدقاء أن أدخل مدرسة تعليم قيادة السيارات، ثم أشتري سيارة بسعر بسيط، لأنَّ طبيعة عمليَّ تحتم عليَّ ذلك..

لم ترقْ لي الفكرة حالياً..

ربما بعد حين..

بردُ باريس وشتاؤها هجم مبكراً هذا العام..

عامان لي وأنا أفتح باب المقارنات..

فدمشق ليست كباريس..

وباريس ليست كدمشق..

معادلة مفادها:

الشرق ليس كالغرب..

حتى لو لمحتُ هنا بقايا ورود غرناطة وليلها الأندلسي يلفُّ دفء الغرب، فهم مدينون للشرق بهذا الدفء الذي بقي بعضه من إرث ذلك الزمن البعيد..

في باريس روتين لم أتخلص منه، أمارسه كلما دقّقتُ في تفاصيل هذه المدينة، أبحثُ عن نقاط وتفاصيل صغيرة مشتركة بينها وبين مدينتي العربية، أبدأ بطرح الأسئلة التي لاتنتهي، ما الذي أتى بي إلى هنا ؟

وكم من البحار عبرت لأكون عشيقاً لمدينة عدد عشاقها أكثر من قطرات نهر السين أو صخور قصورها الفاخرة التي تمجدُ الطبقية والأرستقراطية الفرنسية التي لم تنتهِ يوماً حتى مع ألف ثورة؟

وكأنّي تعثّرتُ بالإجابات في شباك إغراء باريس وغلوّ كبريائها العابس بوجه الغرباء مثلي، فهنا يبدو الزمن صلباً لايتزحزح تحت ضربات الغرباء، ولايفكر قطعاً كيف يكسر روتين اليوم التالي.

أما في دمشق تصحو وكأنَّ الكون استفاق كله ليتحفل بصحوك، تشربُ قهوتك وكأنَّ كلَّ شوارعها عبقتْ برائحتها، وكلّ أزقتها ضجّتْ بصوت الرشفة الأولى.

هنا لاوطن لي سوى الذكريات وأوراق كثيرة وكبيرة بحجم فراق وطن. وأنا هنا مثل ظل حمامة سلام لم تلمس كتفي

أبداً منفي مطاردٌ كالليل هاربٌ كالصبح إلى آخر النهار في هذه الطرقات التائهة..

في أزقة الأمل..

كأنّي أركضُ حافياً بلا أقدار ألفُّ جسدي بعتمة الليل الموغل في سواده..

حراسُ الليل في هذا المكان قد تركوا عتادهم وانسحبوا..

وبقي حراسُ الوطن على ضفافه الشاحبة مثل موسيقا اشتعال الأمنيات..

لحظةً بلحظةٍ مثل وكالات الأنباء ألمح خبر موتي وأمرُّ على كلمات في قصة وطنٍ لم تهدأ صرخاته..

مثل وطنٍ مرابط لم تنفذ ذخيرة الألم عنده..

تركها النازحون من الجراح..

أدقُّ باب قلبي على قلبي فتجيبني الثورة..

على العتبات تركنا مصابيح العتمة البعيدة وتركنا شاهد العودة..

سنعود حتماً.. ففي الباب نصف إغفاءة..

لم ينم ذاك الباب ولم تهدأ فيه رغبة الانتظار والصبر والرجوع..

استيقظتُ من غفوة الذاكرة التي احتلتني لبضع دقائق وهي المسافة بين عملي وبيتي. ثم خطر على بالي ألا أذهب

مباشرة إلى شقتي، فدفءُ الطقس أغراني أن أمشي قليلاً لعلي أكتشف مالم أكتشفه في وجدان المدينة، في تلك اللحظة وجدتُ رسالة من ماريا تطلب أن نلتقي، بما أنها قد أنهت الترجمة بشكل كامل..

لم أفكر بشيء آخر سوى بهذا اللقاء، والجميل أنها حددت المكان وهو ذات المقهى الذي التقينا فيه آخر مرة..

هي تحبُّ هذا المكان..

وأنا أحببته.. وربما أنتظر أن أقع في حب امرأة تأخذني من روتين الأزل..

فهل أحببتها حقاً؟

هل أكابرُ..؟

هل أهربُ من تورط القلب؟

ماريا حداد اسم يمرُّ في ذاكرتي فيحتل ماتبقى، وماتبقى لم يعد يصلح لحب جديد،

لكنه يصلح لمرأة مثلها..

فهل أنا صالحٌ لمزيد من النساء؟

أم أني معطوب مؤقتٌ؟ فأنا لم أعد قادراً على ذم رجولتي، لكن في الوقت ذاته لن أكيل لها المديح..

آخر قصةٍ أتعبتْ روحي ونفضتْ ذاك الندى الذي تعلَّقَ بالصبح..

كأنَّ كل هؤلاء النسوة يكتبن لي العبارة الروائية ذاتها..

«على ثورة نلتقي..»

وعلى قصص حب فاشلة! ألا يكفي أننا نستعطفُ البشرية كي لاتفشل ثورتنا..!

لانريد أن نفشلَ بالحب والثورة معاً..

فأول رصاصة أصابتني قصةُ حب بدأتْ لتنتهي..

كنا أنا وأنت والثورة ثالثة..

الكلماتُ هي ذاتها..

كلماتك أنتِ..

هناك زنزانة مرَّ عليها وسيمر آخرون و صوت رصاص وقصف لاينقطع على مدن العشق الأزلي..

خرجتُ من زنزانتي وجئتُ إلى روحك لاجئاً..

جئتُ إلى روحك بكل ماتبقى فيَّ من بقايا بركان..

في الزنزانة كنتُ أشعر بالبرد.. ليس البرد وحده.. بل قشعريرة الانتظار.

تقولين: رصاصةٌ لاتقتل جسداً.. لاتقتل وطناً..

وطنٌ زرعتُه رصاصةً في جسدي..

غبتُ سنين عنكِ.. لدرجة أني لم أعد أميّز نوع خطكِ عندما تكتبن لي رسالة مع أن كلَّ الخطوط تتشابه! ولم يبقَ

خـط مميـز..

غبتُ سنين وصار غيابي وطناً...

عاد النازحون ومزقوا الخيام وأنا لم أعدْ..

لم نلتقِ أنا وأنتِ في مدينة سيدي بوزيد، لكن لم نلتقِ..

المدينـة لم تحـترق. تركهـا لنـا محمـد بوعزيـزي شـاهدةً عـلى حريقه. كنـتُ أتحـدثُ مـع ذاتي عـن تلـك المـرأة التـي تركـتْ خلفهـا أسـئلة..

هـل هـي التـي تشـبهُ أم خلـدون التـي حدثتنـي عـن الثـورة بإسـهاب كـما لـو أنهـا أشرفـت عـلى تأريـخ تفاصيلهـا..

أمـشي برفقتهـا فتحدثنـي كـما لـو أنهـا لـن تتحـدث لأي صحفـي أو إنسـان. تقـول وقـد لمحتْ شـيئاً، فهـي لاتـتركُ شـيئاً يمـرُّ دون أن تحكـي قصتـه:

(هـذا حـذاء جنـدي انشـق عـن جيـش النظـام وانضـم إلى الجيش الحـر) ذلـك الجنـدي بقـي مختبئـاً في بيـت تلـك المـرأة بعـد أن تـم تحريـر مدينـة إدلـب مـن قبضـة النظـام..

قالـت أنهـا لم تسـمح لأحـد بالاقـتراب منـه بذريعـة أنـه كان يقاتـل مـع النظـام، في اليـوم التـالي فتشـوا البيـت فلـم يجـدوه، وهـو كان قـد اختفـى..

قلـتُ لهـا في أثنـاء لقائـي بهـا (فيـكِ شيءٌ مـن المسـتبدين، تريديـن أن تدخـلي كلَّ معركـة وأنـت لاتملكـين سـوى خيـار أن تنتـصري، لعلـه منطـق ثـورة عظيمـة أحرقهـا الأصدقـاء قبـل

الأعـداء) فتقولـين لي أن الثـورات العظيمـة لاتلتهمهـا حرائـقُ السياسـة بـل إن الثـورات العظيمـة تطفـئُ حرائـق السياسـة ومنطـق السياسـة وأكاذيبهـا..

الدم وحده هو الذي غيَّرَ المعادلة..

قوافـلُ الأجسـاد رسـمتْ لنـا الوجـعَ لكـن ذلـك لـو لم يحـدث لمـا شـعرنا أن الصمـت هـو فريضـة نؤديهـا منـذ عقـود وندفـع ثمنهـا باهضـاً دون جـدوى..

هـذا الثمـنُ الباهـضُ الـذي دفعنـاه لم يكـن ضريبـة الثـورة بـل نحنـا دفعنـا ضريبـة مصالـح الأمـم وتبـادل الأدوار التـي توزَّعـت بأقنعـةٍ مـن دم..

الثورةُ بريئةٌ من كلّ خطيئة..

نحـن الذيـن أخطأنـا في زمـن مـا لأننـا كان يجـب أن نثـورَ منـذ زمـنٍ بعيـد حتـى نوفـر هـذه الفاتـورة الباهضـة..

مثلـما كان لدينـا ألـفُ سـببٍ كـي نثـور فلدينـا ألـفُ سـبب كـي نسـتمر..

كلامها ذكرني بحادثة قرأتُها عن أحداث الثورة الفرنسية.

يسـجل التاريـخ أن أحـد أسـباب الثـورة الفرنسـية كان ضريبـة تدعـى (ضريبـة الملح)فرضهـا لويـس السـادس عـشر عـلى الفرنسـيين. ضريبـة الملـح علامـة فارقـة في الثـورة الفرنسـية ربـما اسـم يثـير الاسـتغراب أو التهكـم لكنـه واقـع..

نحـنٍ لم ندفـع ضريبـة الملـح فقـط بـل دفعنـا دمنـا المالـح أيضـاً..

أنا الآن وصلتُ..

وصلتُ حيث كان الاتفاق..

لم يكن اتفاقاً بل كان اقتراحاً من طرفكِ..

اقــتراحٌ وافقــتُ عليــه دون شروط لأني تعلقــتُ بتفاصيــل المــكان، التعلّــق بالأمكنــة التــي تحاكــي شــيئاً في روحــي هــي عــادة تزعجنــي وأنــا أعتبرهــا عــادة أقــرب للمــرض عنــدي وينبغــي علــيَّ علاجهــا، عــلاجٌ حاولــتُ أن أجــده لكــن لم أجده..

فأنــا هكــذا ســأظل دومــاً أتعلّــق بــكل مــكان يشــبهني ويشــبهكِ ويشــبه الآخريــن في وطنــي، ويشــبه وطنــي الموجــوع حتــى أســتفيق ويســتفيق عــلى فــرح..

وصلتُ المكان..

أنتِ تأخرتِ قليلاً..

انتظرتــكِ لكــن عــلى طاولــة أخــرى فمكاننــا القديــم شــغله آخــرون مثلنــا وربــما لا..

هــلٍ مــن الــضروري أن يكــون عاشــقين؟ وهــل أنــا وأنــت أيضــاً مــن الــضرورة أن نكــون عاشــقين؟

جئتِ.. وهـذه المرة كنتِ ربيعـاً.. ترتديـن فسـتاناً أزرق اللون سـماوياً عـلى نقيـض ماتبديـن عليـه مـن جديـة، ففـي المـرات التي التقيتـكِ فيهـا كنـتِ ترتديـن الأسـود والرمـادي الفاتح..

قلتِ معتذرة عن التأخير:

-مرحبا.. أعتذر كالعادة تأخرتُ عليك.َ.

-أهلا بكِ..لابأس كلها ست دقائق، لكن من الجميل أن يكون فيك شيء عربي فادح حتى لو كان شيئاً فوضوياً.

-في المرة الماضية قلتَ أنكَ تميّزُ النساء العاديات من سواهن، أنت اليوم تراني فوضويةً.

قلتِ ذلك على سبيل المزاح فرددتُ عليكِ:

-الفوضوية أحياناً تعطي الصورة الحقيقية للأشخاص، هي في أحيان كثيرة قد تحمل دلالات سلبية، مثلاً تدخلين بيتاً فتجدينه غير مرتب مع إن صاحبه قد علم بزيارتك، ربما لأنَّ صاحبة يريد أنً يتحرر من فكرة ترتيب الأشياء ورتابتها، ربما يراها قيداً أو مثل شخص يغسل شعره لكنه يخرج دون أن يمشطه فهو يطلق عنان فطرته ويكره التقييد..

قلتِ:

-لكني لاأراك تنتمي إلى هذه الأمثلة التي ضربتها.

-هذا لأني أحبُّ مراعاة الذوق والمجتمع في ترتيب الأشياء، لأنَّ الفطرة هي ألا نترتبها والذوق ُأن نرتبها...

ثم تابعتُ على سبيل المزاح:

-لكنك طبعاً لو دخلتِ شقتي ستجدين كل شيء مرتب ولامكانَ للفوضى

سألتِ بفضولٍ ممزوج بمزاحٍ:

-وهـل تدعـوني إلى بيتـك بطريقـة غـير مبـاشرة كـي أرى مـدى حـس الترتيـب لديـك؟أنـا وجدتـه في الفيلـم وفي مسـودة الرواية..أنـتَ أرسـلت لي أجـزاء منهـا لقراءتهـا وقـد قرأتهـا

-بالنسـبة للدعـوة فأنـا لـن أفعلهـا؛ لأنَّ بيتـي صغـير لا يتسـع لـكل هـذا الجـمال، وبالنسـبة للروايـة أنـا سـعيد أنـك قـد أنهيـت قـراءة تلـك الصفحـات منهـا.

سـكتّ وكأنـك قـد تفهمتـي شرقيتـي، أعجبنـي أكثـر أنـك وجـدت في تفسـيري غـير المبـاشر إيضـاح لـشيء لا أريـده أن يُفهـم بسـوء..

لكني قد تأكدتُ أنكِ فهمت النية دونما حاجة للشرح.

كأنـكِ فتحـتِ موضوعـاً آخـرَ مختلفـاً، ويبـدو أنـكِ طلبـتِ لقائـي لأجلـه:

-اليـوم بينـما كنـتُ في مكتبـي طلـب لقائـي شـخصٌ مـا، وعندمـا سـمحت لـه بالدخـول جلـس وكان الحديـث عنـكَ..

-عني؟!

-نعم..!

-وماالغريب في الموضوع؟!

قلتِ:

-الشخص كان يسأل عنكَ.. طريقته بالأسئلة كانت تبدو وكأنها لجمع معلومات.

-وهل أعطيته معلومات عني؟

-لم أعطه شيئاً وأنكرتُ أني أعرفكَ أو أني التقيتُ بكَ لأني أدركتُ من طريقة الأسئلة أنه يبحث عن شيء آخر، ورغم قناعته بأني أعرفكَ وأني التقيتُ بكَ انصرف وتظاهر بتجاهل الموضوع. هناك أحد ما زوده بهذه المعلومات عن حسن نية أو بسوء نية بأنني أعرفكَ..

-ولكن ماذا يريد، ولماذا افترضتِ سوء النية مثلاً؟!

-هل نسيتَ أنك ناشط سوري هارب من وطنك، ولا أستبعد أن هناك جهة ما لديها علمٌ بأنك بصدد عرض فيلم يفضح بعض ممارسات النظام وتنوي عرضه في أوروبا. ولا تنسى أن هناك خرق كبير للأسف في جسد الثورة.

-القمع يلاحقنا حتى في فرنسا بلد الحريات..!

- لا تنسى أن هناك ناشطون قد تعرَّضوا للاغتيال في قلب أوروبا وتركيا، ولأني عاملة في مجال حقوق الإنسان هناك عائلة طلبت مني قبل فترة أن أتابع قضية ابنهم في وسائل الإعلام. ناشط مصري تعرض للقتل في أسطنبول، عائلته تقيم هنا في فرنسا.. كما أن هناك عمليات حدثتْ هنا في فرنسا نفسها. وأعتقد أنكَ تعرف بعضهم بشكل غير شخصي. لا أريد أن أبث الخوف والريبة فيكَ لكن الحذر واجب.

-وهـل يعقـل أن يكـون هـذا الشـخص يتبـع لجهـة تريـد النيـل مني مثـلاً؟ هنـاك مئـات بـل آلاف الأشـخاص الذيـن يقومـون بـما أقـوم بـه.

-صحيح كلامك لكن ما أمكنَ الوصول إليه لم لا..!

-نحـن سـنفترض حسـن النيـة، لكـن ألم تعـرفي اسـمه وعملـه وشـكله وماهـي صفتـه بالضبـط ؟

-لم أظهـر اهتمامـاً كثـيراً حتـى لا يشـك بـأني أعرفـكَ.. لكنّـي سـألته عـن اسـمه، لكـن أعتقـد أنـه اسـم مسـتعار، لم يقـل اسـمه الحقيقـي.

- ألم تسأليه لماذا هو -مثلاً- يريد هذه المعلومات عني؟

-بـكل تأكيـد سـألته، وقـال بأنـه يريـد أن يتعامـل معـك في مجـال انتـاج الأفـلام. في البدايـة أخـذتُ الموضـوع بحسـن النيـة لكـن عندمـا عرضـت عليـه أن أحصـل عـلى رقـم هاتفـك وتتواصـل معـه مبـاشرة رفـض الفكـرة وقـال هـو يريـد حاليـاً بعـض المعلومـات فقـط.

-هل تكلم معكِ بالعربية؟

-بكل تأكيد، ولهجته سورية، أعتقد أنها لهجة سورية.

لحظةُ صمتٍ ثم تابعتِ:

-ربـما يكـون الأمـر كـما قـال وربـما ليـس كذلـك، لاتكـن قلقـاً بخصـوص هـذا الموضـوع، نحـن في دولـة لهـا قانـون لسـنا في غابـة، هـذا مـن جهـة ومـن جهـة ثانيـة لـو افترضنـا حسـن

نيـة ذلـك الشـخص فهـو لسـبب واحـد وهـو أنـه جـاء إليَّ أنـا وسـألني عنـكَ وكان بإمكانـه أن يسـتعلم بطـرق ملتويـة غـير مبـاشرة.

-أتمنـى أن يكـون الأمـر خـيراً أتمنـى أن تكشـف الأيـام القادمة شـيئاً ومـع ذلـك لـن أفكـر كثـيراً بهـذا الموضـوع سـأركز حاليـاً عـلى عـرض الفيلـم..

ثم تابعتُ مازحاً:

-هـل تقبلـين دعـوتي لحضـور فيلـم حتـى لا ننشـغل بـشيء سـواه؟!

ضحكتِ ثم قلتِ:

-انتقـال جميـل مـن التراجيديـا إلى الكوميديا..طبعـاً أقبـل وسـأقوم بدعـوة بعـض الأصدقـاء.

الموعد

قدرٌ جديد لي الآن..

الآنَ أبدأ ببعضِ الفرح..

أسبوع للسينما العربية في باريس. في معهد العالم العربي. سيكون فيلم (وطن في دقائق)..

في اليوم الأول وفي اليوم الأخير..

إلى هناك وصلتُ حيث مقر عرض الفيلم..

وصور إعلان العرض.. هناك أيضاً..

وحيث أنتِ هناك..

عرضُ الفيلم سبقه لقاء صحفي لي مع أحد الصحف الفرنسية التي تحدثتْ عن لاجئ سوري أراد كتابة تاريخ الثورة من زاوية الفرح فكان الفرح هو الحلقة المفقودة في فيلم يتحدث عن المأساة السورية من عيون بكت وترقّبتْ حلولاً لأزمتها..

لم يقولوا ثورة بل قالوا أزمة وهذا هو المصطلح الذي غدا رائجاً لتسمية مايجري في سورية..

لم أتوقف كثيراً عند كلمة أزمة..

توقفتُ عند صورتي التي كانت في الصفحة الأولى نسيت أن أرتدي اللون الأبيض مثلاً أو الأسود فقد ارتديت لوناً رمادياً..

أنا لا أحب الأشياء الرمادية.. لا أحب الحياد..

أنا أحب المواقف..

أحب أن أكون أو لاأكون..

أصدقاءٌ عرب تعرّفتُ عليهم قبل فترة وآخرون منذ زمن هنا في باريس اتصلوا بي تعقيباً على مقابلتي التي قد أحدثتْ ضجة كما يقولون في الرأي العام قبل ساعات من عرض الفيلم الذي كان له النصيبُ الأكبر من الحديث.

سأجمعُ كلّ أبطالي في قبضة يدي لأُري العالم أو جزءاً من العالم حكاياتٍ لم يسمعوا بها من قبل..

شعرتُ أن أبطالي هربوا في لحظة العرض واختبأوا خلف واجهات المحلات الباريسية خشية من انقضاض القدر..

شعرتُ بهم كما لم أشعر بهم أبداً..

رأيتُ أم خالد تعاتبني وزاهرة التي غلبتْ سجانها وأوس ذلك الجندي المرابط على الحدود ينتظر تصافح القادة كي يعود إلى دراسة الهندسة..

رأيتُ أطفالَ مجزرة الكيماوي طفلاً طفلاً..

مرَّ وطني شجرةً شجرةً كأنّي كنتُ من دونه لساعات وصرتُ الآن فيه بعد أنْ جمعتْ ريح اللجوء شتاتي وأعادتْني إلى مجراه..

رأيتُ الجنود يعودون وقد صافحوني بأيديهم المغبرة عانقوني بقوة ثم مضوا قالوا لي انتهتِ الحربُ وعدنا فقلت لهم قد تنتهي الحرب لكن الثورة لم تنتهِ.

هاتف صباحي أيقظ ماكان نصف حلم لم أكن أحلم بأبطال فيلمي بقدر ما أحلم بفتاة بصراحة أنا لا أحبها بل استلطفتُ جانبها الأنثوي اللاتقليدي

فأنا لستُ ذلك الرجل التقليدي الذي عليه أن يتعامل مع الأنثى على أنها صفقة أنثوية جاءت إليه أو مرت في حياته دون خسائر وعليه ان يأخذ الموضوع من باب المكاسب الرجولية..

نمتُ حتى ساعة متأخرة فالساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحاً لكن اليوم هو عطلة رسمية في فرنسا..

هاتفكِ الصباحي الجميلُ مثل همسة دمشق لصبحها القادم العابق مع الشاي والقهوة والبابونج وأشياء دمشقية بسيطة جداً..

أشياء دمشقية بسيطة اشتقتُ إليها مثل رائحة قهوتها التي تتعلّقُ بقماش الستائر للحظات قبل أن تختفي..

مثل بائع الخضرة الذي تحبُّ صوته المزعج جداً رغم ذلك الإزعاج..

مثل تلك الشوارع التي لا تكون أحياناً نظيفة بما فيه الكفاية لكنك تحبُّ كل يوم أن تعد حجارة أرصفتها ..

الآن يجب أن ألملم فوضى الليل الطويل الذي قضيته في كتابة بعض المقالات، إحداها لجريدتنا العاملة شمال سورية والتي استمر عملي بها حتى بعد قدومي إلى فرنسا، وقد اكتفيتُ بتزويدها بمقالات الرأي..

الصباح..

الصباح سخي بوعده..

رحلة مع الذاكرة ورحلة مع المدى القريب..

كلامكِ عن ذلك الرجل شكّلَ عندي هاجساً هادئاً حتى اللحظة، وداعب فضولي..

هناك التقيتكِ في مكتبكِ..

المبنى كبير جداً تكاد تضيع فيه..

كأنني أراه للمرة الأولى.. مع أني قد زرته مراتٍ ومرات..

تصميمه فريدٌ..

قريبٌ من السين وقريب من أحدب نوتردام وزمانه وقصص شكسبير.. لعلي مثل كل كاتب أبحث عن حكايتي أنا لأكتبها، لكن أريد أن أروي قصتي بأسلوب البؤساء أو بأسلوب الارستقراطيين الذين تصارعوا زمناً ليس ببعيد هنا في فرنسا ثم لتنتصر الثورة لصالح بؤسائها..

ثم صرتُ قريباً منكِ، بعيداً عن قصص البؤساء.

أنا الآن في ضيافة عينيكِ..

ومعي دمي..

وللثورة حناجر..

ومعنا ألفُ حنجرة «للقاشوش» تغرّدُ في عتمة الطغاة...

وذراع الشوق الطويلة للوطن لن تنكسر..

قلتِ لي لمَ تحدثني بإسهاب هذه المرة عن أم خالد المفتون بعظمتها كأم سورية جبارًة.. فهل نسيتها؟ أعرف أنكَ لاتنسى امرأة أنجبتكَ من روحها كما تقول..

هي ليست أمك.. لكنها تشبهها إلى حد الوطن.. كنتَ قد التقيتها مرة واحدة مثل مئات الثوار الذين عبروا من كفيها..أكلوا خبزها وشربوا شايها..

منهم جنود منشقون وصحفيون ومقاتلون تابعون للمعارضة دخلوا بيت هذه المرأة..

وتحرَّكتِ السياسة.. تحركتْ بضع درجات لكن بقي ضمير العالم ففي جغرافية ضيقة محصورة بين الدم والتواطؤ..

في أحد الغرف أسلحة غنمها الثوار من ثكنات جيش النظام قبل فترة عندما هاجموا أحد مقراته العسكرية.

تقولُ المرأة إنها مقر عسكري فيه مدفعية لايتوقف قصفها عن هذه المناطق المجاورة..

قلتُ لها:

-قالـوا لي إنـكِ صنعـتِ قنبلـة يدويـةً وحـضَّرتِ بعـض المتفجـرات مـع الثـوارْ واكتشـفتِ طريقـة غريبـة لنـزع الألغـام واكتشـاف مكانهـا..

قالـوا لي أنـكِ تملكـين أشـد الهوايـات غرابـة وهـي أنـك تجمعـين كل شـظايا القنابـل في صنـدوق خشـبي قديـم..

فلـماذا تخفـين كل تلـك الشـظايا؟ فالبـشر عـادة مفطـورون عـلى قتـل ذكريـات الحـروب.

قلتِ ضاحكة:

-بالنسـبة لي فـإنَّ ذاكـرة الحـروب هـي معركـة مـع قـوة الذاكـرة فقـط.. وبالنسـبة لمـا قالـوه عنـي هـو قصـص مـن ألـف ليلـة وليلـة التـي لم تـأتِ بعـد.. الشـظايا لم تعـد لنـا تاريخـاً فـكلُّ الأشـياء الجميلـة تشـظتْ مـن حولنـا..

أنا كنتُ أحاول أن أجمعها فقط..

-لأجـل كلّ ذلـك نزفـتِ حتـى المـوت بعـد إصابتـكِ بشـظية قبـل خروجـكِ مـن حمـص.

-لم تكـنْ شـظية بـل كانـت رصاصـة قنـاصٍ عـرفَ كيـف يصطـاد امـرأة مثـلي..

قالتْ فسكتت بعدها لغات..

ومنـذ ذاك الحـين ومنـذ الآن. قبـل أم خالـد وبعدهـاً مـن دونهـا ومعهـا وقبـل أن ننفـض معطـف الشـتاء.. قبـل آذار وبعـده..

بـدأت الحكايـة..

وبدأتْ قصتي..

والتقينا..

كنـتُ أركـضُ في ذلـك الليل..أركـض إليـكِ وخلفـي طريـق مـن دم..لم أمـتْ مـع أني عـبرتُ كل الحواجـز..

لم يتغـير فينـا شيْ....لكـنَّ أمكنـة اللقـاء التـي جمعتنـا كلهـا صـارت ركامـاً..

كلُّهـا تعرضـتْ للقصـف! وصـارت خارطـة الوطـن عـلى أرواحنـا ياسـميناًلكن المسـافة بـين القلـب والوطـن هـي ذاتهـا لم تتغـير..

عبرتُ إليك ولأجلكِ الاسلاك الشائكة كلها..

اخـترتُ اللجـوء وطنـاً بعدمـا جمعـتُ كل الأبطـال هنـا لعـل ثـورة أخـرى تخلـص الثـورة..

صمتكِ وطنٌ..لكن كلامك أوطانٌ..

سألتكِ:

-كيف وصلتِ اليَّ؟

-سؤال لا أتوقعه الآن. لكنكَ تركتَني وطناً..وغبت زمناً..

ثـم قلـتِ عبارتـكِ الروائيـة وعـبرتِ العبـور الروائـي الأخـير مـن هنـا:

على ثورة نلتقي...

ولم يبتعد الوطن الأسير المضرب عن الذل حتى إشعار النصر..

كلمة..

بدأتِ الحكايةُ وانقضتْ ساعاتها..

ومرَّ الزمن المؤجَّلُ بسرعة..

الصمتُ عارٍ من ثيابه القديمة حتى تاريخ آخر..

كأني غبتُ وطناً وعدت زمناً إلى هذا المكان الذي تهشَّمتْ معالمه..

لاتتفحص إضبارتي ..لاحاجة إلى ذلك فأنا مجرد لاجئ مسالم يبحث عن وطن.

هي كانت منسقة شؤون السينما في معهد العالم العربي في باريس من خلالها مرَّ الفيلم كي يتم عرضه ثم تطوعتْ لترجمته إلى الفرنسية.اسمها ماريا حداد سورية الأصل لاتحمل جمالا خارقاً لكنها مختلفة.

كنتُ أروي قصة لقائي بها لزيد الذي اعتدتُ أن أحدثه يومياً..ربما حديثي له يشبه حديث من يكتبُ مذكراته..

مذكراتٌ على شكلِ رسائل لصديق تحملُ اعترافات البطل والبطل شخص يترصَده أشخاصٌ آخرون لينالوا منه..

مذكـراتٌ تشـتهي اعـتراف عاشـق لكنـه حتـى السـاعة لم يعـترف..

أنـا في ذلـك الليـل كنـتُ أكتـب مقالتـي الأسـبوعية للجريـدة، كـما كنـتُ أحـضّر تقريـراً خاصـاً بعمـلي الجديـد.. التقريـر عـن اللجـوء ومصاعبـه، هـو موضـوع كلاسـيكي لكنـي لم أجعلـه كذلـك، كنـت أتطـرق لحمايـة أكثـرَ لبعـض ناشـطي الثـورة اللاجئـين في أوروبـا عمومـاً وفرنسـا خصوصـاً خاصـة بعـد عـدة اغتيـالات لناشـطين في مـدن أوروبيـة وتركيـة عديـدة.

وبينما أنا غارق في أفكار الكتابة تتصلين بي أنتِ..

-آسفة لأنَّ الوقت متأخر

-لا أبداً أنا بالفعل لم أنم بعد..

-هـل اسـتجدَّ شيءٌ بخصـوص الطبيـب؟ نحـن يمكـن أن نسـاعدك بهـذا الأمـر ونرتـب زيارتـه إلى أوروبـا.

-أشـكركِ.. حتـى اللحظـة تقـوم جهـة تابعـة لائتـلاف الثـورة بهـذه المهمـة وعـما قريـب ستتوضح النتائـج.

-ونحن جاهزون أيضاً للمساعدة.

-أنـا ممتـن لـكِ بـكل شيء، نحـن الآن ننتظـر عـرض الفيلـم بعـد غـد.

-أعتقد أنه سيحدث ضجيجاً هنا..

- شـكراً لثقتـكِ.. لكـن لـديَّ سـؤال مضطـر أن أسـأله ويبـدو أني سـبّبتُ لـك بعـض المتاعـب..

-لا إطلاقاً تفضلْ..!

-بخصوص ذلك الشخص، هل عاد إليكم للسؤال عني؟

-لا لم يحدث ذلك، هل ثمة شي؟ يبدو أني قد أقلقتكَ دون أن أقصد.

- لم يحدث معي شيء، هو مجرد سؤال، قد يكون شخصاً يعرفني ويريد التواصل معي حقاً..

-أتمنى ذلك..

-وأنا أتمنى..أتمنى لك صباحاً موفقاً

-شكراً..

أنهينا الحديث بسرعة..

حديثٌ سريعٌ ومقتضب معك كأنكِ تحرّضين فيَّ الذاكرة ثم تختفين..

لماذا تأتين فجأة ثم تنصرفين فجأة كالريح؟

كالريح.. لكن خرابكِ جميل..

لا أحبكِ ولا أريد.. فلستُ الباحث عن الحب هنا..

لكني أحبكِ وأريد..وأنا الباحث عن الحب حقاً..

حقاً.. فلمَ أكابر حتى اللحظة وأصارع الريح..

هل أفتحُ للريح قلبي وأنحني لها..؟هل أتوقع خرابها...؟

لكنـي أتوقَّـع أني سـأحبك إلا إذا كابـرتُ مثـل ثـورة؛ وأتوقـع أني لـن أحبـك لأني أريـد أن أبقـى طبيعيـاً دون خسـائر تجلبهـا لي النسـاء..

فـلا أحـد يتوقـع مطـراً مـن سـماء نفضـتْ غيمهـا الـذي انـصرفَ إلى سـماء أخـرى.

أشـعرُ برماديتـك في عشـقي.. أشـعر أنـكِ عاشـقة ونصـف عاشـقة ولسـت عاشـقة؛ أشـعر بـكل هـذا؛ فـأيُّ واحـدة أنـتِ؟

انقطـع الحديـث فجـأة مـع الـذات وتضـاءل الزمـن رويـداً رويـداً كأنـكِ تقولـين لي: عـدْ إلى الكتابة..فأقـول عـلى الـورق (نفـذتْ ذخيرتي..)عـدتُ لكنـي كنـتُ لا أسـمع الا صوتـاً ينادينـي مـن خلـف ذلـك الغيـاب البعيـد.

(ذخيرة الأحرار لاتنفذ)

أشـعرُ أنهـا الوطـن الصامـد هنـاك؛ بقيـتْ تـذود عنـه ونحـن الهاربـون مـن عتمتـه.

تحدثنـي عـن الثـورة بفلسـفة أكثـر عمقـاً مـن تلـك التـي يتحـدث بهـا السياسـيون أو يتشـدق بهـا المتشـدقون.. تفهـمُ لعبـة السياسـة جيـداً كأنهـا دبلوماسـية نـادرة عاشـت في أروقتها الضيقـة المظلمـة..

أم خالـد أنثـى مـن أديـم الأرض تشـبه حـواف الهضـاب والتضاريـس الثابتـة التي لاتتأثـر بالمنـاخ أو الهـزات الأرضيـة..

لكـن مـاذا نحـن أمـام امـرأة ضحـتْ بأولادهـا وزوجهـا وهُجّـرتْ مـن بيتهـا؟

أنا الآن بحاجة إلى الكتابة أكثر من أي وقت مضى..

عدتُ أكتبها من جديد..

أكتبُ حزنها لكن ليس بتطرفِ الحزن..

آخرُ كلمةٍ قالتها لي عندما حاورتها عبارة لن أنساها.

قالتْ: الثورة يجب أن تستمر..

قالت لي أيضاً: (أرفعُ أطراف ثوبي قليلاً حتى لا يلامس هذا الزمن الموحل) ولأنَّ ذاكرة الحرب لاتصدأ كنتِ معي حتى في لجوئي..

أبحثُ عن آخر ليالي الوطن يوم قررت أن أخرجَ من هناك طائعاً هارباً من قبضة مستبد أعمى لايرى سوى وجهه في وجوهنا..

رائحة الموت..أنقاض ذاكرة الرصاص بصمات القنابل وجدرانٌ ثكلى...

ولأنّ ذاكرة الحرب لاتصدأ لم تنتهِ تلك الحكاية السورية الشهيرة التي روتها لنا نسوة الحارات الدافئة..

العصفورُ نام بأمان تلك الليلة فالرصاصُ انتهى..

انتهى ولم نسمع صوته تلك الليلة حتى حين رصاصة..

ربما أموت بها أو أحيا..

الليلة التي سبقتْ عرض الفيلم كانت أطول ليلة...

شعرتُ بها كثيراً أبحرت في الذاكرة بعيداً وقريباً..

أطلقتُ العنان للأفكار..

أجريتُ تعديلات للرواية قبل تسليمها لدار النشر..

نقلتُ الملفات التي في جهاز الكومبيوتر على قرص احتياطي..وكذلك الرواية والفيلم رغم وجوده لدى دار السينما..

لم أفهم نفسي كثيراً ولماذا قمتُ بهذا السلوك الذي بدا وكأنه لاشعوري.هل ثمة خطر هنا؟

هل الحرية ستعتقلني مرة أخرى في المنفى الإختياري؟

فما الذي يحدث بالضبط؟

هل قصة ذلك الرجل الذي طلب معلومات عني من ماريا كان شخصاً عادياً؟ ورغم ذلك دفعني لأن أحترز..

هل ثمة بالفعل من يتبع خطواتي في هذا المكان؟

أسئلة كثيرة شغلتني كما شغلتني الذاكرة لكن قلقي وترقبي لعرض فيلمي الوثائقي عن الثورة السورية كان شاغلي الأكبر..

انتظرتُ الصبح كثيراً كأني لم أنتظر أبداً..

«فإن الموت يعشق فجأة مثلي...وإن الموت مثلي لايحب الانتظار»

جميل أنت يامحمود درويش..

وصباح فرنسي آخر..

استيقظتُ مثقلاً جداً لأنَّ جسدي لم يأخذ قسطاً كافياً من النوم..

سهرٌ أثقلني لكنه لم يكن شاغراً هناك مافعلتُه طوال تلك الليلة..

ومنها أنتِ.. نعم أنتِ.. فرغم انشغالي بالكتابة فبعد اتصالك انشغلت بكِ أكثر لكني حريصٌ على أن أترك مسافاتِ الاقتراب فارغةً لعل ريحاً تمرُّ صدفة فتجلبَ لي طرف شالكِ...

انشغلتُ بصوتكِ..برسمكِ الذي حاولتُ أن ألملمه حتى أمعنُ فيه..

أهربُ من قصة سبقتْ وأكابر على قلبي من قصة قد تأتي..

فهل تأتينَ؟!

هل تأتين مرةً أخرى وتنفضين غبار الغياب؟

هل أرى فيكِ صدفة القدر بجوار عينيكِ؟ أم لنهر السين الباريسي قصصه التي سبقتني إليكِ؟

شرودي بكِ ترافق مع متعة قهوتي..

قهوة سورية حصلت عليها بصعوبة من محل سوري في أطراف باريس.

وفي باريس أنتِ أيضاً وعطر الشوق لوطن لم يقترب مني حتى الساعة.

فتحتُ النافذة، رتبتُ بسرعة بعضَ فوضى الليل..

ارتديتُ ملابسي..

نظرتُ إلى الساعة..

الساعةُ تشير إلى السابعة والنصف..

وبعد ساعات سيُعرَضُ الفيلم..

في السابعة لكنْ مساءً..

خرجتُ من شقتي ونشاطٌ غير معتاد يلف روحي كأني أنتظرُ ميلادي الجديد.

ترى هل يستحق هذا الفيلم كل هذه الانشغالات التي أرهقتني..؟

أم لأنه نتاج سنين الثورة وحصاد تلك الأيام التي أخذ التحضير له حيزاً من عمري الذي هو عمر الثورة..؟

شعرتُ أن الشارع الباريسي البسيط هو الذي يتبعُني فلا أتعب في خطواتي.

بردٌ مفاجئ تسرب إلى جسدي..

لكن يبدو ليس فقط ذلك الشارع ما يتبعُ خطواتي بل أشجاره وأوراق خريفه..

هناك بالفعل من يتبعني..شخص ما..

ربما صدفة، ربما له الهدف والوجهة ذاتها، لكنه بقي خلفي..

بقي يسيرُ على مسار خطواتي حتى محطة «الميترو» التي لاتبعد عن شقتي إلا حوالي سبعمئة متر تقريباً..

حتى عندما وقفتُ انتظر.. كان ينتظر..

لكنه لاينتظر ما أنتظره..

كأنّي أنتظر اللاشيء وكأنه ينتظرني..

سأقنعُ نفسي أني اللاشيء الذي ينتظرُهُ، سأمتلك حسن النية تجاه الشخص رغم أنه لم يكن يتبعني بقدميه فقط بل بعينيه الحادتين اللتين كانتا يسرقان النظر إليَّ خلسة..

وأنا كنتُ أدعي أن عيني مولعة بالتعلق هناك.. هناك بغيم باريس الذي لم يمطر بعد رغم خريفه الذي لازال..

هل أسأله ماذا يريد؟

وهل يخطئ الغيم أحياناً أم نحن الذين نتأمل منه مطراً..؟

من هذا؟

هل يبحثُ عن الشيء فيَّ؟

هل أسألُه إن كان يبحثُ عمَّنْ يشبهني وظنَّ أنه أنا؟

ولمَ أسأله؟

أليسَ من المنطق لو أراد شيئاً أن يبادر هو بالسؤال..

الغيم تبدد فجأة ولم تمطر السماء رغم رمادية الغيم..

رماديٌّ هو الغيم في يوم لا أريده أن يكون رمادياً..

الرجل اختفى تزامناً مع غيم تبخر..

وأنا بقيتُ على يقيني بأني أنا الذي أبحث عن الأشياء في عتمتها..

أنازل الريح أحياناً لأنَّ محاربة طواحين الهواء هو فعل كلاسيكي قديم سبقني إليه آخرون..

آخرون ليسوا الذين سيمرون من هنا كثورة بل كتاريخ..

السابعة مساء تأتي أخيراً..

تأخرتْ هذه الساعة عمراً..

تأخرتْ ثلاث.. ست سنين.. وهو عمر الثورة حتى اللحظة..

الخطواتُ الأخيرة إلى الشمس بدأتْ وكأنّي استعرتُ مجازية الوقت كي أعبر بسرعةٍ فالانتظار وحلٌ لاتخرج منه ببساطة معتادة ولاتقتلعه من ثيابك بسهولة.

الزمن كلُّه مرَّ الآن والأحلام تفاقمتْ..

الأبطالُ يمرّون أمامي مثلَ أسرابِ غيمٍ سيمطراً والساعات ثقيلة أيضاً..

هاهـي ذي صحيفـة فرنسـية أخـرى تتحـدث عـن فيلـم للاجئ سـوري يحكـي فيـه معانـاة الثـورة.. وصحيفـة أخـرى تسـتعدّ لإجـراء حـوار معـي بعـد العـرض مبـاشرة..

اتصلتُ بكِ.. اتصلتُ مراتٍ ومرات..

لم تجيبي على غير عادة..

امـرأة مثلـك أنـت تحاكـي الوطـنَ في روحـي، تمنـح قلمـي دفئـاً في غربـة تقتلـع منـي ورود العمـر الـذي تبقـى..

امـرأة تسـأل قلبـك لمـاذا لم يحبهـا بعـد، فهـي بـلا شـك تسـتحق الحـب، هـل تأخـرك في عشـق امـرأة تسـتحق الحـب هـو اعـتراف عفـوي أنـكَ سـتحبها حقـاً أم أنـك سـتهربُ مـن الحـبّ كـما خططـتَ في روايتـكَ التـي قـد أنهيـتَ كتابتهـا؟

هل جاءت هذه المرأة متأخرة؟

هل افتراضُ عشقها هو شيءٌ متأخرٌ؟

أم كل الأشـياء المتأخـرة تـأتي بطعـم الانتصـار أحيانـاً، وتـأتي أكثـر ضجيجـاً؟

جاءت الساعة السابعة زاحفةً بطيئةً مثل قدرٍ متردد..

لكنها جاءت..

وجـاء الحضـورُ، ومنهـم أصدقـاء عـرب وسـوريون عرفتهـم هنـا في غربتـي الباريسـية، وناشـطون سـويون مقيمـون في باريـس وبعـض مـن مناصري الثـورة، وجمهـور مـن مثقفـين عـرب وأجانـب أيضـاً، وصحفيـون وناقـدٌ عـربي عرفتنـي بـه ماريـا

حـداد قبـل عـدة أيـام...

الجمهـور لم يكـن غفـيراً لـذاك الحـد لكـن العـدد لم يكـن قليـلاً في الوقت نفســه.

قبـل العـرض طلبـوا مني إلقـاء كلمـة ومقدمـة أتحـدث بهـا عـن نفـسي وتجربتـي وبعـض مـا مـرَّ بي قبـل دخـولي تركيـا ففرنسـا.. يعنـي اللحظـات الأخـيرة لي قبـل وصـولي إلى فرنسـا.

مـدة الكلمـة عـشر دقائـق فقـط.. وأنـا كنـتُ قـد حـضَّرْتُ كلامـاً كـي أرتجلـه ولم أكتـب كالعـادة شـيئاً عـلى الـورق..

وبينـما هممـتُ بالصعـود لأقـول ماسـأقوله وصلـتْ ماريـا جـاءت متأخـرة قليـلاً رغـم أنهـا موظفـة في هـذا المـكان..

صعـدتُ ولم يسـبق لي أن صعـدتُ منـبراً فأنـا كنـتُ كاتبـاً صحفيـاً لسـتُ بشـاعرٍ كـي ألقـي شـعراً ولسـت محـاضراً أو سياسـياً كـي ألقـي محـاضرةً.

جلسـتِ أنـت في الصـف الأول كأنـكِ اخـترتِ مكانـاً بجـواري.

قلـتُ ماعنـدي مرتجـلاً كلـمات مـن وحـي الفيلـم الـذي جعلـتُ حديثـي هـو تقديـم بسـيط لـه.

لكـن الغريـب أن امـرأة أخـرى تجلـسُ هنـا في هـذه القاعـة اختـارتْ أن تجلس في آخـر صـف كأنهـا تعمَّـدتْ أن تكـون هنـاك مثلـما تعمَّـدت أن تـأتي هـذا المـكان..

تجلس في نهاية المطاف المكاني..

نصفُها غائمٌ ونصفها صحو..

تأتي دون موعد على موعد في غاية الأهمية بالنسبة لي..

تهتدي إليَّ دون أن تهتدي وكأنها صدفةٌ وليستْ صدفة..

فليس من شأن الصدفة أن تكون نصف غائمة..

أو أن تكون نصفَ غائبةٍ..

تلك المرأة اللاثائرة..

إنها أنتِ..

عرفتكِ.. وهل أنسى تفاصيل ذلك الوجه وتضاريسه..

إنها أنتِ رغم أن عتمة متواضعة غطت نصف حضوركِ إنها العتمة السينمائية وليست عتمة وجهك الذي شق تلك العتمة لتكوني واضحة أمامي دون عمليات مونتاج..

أنتِ هنا؟

كيف ولماذا؟

امرأتان أمامي..

وأمامي ثورة أيضاً..

ثورة عشق..فأنا لأي واحدة أنتمي..؟

ألقيتُ كلمتي المقتضبة عن تجربتي مع الفيلم وظروفه بدقائق معدودة كما شكرتُ القائمين على العرض الذين أتاحوا لي عرض الفيلم ومنهم ماريا..

ارتبكتُ عندما رأيتك كطائر بلله المطر؛ لكني نثرتُ ذرات الارتباك بعيداً وأكملت الكلمات..

نزلتُ بعد أن أنهيت كلامي وصار الشيء الوحيد الذي أمامي هو شاشة عرض كبيرة..

نزلتُ وأنا تحت تأثير مفاجأة لم أتوقع أن تزلزلني؛ مفاجأة أعادتني إلى وجع الرصاص والزنازين ونكهة الثورة في أيامها الأولى؛ أما أنتِ فقد لاحظتِ ارتباكي الذي حاولتُ أن أسيطر عليه قدر الإمكان فهمستِ في أذني سائلة:

-هل ثمة مايقلقكَ؟

-لا أبداً؛ هو قلق أحاول أن أبني فيه توقعات.. توقعاتي حول رأي الجمهور.

-دعنا ننتظر ولاداعي للقلق..

قلتِ عبارتكِ وتابعنا نرصدُ تفاصيل تلك الشاشة الفضية التي بدأتْ تتحدث بلغتي أنا..

بلغة أبطال الفيلم..

فرحت عندما بدأت أم خالد في الحديث فتذكرتُ تفاصيل لقائي بها قبل سنتين قبل دخولي تركيا ثم فرنسا؛ استحضرتُ حواراتي الممتعة معها؛ استحضرتُ حزنها ومزاحها وشغفها بالأدب والشعر..

استحضرتُ قوتها؛ فأنا قد تعلمتُ منها الكثير في أيام معدودة قضيتها في ذلك المكان السوري المعذب..

التفتُ خاطفاً بصري إلى الخلف..

لم أعد ألمحكِ..

لم ألمح إلا بقايا تشابهتْ كلها في عتمة المكان..

الشيء الوحيد المضيء في هذه العتمة هو الشاشة التي تعرض فيلمي..

هل اختفيتِ أم أن الرؤية صارتْ ضبابية جداً؟

اهتزَّ عرشُ الكلمة الأخيرة وبدأتِ القصة من نهايتها كأنها ماتت لتولد مرة أخرى.

ترسلُ قصتها إلى الريح فتنثرها ألف قصة فوق حاراتٍ سورية أتمنى لو يعيدني هذا الفيلم القصير عن الثورة إليها..

مرّ الأبطال كما توقعتهم..

أم خالد والبقية كلهم حاضرون..

عندما بدأتْ أم خالد تتحدث صمتٌ عميق ساد المكان تذكرتُ تلك المرحلة قبل خروجي من سورية بلحظات كنتُ على الحدود على الحدود تقريباً أجريت لقاءات مع عدة أشخاص ومنهم أم خالد تلك المرأة السورية العميقة التي أخذتْ قصتها حيزاً كبيراً في الفيلم..

انتهى الفيلم..

انتهى نهاية مدوية..

نهاية على أملٍ أو حلمٍ..

انتهت المئةُ والعشرون دقيقة كأنها وطنٌ لم ينتهِ..

اجتمع بعضُ الأصدقاء لتهنئتي بين مادح ومجامل وثانٍ عليه..

أعقبَ ذلك جلسةٌ حوارية صحفية جاوبتُ من خلالها على أسئلة بعض الصحفيين.

استمر ذلك لنصف ساعة بمشاركة مدير المركز العربي..

انتهتْ أسئلة الصحفيين..

ومرَّ الوقت سريعاً..

ماريا كانت مشغولة في الحديث مع بعض الأشخاص..

حاولتُ أن أستغل فرصة انشغالها للبحث عنكِ كانت عيوني تجوب المكان الكل تقريباً قد غادر وبقي القليل ممن أعرفهم..

أين أنتِ؟

كيف جئتِ ثم اختفيتِ؟

لم أعرف ما الذي أتي بكِ الى فرنسا؟

ولماذا أنتِ في مناسبة لاتتناسب وطبيعة عملكِ؟

هل أنت هنا لأجلي أم أنتِ جزء من مهمة أُسندت إليكِ..؟ وهذا أمر يطرح الكثير من علامات الاستفهام..

حاولـتُ أن أعثـر عليـك، لم يهـدأ قلقـي الـذي كنـتُ أكابـر حتـى لايلحظـه أحـدٌ.

أشـعر أني في محـضر صامـت، حائـر في بوتقـة تصهـرني دون أن أنتهـي..

شـعرتُ أني أنتهـي عنـد تلـك الأسـئلة وألتقـي بأجوبتهـا دون أن أعثـر أو أتعثَّـر بإجابـة واضحـة.

فما الذي أتي بكِ؟

كيف اهتديتِ إلى مكاني بالضبط؟

فالصدفـةُ ليـس مـن شـأنها أن تعثـر عـلى التفاصيـل، فالتفاصيـل ليسـت مـن شـأنها، الصدفـة مـن شـأنها أن ألتقـي بـكِ في مدينـة ثانية..

بـين دمشـق وباريـس قصـص تركتهـا للريـح وأخـرى للذاكـرة والبقيـة تحدثـتُ عنـه قبـل قليـل في فيلـم مدتـه سـاعتان تقريبـاً..

ساعتان عن وطنٍ كنا أنا وأنت فيه..

ونحـن الآن في وطـنٍ آخـر، كلانـا يتحـدث عـن الوطـن بطريقتــه..

أنا أعلن الثورة وأنت تعلنين نهاية الأزمة..

لم أعثرْ على حل لأزمتي حتى اللحظة..

لم يعثر عليكِ بصري..

المكانُ بدا شاحباً حتى ساعة إعلان النتيجة..

تقدّمتِ إليَّ بتردد حازمٍ وكأنكِ تعلنين نتيجة بحثي عنكِ، وكأنك تعلمين بما يجول في ذهني من أسئلة لذلك جئتِ كي تطفئي لهيبَ تلك الأسئلة قبل أن تختفين للمرة الأخيرة، المرة التي سأعلن أنها الأخيرة، فأنت ذاتها المرأة التي أنقذت حياتي، أنتِ المرأة التي سحبتْ رصاصة حية من جسدي كادتْ أن تودي بحياتي..

آه كم مضى من الوقت دون أراكِ..!

مضتْ سنين طويلة كأنها حلم..

سبع سنين..!

سبع سنين عجاف، لا الثورة انتصرتْ فيها ولا أنتِ انتصرتِ..

أنتِ هي التي شغلتني زمناً وتجاهلتُ قصتها برغبةٍ مني.

المرأة التي لم تترك قلبي شاغراً لمرأة سواها..

المرأة التي أحببتها لأني وجدت نفسي مديناً لها، فلم أجد سوى الحب مكافأة لها لردّ ذلك الدين..

ديْنٌ قديم بثياب الصدفة يدقُّ باب نسيانكَ.. ديْنٌ لازالتُ آثاره عالقة على روحي حتى ساعة عرض الفيلم..

الكاميرا التي كنت ُ أحملها لحظةَ إصابتي بالرصاصة هي ذاتها الكاميرا التي صنعتْ هذا الفيلم، هذه الكاميرا التي احتفظتِ لي بها وقت كنتُ أتلقى علاجي لمدة خمسة أيام في بيتكِ..

لم أخفْ عليها منكِ..

لم أخف لأنَّ امرأة سحبتْ مني رصاصة لن تعبث بمحتوى ذلك الشريط..

كنتُ أصوّر المظاهرات في يوم الجمعة..

كان اسمه يوم الجمعة العظيمة تزامن ذلك اليوم مع عيد مسيحي يوم ٢٢نيسان من عام ٢٠١١ وهي السنة الأولى من الثورة..آه كيف مضى هذا العمر بسرعة!

كيف مرَّت سبع سنين من العمر..؟

كأنّي البارحة كنتُ في ضيافتكِ أبحث عن مداوٍ حاذق لأثر الرصاص على جسدي..

يومها قمتُ بتصوير كلّ ما وقعتْ عليه عيني، الاحتقان والصمت والخوف..

وكلّ تلك المظاهرات التي حصلت في المدينة..

ثم بدأ إطلاق الرصاص، سقط الكثيرون بين شهيد ومصاب..

أنا كنتُ أصوّر كل ماحدث..

أسعفنا بعض المصابين وسحبنا بقية الجثث بسرعة..

ركضتُ بعد ذلك لأتابع التصوير و أوثق لحظات إطلاق النار على المتظاهرين، وفي الوقت نفسه كنتُ مشاركاً في المظاهرة..

في تلك اللحظة تلقيتُ رصاصة..

ركضتُ عندما كانوا يركضون خلفنا..

ركضتُ حتى احتميت بكِ..

فوجدتكِ كما أجدكِ الآن..

لم تكوني بانتظاري بل كنتِ بانتظار صدفة، وأنت اليوم كذلك ربما لستِ لأجلي، وربما يكون الأمر مجرد صدفة، لكنها صدفة مدروسة بعناية..

فالمرأة التي تذهب خلف رجل الى آخر الأرض إما أنها تحبه حباً عظيماً، أو إنها تريد أن تغتاله اغتيالاً مدوياً.. لكنه اغتيال مجازي حتى اللحظة..

ماهذه الصدف التي تحدث معي؟

رجل مجهول يتحرّى عني، وآخر اشتبهتُ أنه يتبعني، ولقائي بكِ اليوم..

كان الحضور مشغولين بالانصراف.. وأنت اقتربتِ مني.. فبادرتكِ بالسؤال:

-أنتِ هنا..؟! إنها صدفة جميلة..

قلتِ:

-إنها صدفة حتى البارحة، شاهدتُ إعلان الفيلم...

قاطعتكِ:

-إذاً أنتِ هنا في مهمة صحفية؟

-تقريباً..

كلمة واحدة لم تقنعني.. كلمة واحدة تفسر مايحدث، كلمة واحدة تقولينها بعد سنين.. إنها لاتكفي..

فقلتُ لكِ دون مقدمات:

-سأكتفي باعتقادي أنها صدفة متقنة..

لم تسكتي على سخريتي اللاذعة فقلتِ وكأن ملامح غضبٍ ارتسمتْ على وجهك:

-سخريتك جميلة كعادتك، كنت أتابع دائماً مايخطه قلمك عن الثورات، تابعتُ لقاء صحفياً لك قبل أيام تحدثتَ فيه عن الفيلم وعن رواية..على كل حال أنا جئتُ الى هنا بمهمة صحفية بتكليف من وكالة الأنباء التي أعمل بها..

فقلتُ لك بمزاح ظاهري فقط :

-إذاً أنتِ لستُ هنا من أجلي؟

قلتِ مبتسمة:

-أنتم الرجال لايخطر ببالكم سوى احتمال أن هذه المرأة هنا لأجلي، لماذا لاتضعون احتمالات أخرى، ومع ذلك لن أقول نعم.. وسأترك نرجسيتكَ الأدبية تعمل..

فقلتُ:

-لستُ نرجسياً ولم أكنْ..نحن لم نلتقِ كثيراً كانت لقاءات قليلةً اثنان أو ثلاث..

لا يمكن أن تحكمي عليَّ بقسوة.. لكنني سأعتبر ذلك مدحاً..

قلتِ:

-لهذا السبب لم أعرفكَ يوماً لأننا نلتقي فقط بإرادة الصدفة أو الرصاص.. الآن يجب أن أذهب..

-دعيني أدعوك كي نشرب شيئاً أو نتناول طعاماً هنا مطاعم عربية قريبة من هذا المكان..

-يؤسفني ذلك فلا وقت عندي يجب أن أعود إلى الفندق حيث مكان البعثة الصحفية

-هل يمكن أن أحصل على عنوان الفندق؟

-لا أستطيع.. سأتواصل معكَ كعادتي رغم أنكَ لم ترد على أي اتصال لي أو رسالة..

لكن لن أعتبر ذلك تجاهلاً سأعتبره اهتماماً من نوع آخر..

على كل حال إن بقيتُ هنا وقتاً أطول ربما نلتقي.. أنا الآن مضطرة للذهاب

-حسناً كما تشائين..

انصرفتِ..

واختفيتِ كما ظهرتِ..

وداعٌ ولقاء بآن، ولم أعرف شيئاً عما جرى وسيجري، كلُّ شيء يبدو مبهماً مثل عتمة عميقة، الشيء الواضح الوحيد هو أنكِ كنتِ هنا قبل لحظات..

نحن نلتقي فقط.. ثم نتودع ونقول إلى اللقاء.. وما أكثر الأسئلة التي خلَّفها حضورك المفاجئ..

كلامٌ كثير يقفُ عند حدود الصمت عاجزاً عن التعبير.

أهي الدهشة؟!

أم هي الصدفة؟

أم هي تراكمات الزمن العتيق الذي يرمي بقاياه على شاطئ انتظار بعيد؟

أنت هنا! فكيف حصل ذلك دفعة واحدة دون مراحل أو مقدمات ؟

أهو خيالُ روائي انتابني في وجع التصورات أم طيف عابر طل من ممالك الأشباح المندثرة خلف تفاسير الأساطير؟

كلُّ الأسئلة أمطرتْ خيبة، فلا أجوبة..لا شيْ.. لامطر..

ماريا كانت هناك أيضاً..تقطع شرودي فيأتيني صوتها:

-هل تعني لك هذه المرأة شيئاً خاصاً؟

قلتُ بارتباكِ من وجدته حبيبته ملتبساً بجرم لقاء امرأة أخرى. ارتباك حاولتُ أن أغلّفهُ ببعض القوة:

-لا أبداً إنها زميلة..زميلة لا أكثر..

تردين وكأنكِ ساخرة من إجابتي:

-زميلة عادية تسبب لك كل هذا الارتباك؟ أنا اشعرُ أنك خرجتَ من زلزال مدمر.

صمتُ ولم أجبْ؟ كأنَّ شيئاً هزمني بقوة؟ انتظرتُ برهة لعلي أجد إجابة مناسبة تقنع أنثى بأنثى؟ فأنتَ لاتستطيع أبداً أن تكذب على امرأة؟ وإن فعلتَ ذلك ستكشفك حتماً؟ ستكشفك من حركة أهدابك..توتر يديكَ.. ورجفة الارتباك التي لاتغطيها قوة..

الأنثى لاتصدقكَ مهما فعلتَ لكنها تتظاهر بأنها تصدقُ ماتقول..

فكّرتُ فقلتُ:

-إنها قصة قديمة سأرويها لك لاحقاً؟ إنها بالفعل طويلة جداً..

-قلتِ هازمة إياي مرة أخرى:

-لستَ مضطراً للتبرير أمامي؟ فأنا صديقة.. مجرد صديقة.. وسؤالي كان نوعاً من الفضول..

قلتِ جملتكِ تلك وكانت الأخيرة بيننا في القاعة التي تبدو شبه مظلمة.

انصرفنا أنا وانتِ! أما «الأخرى» فقد سبقتنا قبل برهة من زمن أو دهركأنها لم تكن أصلاً..

فرغ المكان من أصحابه الافتراضيين! وعلى جغرافيته كان هناك أبطال لازالوا يترقبون كيف تفتح المدينة أبوابها للصبح..

غادرنا المكان خائبين ونسيتُ فرحتي بأن ثمة من قرأ الفيلم جيداً وسمع قصص الأبطال ولكن..يبدو أني لم أستطع أن أخفي صدمة لقائي بكِ! صدمةٌ طغتْ على عرض فيلمي..

ارتباكُ التساؤلات التي تتفتح في مكان ليس مكاني وليس مكانكِ .

كنا التقينا هناك فماذا أتى بكِ هنا ؟

ما الذي أتى بكِ بعد أن طَويتُ جراح سنين ظننتُ أني قد نسيتها! لكن نظرية النسيان تفشل بمجرد أن نلمحَ من كنا نحاول نسيانه..

رأيتكِ فتذكّرتُ الرصاص الحي الذي انهمر على الثوار المتظاهرين..

رأيتكِ فتذكرتُ سني الثورة السلمية..

أنتِ التي لم تتورطي بعشقِ أي ثورة لكنكِ تربطين قلبي وذاك المكان..

قلت لي مرة:

الثورات هي مغامرات[1] هي انقلاب شجاع يناقض الاستقرار الداخلي للفرد الذي يميل بطبعه الى السلام والاستقرار وتجنب العواقب التي تنتج عن الثورات..

آهٍ من يصدقُ أن الثورة كذلك..!

الثورة هي أنثى من طراز ماريا..

ليست أنثى من طراز غالية..

فصل جديد

هـل حقـاً كنـتِ هنـا؟ أم الحلـم سـخي لدرجـة تطغـى عـلى لا واقعيتـه ؟

هل كنتِ أنتِ ؟

أم هي لحظة عابرة كشعاع من آخر النفق..

وصلـتُ بيتـي في وقـت متأخـر بصحبـة أحـد الأصدقـاء الـذي يملك سـيارة..

ولـما وصلـتُ جـاءني اتصالـكِ كأنـكِ تريديـن أن تطمئنـي عـلى مكاسـبي الآنيـة

-سأهنئك للمرة الثانية، ردة الفعل كانت عظيمة.

-أنتِ لاتجامليني أليس كذلك.

قلـتُ عـلى سـبيل الدعابـة فعقّبـتِ بضحكـة سـاحرة كمدينـة شرقيـة:

-لا ليـس الأمـر كـما تتوقـع.. أنـا اتصلـتُ لأنـك يجـب أن تكـون غـداً صباحـاً في ضيافتنا، المديـر يريـد لقاءك، هـو موضـوع روتينـي، أعتقـد أنـه يتعلـق بالشـق المـادي.

-حسناً..سأكون هناك قبل ذهابي إلى عملي..

أنهيـتُ مكالمتـي المختصرة معـكِ، توقعـتُ منـكِ أسـئلة أخـرى، توقعـتُ مثـلاً أن تسـألي عـن غاليـة، أو عـن مـدى سـعادتي ببعـض النجـاح الـذي حققتـه اليـوم.

كنتِ جادة معي أكثر من كل مرة كما لو أنك اتصلتِ بشخص لاتعرفينه..

هل هي الغيرة الأنثوية؟

لكن لماذا يجب أن تغاري وحتى اللحظة لاشيء بيني وبينكِ؟

أنت لم تلمّحي لي مجرد تلميح بأنك تكنين مشاعر خاصة تجاهي، كنتُ طبيعية معي دائماً، وأنا كذلك كنتُ طبيعياً جداً ولم أخرج عن سياق ما بيننا من عملٍ..

في تلك الليلة لم أنم كما يجب، ولم أستطع أن أخفي غبطتي بنجاح الفيلم الموعود بحصد مزيد من النجاح في صالات عرض أخرى وخاصة بعد ترجمته إلى الفرنسية..

وربما قريباً سيكون في هولندا مشاركاً بمهرجان الافلام الوثائقية الذي يديره بحسب ماعرفتُ أحدُ الرجال السوريين المثقفين الذين سمعت عنهم دون أن التقيهم.

أما بعد..

وليس بعد..

ليس بعد..فلم أشفَ منك..

لم أشفَ من آثار الثورة..

النسوة اللاتي تشابهت حكاياتهن مع حكاية أم خالد أشعلن مصابيحَ الطرقاتِ الطويلة..

وأزفتِ اللحظةُ ولازلتُ أقول لك؛ كيف أشفَ منك؟

أنتِ والثورة قضيتان هاربتان إلى دمي .لاجئتان إلى قلمي..

وأنــا لستُ ذاك الرجـل التقليـدي أو الثائـر التقليـدي الـذي يبحـث عـن أنثـى في آخـر خيـوط الليـل..

(أحببتـكِ) فسـقط قلبـي دون مضـادات وتهـاوت روحـي دون راجمـات..

لم يسبق لي أن كنت بطلاً يجري حواراً مع كاتبته..

كاتبتي هي ثورتي..

والأبطال عبروا الجسر الذي رسمته..

آخـرُ رسـائلكِ رسـالةٌ كان يجـب أن تكـون قبـل سـت سـنين مـن الآن..

آخـرُ رسـائلك رسـالة تقولـين لي فيهـا أنـك أحببتنـي في يـوم ما..لكـن ذلـك الفعـل المـاضي لم يسـتمر. بقـي ماضيـاً وفتـح جـراح كل الأفعـال الماضيـة لـدي. ومـا أكثرهـا..!

تخبريني أننا لن نلتقي. فقدْ غادرتِ باريس..

تمنيتِ ليَ الخير والنجاح الدائم..

أمنيةٌ تقليدية عامة..

وكلامٌ مقتضب لايروي فضول كاتبٍ..

لم يسـألني أحـد عنـكِ؛ الـكلُّ سـألني عـن أم خالـد فقـط؛ تلـك

المـرأة التـي حملتهـا قضيـة في وجـداني..

قالتٍ لي مرة عندما ودعتها وأنهيتُ لقائي بها:

-عندما يقررون أن يعرضوا لك الفيلم خبرني..

اسـتيقظتُ مـن شرودي إلى قهـوتي البـاردة التـي نسـيتُ وجودهـا بجـواري..

لكني قمتُ بمهمة مؤجلة مع امرأة ظننتُ أني أحببتها..

حذفت رسالتكِ..

حذفـتُ كل رسـائلك القديمـة وعـدتُ إلى ضفـاف الثـورة والقضيـة منتشـياً بنـصر مرحـلي مؤقـت حققـه نجـاح الفيلـم..

كتـبَ زيـد عنـه مقـالاً موسـعاً في جريدتنـا السـورية التـي يتـولى هـو تحريرهـا..

وكتبتْ رشا زميلتنا الثورية الصامدة عنه أيضاً.

أخـبرتُ كلَّ الأصدقـاء عنـه لأنهـم كانـوا مثـلي ينتظـرون نجاحـه خاصـة لمـا يحتويـه مـن قصـصٍ مثـل النـزوح ومجـزرة الكيـماوي واطـلاق النـار عـلى المتظاهريـن وقصـص المخيـمات..

كلُّ ذلك اختصرناه في ساعتين..في مئة وعشرين دقيقة..

وطـنٌ مـن دقائـق معـدودة..وكأنَّ الزمـن كلـه اتـكأ عـلى الجسـد السـوري..

شربـتُ ماتبقـى مـن قهـوتي بسرعـة وفكـرتُ أن أخـرج بصحبـة بعـض الأصدقـاء..

اليوم هو عطلة نهاية الأسبوع..

لكنْ عندي ماأفعله؛ هناك مقالات يجب أن أكتبها..

لاشيء يربطني بهذا المكان سوى الوقت..

فوجودي مؤقت هنا..

ووقتي مؤقت جداً ومؤثث بأثاث بسيط تحسباً لأي صفقة مع الزمن..

والتوقيتُ الذي سوف أترك فيه «عقدة المؤقت» هي الذي لاأعرفه.

هنا أتممتُ روايتي الأولى التي بدأتها قبل سنين في سورية..

هنا رأى قليلٌ من البشر الفيلم الذي عبرتُ به أوطاناً؛ ومن وطني قادم به إلى هنا..

أما المرأة التي شغلتني زمناً فقد عادتْ أدراجها الى صفحات روايتي التي لم تعد مسودة.

ذاتَ مرة أيقظني الرصاص من غفوة الأمل والتقينا خارج الصفحات..

ثم عدتُ لألتقيك مرة أخرى في مكان اللجوء؛ أنتِ قلتِ إنها صدفة وأنا أقول إنه ميعادٌ مفتعل جداً..

كل ذاك أيقظني.. كما أيقظنا صوتكِ من صبوة الخمول الصباحي وارتجال أحلامٍ لاحدود لها إلا أنتِ..

اتصلتُ بكِ دون سبب، لكني افترضتُ سبباً وهو أني أرغبُ بالحديث لكن تحت مسمى أنكِ صديقة، صديقةٌ لستِ للوقت أو الانتظار..

-صباح الخير، أرجو ألا أكون قد أزعجتكِ أو قاطعتك عن شيء ما..

-لا لم تزعجني بل أنا سعيدة، سعيدةٌ لأنكَ حققتَ رغبتك القديمة وحلمكَ الذي سعيت إليه كثيراً..

-ولكِ فضل كبير لأنك ترجمته للفرنسية ولقي استحسان الفرنسيين.

-لا شكرَ على واجب، ترجَمتُه لم تأخذ كثيراً من وقتي لأنَّ الصورة تحدثتْ أكثر من الأشخاص وهذا سرُّ نجاحه..

-هذه الصور حصيلةُ زمن من عمر الثورة عشتها هناك في بلدي حتى لحظة عبوري الحدود السورية التركية..

قلتِ:

-لكنَّ هناك شيئاً ليس واقعياً فحسب بل يلامسكَ أنت تحديداً.

قلتُ:

-فما هو؟

قلتِ:

-عندما شاهدتُ الفيلم وبدأتُ ترجمته إلى الفرنسية شعرتُ أن ثمَّة جرحٌ أعمق من جرح وطن! هل هي قصة عشق مكبوتة جداً؟

قصةٌ لا أنتَ بحتَ بها لصاحبها ولا لذلك الشاهد أو المشاهد..

لا تقوم بأعمال إبداعية عظمى إلا نفوس ذاقتْ طعم الوجع..

فهل أنا محقة بتوقعاتي؟

طرحتِ سؤالك وانتهى كلامكِ..

شردتُ قليلا بعد أن سمعت كلماتكِ هذه..

من أين لكِ كل تلك الأنوثة الفائقة الانتصار التي تملك حدساً بارعاً كأنكِ ثورة تتوقع نصرها فتقوم قيامتها على الطغاة وتصير كل النتائج محسومة! ويصير التاريخ في لحظته وطناً من نساء يتوقعن الأجمل بحدسهن..

من أين لكِ كل ذاك الطغيان الذي أغواني عشقاً ورماني ثائراً ؟!

يالأنوثتك التي اخترقتْ أعماق رجولتي فصنعتها وصاغتها من جديد.!

أية أنثى أنتِ..؟!

أية ثورة أنت؟!

صارخة مثل حقول القمح..

دافئة مثل سلال الزيتون..

بهية مثل أول الصبح على رؤوس البيوت الواثقة بالشمس..

طال شرودي وكان يجب أن تقطعيه بسيفك الحاذق:

-لم تجبني؟!

فقلتُ لك:

-أجبتكِ لكنك لم تسمعي..

قلتِ مستغربةً:

-أنا بالفعل لم أسمع لكن أنتَ هل قلتها..؟

أجبتكِ:

-هل تريدين إجابة؟ سأجيبك لكن وجهاً لوجه هل توافقين أن نلتقي في المكان الذي التقينا فيه أول مرة؟

ضحكتِ ثم قلتِ بدهشة:

-نحن التقينا في مكان عملي أول مرة أليس كذلك؟

ضحكتُ أنا أيضاً:

-نعم كذلك لكن..

وقبل أن أكمل قلتِ:

-المكان عرفته..

-وأنا عرفته..

المكان هو المقهى الأندلسي وهذا هو اسمه..

هو المكان الذي التقيتكِ فيه للمرة الثانية..

للمرة الثانية والثالثة حيث لم يتنازل الحلم عن رغبته..

ثم حدثٌ روائي يتساءل بذاك السؤال القديم:

(ألم تشعر ببرد السجن)

(هو البرد فقط)

كتبتُ قصيدة على جدرانه بخط دقيق جداً حتى لاأنسى خيوط الرواية التي تؤدي إليكِ

فماذا تقولين لعاشق مثلي تغيّرتْ معالم جسده من آثار التعذيب..

تغيَّرتْ تضاريس «رجولته» البيولوجية..

بينما لازلتِ أنتِ تقولين عبارتكِ الشهيرة والأخيرة(على ثورة نلتقي عندما يصير الجسدُ وطناً)التقينا..

التقينا وأنا أمحو كلَّ أسماء النساء اللاتي التقيتهن قبل هذا التاريخ.

التقيتـكِ كـي أجيـبَ عـلى سـؤالك التقليـدي الـذي لم يكـن تقليديـاً..

هل هناك امرأة في حياتي؟

لمـاذا لم تقـولي -مثـلاً- هـل هنـاك امـرأة سـواي؟ هـل لأننـا لسـنا عاشـقين بعـد..

ربَّما سنكون مشروع عاشقين..

لاأعـرف لمـاذا يتملكنـي شـعورٌ روائـي أن هـذا هـو آخـر لقـاء لي معـكِ ومـع كل امـرأة سـواكِ..

شـعورٌ غريـبٌ أحـاول تجاهلـه وأنـا في انتظـار سـاعة لقائـي بـكِ..

وهـذه المـرة اختلفـتْ باريـس التـي لم أعتـد وسـطيتها ولا ترفهـا..

كأنهـا ليسـتْ لمـن هـو مثـلي فأنـا تناسـبني مدينـة لا تشـك بهويتـي مدينـة اسـتثنائية إلى حـدّ التطـرف دافئـة في عمـق برودتهـا صاخبـة وهادئـة رومانسـية مثـل قصائـد خرجـت عنـوة مـن نهـر السـين أو لعـوب مثـل ملكاتهـا..

لم اعتدهـا لم أعتدهـا حتـى بعـد مـرور مـا يقـارب سـنتين لكنـي اعتـدت ليلهـا فقـط فالليـل يتشـابه بعضُـهُ في كل المـدن..

ليـلٌ يجعلنـي أفكـر كثـيراً بتفاصيـل الأنثـى الأخـيرة فأنـا مسـتبد يجهـز أمتعـة رحيلـه بعـد ثـورة..

فأمتعة المستبدين ليست كتباً ولا براءات اختراع ولا رسائل عشاق، بل هي مسروقات شعوب بأكملها..

لكني لست ذلك المستبد الذي يسرق وطناً أو قلباً، فأنا حتى اللحظة منتشٍ بنصر الفيلم الذي لم أتوقعه..

كأني منتشٍ بكلمة « أحبكَ» قالتها لي أنثى أو امرأة استثنائية انتظرتُ منها تلك الكلمة زمناً..

كلمةٌ جعلتها آخر كلماتها، وجعلتها أنا آخر الملفات في كتاب النسيان..

قالتْ لي أحبكَ ثم هربتْ من الصفحات..

هي قالت أحبكَ وأنا قلتُ لها بأني قد نسيتكِ..

لكنها قالتها بأسلوب مباغت على طريقة نابليون في الغزو والحرب وامرأة أخرى تسألني بثقة كبيرة لماذا تخفي بين سطور روايتك وفيلمك حكاية امرأة مجهولة الهوية والفعل، مبهمة التفاصيل كأنها لغز، فليست هي القبيحة ولا الجميلة. فما قصتها؟

أعجبني ذكاؤكِ، فأنتِ قارئة ماهرة لما تخفيه السطور، فأروع قارئ هو الذي يتململ بين السطور ليكتشف كاتبه، ويعيد معرفته به لعل شيئاً ما يظهر فجأة فيفضح كبرياءه المكابر العتيد الذي يهتز بأول كلمةِ «أحبكَ» وهو الذي ظل زمناً يهرب من بوح الكلمات، ويهرب من لغات الحب الذي يخافه لصالح الثورة أو الموت..

فأيُّ امرأة منهما قالت لي أحبكَ؟

وأيُّ خلطٍ روائي هذا الذي يحدث معي؟

وأي رجل أنتَ الذي تخاف الحب؟

وهل ثمة رجل طبيعي يرفض حب امرأة؟

انتظرتكِ يوماً كأنه عام..

قبل أشهر التقينا، قلت لك اسمي أحمد اليعقوبي..

لم تكترثي لاسمي..

وقد نسيتِ أنتِ يومها أن ثمة ملف لهذا الشاب العربي قد مرَّ أدراج مكتبكِ يحتوي على فيلم ينوي الموافقة على عرضه في المركز العربي بمسعى من صديق عربي آخر..

أمّا الآن فلن أقول لك اسمي مرة ثانية لأن اسمي سيمرُّ مرة واحدة في الرواية..

مرة واحدة فقط..

جئتِ على الموعد المتفق والمكان الموعود بالقصص الآتية، ليس في جعبتي الكثير أو الجديد، فأنا أبحثُ فقط عن تحنيط اللحظة معكِ، بينما تبحثين أنتِ عن تطوّر الحدث.

وبين تحنيط اللحظة وتطور الحدث حكايات..

أنا أريد نصراً أحنطه حتى لو أعقبه فشلٌ..

وأنتِ تبحثين عن حدثٍ يتطور من نصرٍ إلى نصر..

أنـا أريـد أن أحبـكِ وأتـركَ الاعـتراف حبيـس روايتـي التـي سـوف تصـير بـين يديـكِ.

وأنـت تريديـن حبـاً يتطـور ويسـتمر ويبقـى ويكـون خـارج الحـدث الروائي..لكنـي اليـوم لـن أستنسـخ اللقـاءات الماضيـة لأني سـأكتفي بثـورة..

جلسنا متقابلين كعادتنا في ركن من المكان فقلتُ لك:

-من العمل إلى لقائي.. أنا أقحمتكِ دون قصد في مشاغلي..

-ومن قال لكَ أني ممتعضة من ذلك..! أنا بخير معكَ

-وأنا بخير معكِ..

أنـا وهـي لازلنـا نتحـدث باسـتتار واضـح لكنـه فاضـح ماهـرة أنـت باسـتخدام التوريـة وماهـر أنـا أكثـر منـكِ في ذلـك وكأنـكِ تقولـين لي في كل مـرة مـاذا نريـد؟

ماذا نريد وقد انتهى التفاوض بيننا؟

سـؤالٌ مباغـتٌ منـكِ يمهـد للإجابـة عـلى سـؤالكِ الأخـير الـذي طرحتيـه قبـل يومـين:

-هـل غـادرتِ السـيدة باريـس؟ زميتـكَ التـي قلـتَ أنهـا في مهمـة..

ارتبكتُ قليلاً ثم تماسكتُ متظاهراً فأجبتُ:

-نعم غادرتْ أرسلتْ لي رسالة أخبرتني أنها غادرتْ..

سألتِ بسخرية محببة:

-وهل تغادر دون أن تودعكَ؟ أليس بحق المعرفة القديمة أن تودعكَ؟

قلتُ لكِ :

-ربما الوقت حكم بذلك.. أعتقد أن وقتها كان قصيراً جداً..

ثم قلت بهجوم مباغت آخر:

-كأنها تشبه فيكَ أثر رصاصة في جسد.. فالرصاص في الجسد إما يقتل أو يبقى له ذلك الأثر.. ذلك قرأته في روايتكَ التي قرأتها أنا قبل الجميع، ربما لستُ أول من

قرأها لكني قرأتها قبل الطباعة..

سألتكِ من وحي كلامكِ:

-هل لديكِ مشكلة فيما لو أجريتُ لكِ توكيل طباعتها من بعد..

لم أتابع لكن معالم وجهكِ تغيرتْ وسألت سؤالاً بسيطاً:

-توكيل لي أنا؟! وهل ستسافر أم ماذا؟

-شيءٌ قد يشبه السفر... لكني باق هنا على كل حال، هو مجرد توكيل يبقى معكِ لأني حريص على طباعتها..

-أعتذر لما أقوله ولكنكَ موجود فلمَ التوكيل؟ كأنك تقول لي هذه وصيتي لكِ أن تطبعي روايتي من بعدي، إذاً

هل يمكن أن أعرف ما مبرر ذلك؟ هل ثمة خطر عليك فرضاً ؟

-هو ليس خطراً بمعنى الخطر..

صمَتُّ ثم قلتُ بنوع من المزاح كي أخفف حدة الموقف والتوتر الذي وضعتكِ به

-هو خطر روائي فقط.. لكن أريد أن يبقى هذا التوكيل بطباعة الرواية معكِ قد نحتاجه يوماً فهل توافقين؟

سكتتِ قليلا ثم قلتِ بحزم تعتريه خيبة أو قلق:

-أنا أوافق لكن ذلك يقتضي عليَّ أن أعرف الأسباب بغضّ النظر عن الموافقة.

-بالتأكيد أنت محقة في معرفة الأسباب لكن أريد أن أتحفظ عليها في الوقت الحالي حتى أصل إلى قناعة حقيقية أن مايجري هو ليس صدفة.

-عما تتحدث فأنا حتى الآن لاأفهمك؟

-قبل فترة هناك من سأل عني.. شخص جاء إلى مكتبك حسناً، افترضنا أن الأمر عادي قبل يومين أي في اليوم الذي عُرض فيه الفيلم كان هناك من يتبعني أنا افترضتُ أيضاً أن الأمر صدفة وأن الرجل يملك الوجهة التي أملكها. ذلك كان قبل أسابيع فقط وقد اعتبرت أيضاً أن الأمر صدفة حيث تعرَّض موقع صحيفتنا على الأنترنت التي أنا أساهم في تحريرها من فرنسا إلى الاختراق الصحيفة تابعة للمعارضة السورية وقد سبق وأن تحدثنا عنها مكتبها

الرئيسي في مدينة تركيا تدعى أورفا على الحدود مع سورية ولها مكاتب داخل سورية في الشمال تحديداً.

هذه الصحيفة بدأنا بتأسيسها سراً أنا وصديق لي اسمه زيد وزميلة لنا تدعى رشا، كنا نعمل بها بشكل سري تحت أسماء مستعارة، فجأة تعرض قسم من الحي الذي كنا نمارس فيه نشاطنا للقصف، ومع تشديد القبضة الأمنية في دمشق نقلنا المقر إلى الشمال بعد فترة من لجوئي إلى أوروبا..

أنا ربطتُ كل الأمور ببعضها ورأيت أن الملفات قد تتعرض لشيء ما..

ثم قلتِ بمعرض الرد على كلامي:

-ليس المهم هو الملفات بقدر ماهي حياتك مهمة، إذا حصل معك مايثير قلقك أو تعرضتَ لتهديد مباشر فالمفروض أن نخبر الشرطة الفرنسية، لاتنسى أنكَ في بلد حريات وقانون، فلا أحد هنا فوق سلطة القانون.

قلتُ لكِ:

-حتى اللحظة لا أجد داعياً قوياً لإخبار الشرطة، فالتهديد ليس مباشراً، فقد يكون كل ماحدث هو مجرد صدفة خاصة بالنسبة لذلك الشخص الذي كان يتبعني أو ذلك الذي كان يتحرى معلومات عني.

-دعنا نخبر الشرطة لعلها تحمي بيتك أو تغيّرَ مكان سكنك مثلاً، مارأيك.؟

-تغيير عنوان السكن هو أمر صعب في باريس، فإيجاد شقة يتطلب وقتاً.

سألتِ سؤالاً لايحمل براءة لكنه لايخلو من ملاحظة دقيقة:

-وهل وجود تلك المرأة بالتزامن مع كل هذه الأمور هو صدفة أيضاً؟

سألتكِ باستغراب:

-إلامَ تلمّحين؟

قلتِ بشيء من التردد:

-ألا يمكن أن تكون هذه المرأة مدفوعة من جهات أخرى مثلاً ؟

-حقيقة لم أفكر بالأمر لأنني لاأعتقد ذلك؟

-لماذا؟ هل كنتما حبيبين؟

-لا لم نكن حبيبين، جمعتنا قصة فانقضتْ بسرعة..

-هي قصة الرصاصة إذاً؟!

-نعم..

-لكن..

-لكن القصة انتهت منذ سنين..

-لكنها بقيت تراسلكَ وأنت في باريس بداعي امرأة

عاشـقة وربـما هـي تريـد أن تتحـرى أخبـارك.

أجبتكِ بانفعالٍ مستتر مع ابتسامة:

-تستطيع أن تتحرى أخباري بألف وسيلة دون أن تراسلني، وتستطيع أن تعرفها بأساليب أخرى، هي تستطيع الدخول إلى صفحتي الشخصية، وموقع الجريدة التي أكتب بها، كما أنها تعرف أني في فرنسا.. وربما لو كان لها سوء نية تجاهي لفعلتْ ذلك عندما كانت الفرصة سانحة لها، عرفتْ وقتها أني متظاهر قد أصبتُ برصاصة، لاأنسى أني بقيت مايقرب أسبوعاً في بيتها حتى شفيت تماماً.. فهل أنتِ تحاولين تشكيكي بها؟ أم أنت تشعرين فعلاً بكل ماتقولين؟

سكتّ ولم تقولي شيئاً، وتقاسمنا الصمت معاً إلى أن جاءت كلماتكِ:

-وماذا ستقرر؟ هل ستخبر الشرطة أم ننتظر ما يدعو لذلك؟

لمحتُ في عينيكِ خوفاً عليَّ حيّرني فأنتِ جدية معي وحازمة لاتميلين إلى إغوائي كرجل، ربما لأنك لاتحتاجين إلى الإغواء فأنت مغرية من دونه، في ملامحك البسيطة، ورقة الربيع على ذلك الوجه العربي في نصفه، وفي نصفه الآخر أناقة فرنسية تنتهي عند ضفاف الحضارات المتعاقبة، لكن ماشأن وجهكِ بالحضارات؟

قطعتِ علي شرودي مرة أخرى:

-لم تجبني ماذا ستفعل؟

-حاليـاً لاشيء، سـأعطيكِ هــذه الأوراق، وهــذا قــرص كومبيوتـر أيضـاً. إضافـة إلى توكيـل بطباعـة الروايـة، أريدهـا أن تبقـى معـكِ حتـى أنـا أقـرر متـى آخذهـا.

ابتسمتِ وقلتِ:

-بكل سرورسأحتفظ بها..

-سأكون مديناً لك ثلاث مرات

-عرفتُ مرة واحدة، ماذا عن البقية؟

-الثانيـة عندمـا ترجمـتِ الفيلـم إلى الفرنسـية، والأخـرى وهـي الأهـم أنـكِ سـاهمت بتسريـع عرضـه وكذلـك الموافقـة عـلى العـرض.

-أعتقـد أن إبداعـكَ هـو الـذي سـاعدك، أنـا فقـط سرَّعـتُ الخطـى قليـلاً بحكـم عمـلي..

-أنـا لاأخـاف مـن اقتحـام الشـقة بـل أخـاف مـن قرصنـة الجهـاز، فليـس لـديَّ إطلاقـاً شـكوك بـأن ثمـة مـن سـيدخل بيتـي لذلـك أتمنـى أن تبقـى معـك هـذه النسـخة.

-لا تقلق.. معي ستكون بأمان..

ثم ناولتكِ الظرف وقلتُ:

-هـذه قصـصُ أشـخاصٍ كنـتُ ولازلـتُ مؤتمنـاً عليهـا وأنـا عـلى ثقـة مـن أنهـا معـك سـتكون بخـير

قلتِ:

-أنـتَ تعرفنـي منـذ مـدة قصـيرة نسـبياً مـن أيـن اكتسـبتَ ثقتـكَ هـذه؟

قلتُ دون تردد:

-من عينيكِ..

شـعرت أني قـد سـببتُ لنفسـي ولـك إحراجـاً وكانـت تلـك العبـارة مفاجـأة لـك فعقبـتُ قائـلاً:

-لأن عيون الأشخاص هي مرآة أرواحهم.

-وهـل قرأتنـي جيـداً مـن خـلال عينـي؟ هـذا لايكفـي أليس كذ لك ؟

-هـو لايكفـي صحيـح.. لكـن المهـم أني عرفتـكِ إلى حـد يسـمح لي أن أقـول هـذا الـكلام.

لم تـردي ويبـدو أنـك لازلـتِ تحت مفاجـأة الكلمات فتابعـتُ قائـلاً عندمـا لم أتحـرَ منـك تعقيبـاً:

-هـا قـد أجبتـكِ عـلى سـؤالكِ الـذي طرحتيـه البارحـة وقلتُ لـك أن الإجابـة تحتـاج إلى مواجهـة لقـد وضعـتُ قصـص المـاضي خلـف ظهـري ولم أعـد ألتفـتُ إليهـا أنـا ألتفـتُ فقـط إلى المـاضي الـذي يبعثنـي إنسـاناً آمـلاً بالحيـاة..

قاطعتني قبل أن أتابع الفكرة:

-حياتـكَ الخاصـة هـي ملـككَ ولـكَ الحـق بـأن تجيـب أو لا.. أنـا مثلـكَ تمامـاً أبحـث عـن قصـة لكـن بمنظـور يختلـف عنـك. أنـتَ تبحـث عـن قصـة لتبنـي عليهـا روايـة أو فيلـماً أو مقالـة لصحيفـة تكتـب بهـا، وأنـا أبحـث عـن قصـة كـي أفهـم الأشـخاص والحيـاة، خاصـة إذا مـرَّ هـؤلاء الأشـخاص في حياتنـا فنحـن نجـد أنفسـنا لاإراديـاً نحـاول اسـتجوابهم وكأننـا منحنـا أنفسـنا الحـق بذلك..عـلى فكـرة أبي حـاول أن يحضر الفيلـم لكـن حالتـه الصحيـة في هـذه الفـترة لاتسـمح لـه بالخـروج، هـو معتكـف طـوال الوقـت بالكتابـة والقـراءة، وهـو يتمنـى أن يجمعكـما لقـاء قريـب.. يمكـن أن تـزوره في المنـزل عندمـا تقـرر ذلـك وهـو بانتظـاركَ.

-أتمنـى لـه الصحـة وسـأزوره قريبـاً في الأيـام القادمـة، أنـا أيضـاً سـأكون فخـوراً بلقائـه

-حسناً سنتفق على الموعد.. الآن اسمحْ لي أن أنصرف..

فقلتُ لك:

-أشـكركِ جزيـلاً.. وأعتـذر أيضـاً فقـدْ صـدّرتُ لـك مشـاكلي دون قصـد، ربـما كنـتُ بحاجـة لأن أعـبر، ربـما طريقـة التعبـير قـد لاتناسـب الآخريـن دائـماً

-لاداعـي للشـكر ولاداعـي للاعتـذار.. أنـا أرى في طريقتـكَ التعبيريـة فنـاً جديـداً ، فـما رأيـكَ؟

-ربما..

قلتُ كلمتي الأخيرة ثم ودعتكِ..

وابتعدتِ رويداً رويداً خلف ضباب الاشتياق

وكذلك غاب الوطن وراء ضباب الاشتياق والهجرة..

وكأني الطائر الموعود بألا أعودَ..

وكأنكِ أنتِ سرب حمام في آخر فضاءاتي..

وعادت الثورة تلتقط أنفاسها..

فيلم سوري يجوب دور السينما الفرنسية.

خبرٌ جميل..

ربَّما..

«ربما» تلك التي فتحت لي ألف باب لكنها ألقتني لاجئاً عند باب واحدٍ..

ربَّما..

نجاح لم أتوقعه بعد صبر..

أما أبطال الأحاديث الطويلة في الفيلم لم أعرف عنهم شيئاً كانوا يمرون فقط في دقائق الفيلم المئة والعشرين..

كأنَّ كلماتهم حصلت منذ لحظات فقط أو كأن الثورة بدأتْ منذ الآن إلى آخر الأبد.

كأنَّ النتيجة تقول لي: قف فخلفك الألم وأمامك العدو وأدوات الحرب والضياع..

كيف أقنع كوناً أني أريد أن يتحرر جرحي من التقادم؟

فهل أنا أقنعُ العالم كيف أتألم..

نتألمُ ولم نمزق خيامنا حتى الآن..

عجباً كيف سبَّبَ لي رحيلكِ كل هذا الشرود!

فهل ستقرأين تلك الرسالة التي تركتها لك بين تلك الأوراق؟

هل ستفتحينها؟

وهل نلتقي..

هل نلتقي بعد موتي الروائي؟

هل نلتقي بعد موتي المجازي؟

وأين هي حدود قيامتي إن كنتُ سأراك للمرة الأخيرة فأقول مقولتي الأخيرة وأنظف الحبر من أصابعي للمرة الأخيرة..

سأجدُ آثار أقدام تتبعني..

سأجد شهوداً ودلائل موتي وآخرين بانتظاري..

لكني سأموت برصاصة مجازية..

كنتُ أحسبها مجازية..

كأنكِ الثورة الفرنسية التي انتصرت وكأني الثورة السورية التي تنتظر..

عنوانُ بيتكِ مرة أخرى هو الهدف..دعوة منك برغبة من أبيك..

كاتبٌ مخضرم عتيد يريد لقاء كاتبٍ شاب جديد..

أرسلتِ لي عوان بيتكِ بعد أن أنهينا مكالمة قصيرة..

لم أشعر من حديثكِ أنكِ قد قرأتِ الرسالة مع أن الفارق بين التسليم وموعد حديثنا الأخير كان أربع وعشرين ساعة..

إذاً سنلتقي مرة أخرى وأخرى..!

وفي باريس مرة أخرى..!

في ذلك الوقت الذي تحضرتُ فيه لميعاد لقاء جديد لا يحمل اعترافات جديدة كنتُ على موعد مع خبر صادم كنتُ أخافه لكني لم أتوقعه..

وفاة الطبيب عبد الحي الموصلي[١] وعلى الأغلب أنه قد تعرَّض لعملية اغتيال في مدينة إسطنبول..

ماتَ الطبيبُ الذي كنا نبحثُ عنه..

مات قبل أن نلتقيه..

قبل أن يقول ماكان يجب أن يقال..

ضجت الصحافة والمواقع المهتمة بالشأن السوري بخبر موته أو اغتياله. كنتُ بحكم تواصلي الدائم مع الناشطين في الداخل السوري وفي تركيا على اطلاع بآخر المستجدات بخصوص موت الطبيب.

حتى لحظة سماعي وتأكدي لمقتل الطبيب كان كل شيء عدا ذلك يسير طبيعياً في ذلك اليوم..

عدتُ من العمل الساعة الثالثة بعد الظهر..

وصلتُ البيت الذي كان طبيعياً كالعادة باستثناء بعض الفوضى التي تركتها ليلاً وتكاسلتُ على إعادة ترتيبها..

فوضى أخرى لاتفسير لها غامضة عاصفة لكنها لم تترك بصماتها..

لم تترك شاهداً لم تترك وطناً..

هناك من ينتظرني دائماً ليس ضيفاً طارئاً ليس حلماً طارئاً.

كنتُ أسأل نفسي هل قرأتِ رسالتي فلم يعد عندي متسع من الفراغ الزمني كي أطرح السؤال..

ضيفٌ غريبٌ يحزم أمتعتي نيابة عني..

قد أعود..

ماتت زهرة التوليب وانقضت الحكاية..

عندما يموتُ البطلُ فهل تنتهي الرواية؟

عندما يموت البطل الذي هو الرواي والبطل بآن فمن يتابع سرد التفاصيل؟

من يكون الشاهد على موته ويتابع سرد الفصل الأخير الذي يعلن فيه موت البطل..؟

من منكم سيفعل ذلك..؟!

تلك هي الرصاصة..

فهل أتنم مستعدون الآن لسماع كلمة صاحب الفيلم الفائز..؟

نعم نعم صاحب أفضل فيلم سيصعد المنبر، ويستلم جائزته ثم يلقي كلمة مقتضبة..

عرفتكِ..

نعم أنتِ..

عرفتكِ تماماً.. كنتِ بين الحاضرين..

أنت مرة أخرى هنا، وكأني لم أمت البارحة..

تلك مفاجأة لي أكيف ولمَ أتيتَ وكيف عرفت بالموعد؟

كلمتي هي كلمة مقدمة روائية ..

رواية للتاريخ..

للدم..

من يصرُّ على اختيار الدم قدراً؟

هـل نجـرب سـعراته الإنسـانية أم نجـرّب قدرتنـا عـلى ترخيصـه وتحـدي الخالـق؟

سـئمت شـعاراتكم لم تحكمنـي تلـك اليافطـات مـن رصاصهـم..؟

ولا أوراق ميثاق أممكم..

اهتزتِ القاعة..

تحول كلُّ شيء إلى فوضى..

أحدهم أطلق رصاصة أخيرة وليست الأولى على جسدي..

لكنها كالرصاصة الأولى وربما هي..

لكنـي كنـت مطمئنـاً أن الفيلـم قـد ذهـب أبعـد.. والوطـن ذهـب أبعـد..

وصرت أنـا المنفـي الوحيـد فـوق توابيـت الأسـى أجمـع آخـر قطـرات دمـي..

ونامت أعينُ الجبناء..

نامتْ زهرة التوليب لكن حكاياتنا لم تنم..

صدقوني هناك جزء آخر من وطن..

جئنا الى الثورة متأخرين...

مسحنا الصمت من اللغة المتوارية خلف ضباب الوقت..

وعبرنا العتمة بضوء...

سرقناه من إرادتنا...

جئنا الثورة متعبين لكن متأهبين...

قلـت لي آخـر قصـة سـتعرفها قصتـي قبـل أن تجمـع قصـص الكثـير مـن الثائريـن والثائـرات في هـذا الوطـن..

اختلفت، قصتي،

لم تنتهِ قصتي...

بدأت قصتي...

قلتُ لكِ..

ثم ودعتكِ

النهاية

٢٧-١٠-٢٠١٨

اسماء شلاش

E.mail: na.alshlash@hotmail.com

التواصل مع دار كتاب
Email: darkitabone@gmail.com
facebook: دار كتاب للنشر والتوزيع
صفحة دار كتاب
٠١٠٢٩٧٥٥٢٠٠